

فتح الأندلس

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة السابعة من سلسلة روايات تاريخ الإسلام
تتضمن تاريخ أسبانيا قبل الفتح الإسلامي ووصف أحوالها الادارية
والسياسية والدينية وعلاقتها ببعضها البعض
وبسط عادات القوط والروماني هناك والتفرق بين
طبقات الناس وقدوم طارق بن زياد لفتحها
والسبب الذي دعاه إلى ذلك إلى مقتل
رودريك ملك القوط في واقعة
وادي لينة سنة ٩٢ هـ

تأليف

McGrath Zidan

منشأة الملال

مطبع الملال بالفجالة مصر

سنة ١٩٠٣

مقدمة

هذه هي الحلقة السابعة من روايات تاريخ الاسلام التي اخذنا في تصنيفها ونشرها بين اهل هذا المسان لتبسط فيها اهم حوادث التاريخ الاسلامي ونصف الحياة الاجتماعية والديها وعادات الناس واخلاقهم

ونشر التاريخ على هذه الصورة يشوق الناس الى استقصاء اجزاءه والثبت من تفاصيله وبوضعيه ايضاً لا يعده القاريء في كتب التاريخ الاعيادية . فضلاً عما تبعث اليه القصص الغرامية من التشويق لطالعه ما يرحب الناس في القراءة — نعلم ذلك ما نراه من تسابقهم الى مطالعه هذه الروايات وزيادة عددهم سنة عن سنة زيادة محسوبة . فلا يضي على الرواية بضعة اعوام حتى تضطر الى اعادة طبعها . واذا حسبنا نشر هذه الروايات في الملال طبعة اولى كان اكثراها الان قد طبعت لرة الثالثة

ورواية «فتح الاندلس» هذه يدل اسمها على موضوعها فانها تتضمن تاريخ فتح المسلمين للاندلس (اسبانيا) سنة ٩٢ هـ على يد طارق بن ازياد القائد البربرى الشهير . وبختل ذلك وصف حال الحياة الاجتماعية في ذلك العصر وعلاقة الملكة بالكنيسة وتأثير بجمع الاساقفة على ادارة الحكومة ونقوات طبقات الناس في اوروبا وعاداتهم واخلاقهم في تلك العصور المقللة وابحاث فلسفية اخلاقية تباين هذه الرواية عن اكثريقياتها . فنرجوا ان تقع خدمتنا موقع القبول ونطلب اليه تعالى ان يأخذ يدنا لاقام هذه السلسلة وهو وفي التوفيق



الفصل الأول

فتح الاندلس والقوط وطليطلة

الأندلس أحدى مقاطعات إسبانيا وأسماها في الأصل وندلوسيا نسبة إلى الوندال أو الوندال وكانوا قد استوطنوا بعد الرومان فلما فتحها العرب سموها الأندلس ثم أطلقوا هذا الاسم على إسبانيا ككلها.

وكانت إسبانيا في جملة مملكة الرومان الغربية التي القرن الخامس للبلاد فسلا عليها التوطّن وهم من النبائل الجرمانية الذين رحلوا من أعلى الهند إلى أوروبا طلبًا للمرعى والمعاش واقاموا في بورادي أوروبا كما اقام العرب في بورادي الشام والعراق . ثم سقط التوطّن على مملكة الرومان الغربية قبل سقوط العرب على الملة الكثيرة يضمها قرطبة وإنشاؤاً إلى الملك في فرنسا ولمايا وإنكلترا وغيرها وهي الدول اليافية في أوروبا إلى الآن

وكان في جملة تلك النبائل قبيلة التوطّن الغربيين « فيسيقوط » سقطوا على إسبانيا في القرن الخامس واستقرّوا من الرومانين وأشأوا فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الإسلامي سنة ٩٢ (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد البربري الشهير

وكانت عاصمة مملكة التوطّن في إسبانيا عاصمة طليطلة على ضفاف نهر الناج في أواسط إسبانيا . وكانت طليطلة في ذلك العهد مدينة عامة فيها المخصوص والقلاع والتصور والكتائس والدبور . وكانت مركز الدين والسياسة وفيها يجتمع جميع الأصناف كل دام ينظر في الأمور العامة .

وكان ملك إسبانيا عام الفتح الملك رودريك والعرب اسماهونه « لتربيق » وهو قويٌ الأصل تولى الملك سنة ٧٠٤ م ولم يكن من العائلة المالكة ولكنَّه اخْلَصَ الملك اخْلَاسَ وترك أبناء الملك السابق ناقدين عليه . وكانت إسبانيا تقسم يومئذ إلى ولايات أو دوقيات يتوّلى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق أو الكونت ويرجعون في حكمهم جميعاً إلى الملك المظيم في طليطلة

وطليطلة تقع على آكبة مؤلنة من أكاث يحيط بها نهر الناج . من كل جوانبها إلا

الشمال بما يشهده حدود الترس تماماً . ووراء الهر من الشرق والغرب والجنوب حال متصالحة تحجب الأفق عن أهل المدينة وفيها مغارس الربتون وكروم العنب وغابات السنديان والصنوبر . وفي منتصف المدينة الكبيرة الكبرى التي جعلها المسلمون بعد الفتح جامعاً وهي من النعامة والمناعة على جانب عظيم . وكان الناظر اذا اثنى نظره على ابنة طليطلة من شاهق تبين فيها من ضروب الابيات مزيجاً من الطرز الروماني والطرز القوطى وحول المدينة من الشمال ووراء الهر من الجهات الأخرى مغارس الناكفة والاثار وسائر اصناف الاشجار اذا اطلَ الوايق من احدى نوافذ مغارطها اشرف عليها كلها

الفصل الثاني

— فلورندا —

وكان في جملة قصور الملك رودريك نصر في شرق المدينة على اكمة تشرف على ضفاف الهر . وبحدق بالقصر صوف الاشجار والرباحون والازهار على مرتفعات تخللها مغارى الماء على غير نظام ما يزيد عنها جمالاً . ومساحة تلك الحدائق واسعة يحدها كلها الامن جهة الهر سور حولة المغارس في منازل بنوها لم يجانت ابواب البستان وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستمرق اليه من جهة ولها باب مستقل يستمرق الى البستان من جهة اخرى . ناهيك بقصور اخرى متفرقة في جوانب ذلك البستان بعضها للخاشية وبعضاً للاماكن . وفي جملتها قصر كبير كان يقيم فيه اولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات جرأا على القواعد المديدة عند ملوك القوط في ذلك الزمان . فند كأن من عاداتهم ان يجتمع في بلاطم في طليطلة ابناء ولائهم المشار لهم وبنائهم يقيسون هناك ويربون في البلاط الملوكي مما يتعارفون ويتشاررون فيشيرون على ما يرضاه الملك وينأّ دبور في خدمته ثم يتزوجون^(١)

ففي صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان اهل طليطلة مشيخاً بالاحتلال بعد الميلاد والناس يقاطرون الى الكتائس والديور وهم يهشون

(١) ابن الأثير ج ٢ ونحوه من مؤرخي العرب

بعضهم بعضاً . وأكثر الأكاديم ازدحاماً في ذلك اليوم الكبيرة الكبيرة لأن أكبر اساقفة طليطلة يصل فيها ويمضر القدس الملك رودريخ ينضم ويعده حاشية وكبار رجال دولته . فقصت تلك الكبيرة على سمعها واستلأ فنادقها وماجاورها من الشوارع والاسطح بالناس على اختلاف الأجناس والإعصار نعلم إلى رؤبة الملك ومشاهد موكبه المماضي . وما زاد الناس شوقاً إلى رؤيه الملك لا يزال قربه العهد من ملكه وقلما رأه أهل طليطلة فكيف يأهل القرى الجاوية . فاغتنموا ذلك العيد المشاهدة الرجل الذي أخلص الملك من غطرسة^(١) ملكهم السابق

ولم تبق امرأة لمخرج من بينها إذا لم يكن لمنع الصلاة فلشاشة موكب الملك رودريخ إلا فناء من أهل البلاط الملكي اغتنمت اشتغال الملك ورعيته بذلك العيد لخلو بيتها وتذكر في أمرها . وكانت من جملة بنات الكوبيبات حكام الولايات تقيم في القصر الذي يحيط بهم جميعاً بجوار قصر الملك فنادقها الملك منذ بضعة أيام إلى القصر الصغير المتصهل بقصره . وهو أكرم حددها عليه كل رفاتها ورفينها ولكنها كان سبباً كبيراً في تعاسها وانشقاقها وإنفاقها

فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر أهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت في بالغراف صحبتها . وكان ذلك اليوم صاحباً راهماً يدر مثالية في فصل الشتاء . وقد اهطلت اللمس من وراء الأشجار وأرسلت أشعتها على بحر الناج وما على ضفافه من الحدائق وفي جلتها حديقة قصر الملك فغيرت ما كان على الأوراق والازهار من الطالع . ومثل هذا اليوم يهلو للناس الخروج فهو من المنازل إلى البيوت لاستقبال أشعة الشمس والشمع يناظر الطبيعة

فاغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيته وزالت من القصر ونشأت في طرق تلك الحديقة وقد تدثرت فوق أنواعها برداً من الحرير الأحمر مبطنة بالترن أو الشاه الورد . وقد غطى الرداء أكتافها وبعظام جسمها الا ذيل ثوبها (السلطان) الارجواني المرركش بالنصب فأنه ما زال ينلا في أشعة الشمس وغير من ورائها جراً خطيناً . وأما رأسها فقد كان مكتوفاً وعليه شبكة من الحرير الأبيض تضم شعرها اللذعي ضمة واحدة وترسله إلى ظهرها مستعرضاً كأنها خارجة من الجام وتلك عادة الرومان في لباس الشعر اقتبسها

عهم التوط في تلك الاعصار . وكان ذلك المعر الذي بيلا من خلال تلك الشبكة وخصوصاً اذا وقعت عليه اشعة الشمس في اثناء مرور الفتاة بين الاشجار . على انت اكساهما بذلك الرداء لم يخف جمال فانها ورشاقة مدينهما . وما وجهها فقد كان مهلاً ناصع اليابس مشرقاً حمراء راقفة يكاد ينفع عاًئحة وقد زاده الاغراق والذبول هيبة وجمالاً وزاداً ثبات العينين الزرقاويين حدة وضوء . ولم تكن عيناهما زرقاويين تماماً بل كان فيها مع الورقة شيء لا يعبر عنه بغير السحر . وما فم مع صحن لا يدروا إلا مبتداً ابتسام الجلال والخشبة

سارت الفتاة في المدينة ومعظم اشجارها عالي من الورق وكثير رياحها خالية من الازهار كأنها تشارك فناها بالذبول والانحسار الا الارض فقد كانت كأنها بساط من العشب الاحضر مرصعة ببعض الازهار التي تفتح في الفتاء . فمشت الفتاة وهي لا تالي بما قد يعرض طريقها من الاغصان المدلة . فربما لطم كتفها ببعض وصدرها باخر رأسها باخر وبرت يديها امرأة تجوز حromo حوطها وتراعي حركاتها وتربيل الغبات من سبلها . ولم تكن الحبوز اقل منها قلماً ولكن الزمان حنكها ومرور المدنهان عليها ان الاحوال لا تتزوم على حال

وكان الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ثم ترسل نظرها من خلال الاشجار الى ما يطل عليه ذلك المتنان من الحدائق البعيدة ونوفها جمال شاخته يعلو بعض قممها تاج شعمس هذه الاشعة كأنها جبال من النضة . والفتاة تارة تنزل في واد وطوراً نصعد على تل واخرى تقطع لها نهرة من هنا وترى من هناك فتناول الفتاة الزهور والاغمار ولا تتكلم كأنها حكم عليها بالسکوت وجعل الكلام عليها ذنبها

وبعد الشئ يردها انتهت الى اكمة ميسقطة تعلق على التبر يكموها عصب فصير كأنه بساط من الدجاج وقد تطابر عنده الندى بوقوع الاشعة عليه فراق لفاتها الجلوس عليه والتعرض لأشعة الشمس التالياً للدفء . والتسبعين ينظر اليها الازرق الصافي . فالتقت الى الحبوز وقالت بصوت مخفي لطول السکوت « ما قولك يا خالة الا تتعذر على هذه الاكمة افتح بهذا الطنس الجميل .. »

فهربت الحبوز وهي تصلح تقاباً كانت قد لدت ورأسها وحول اذنها تجبي للبرد وقالت « اقعدني حيثما تشاءين يا حبيبي » قالت ذلك واسرعت الى كرمي من خشب كان في بعض طرق المدينة وجاءها به فاتت التعمود عليه وقالت « افضل

هذا العشب فان العنود عليه حسن في هذا اليوم » فنعتد العجوز بين يديها وفي لا تزال ترافق حر كامها وقلها بحوم حوطا وقد سرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة . فعملت ترقيبها في تربيع نظرها بما تشرفت عليه من مجرى الماء وما وراءه من اللال التي تكونوا غابات الصنوبر والزيتون والمنديان وبمخالل الغابات يوم مفرقة هنا وهناك كان الاظاهر الى تلك البقعة ينظر الى صورة مكرونة . فقالت العجوز « تأمي يا فلورندا بهذه المناظر الجميلة فيشرح صدرك وائزكي عنك الاوهام » وكانت تلك النعمة سبباً في هياج شجون فلورندا فقالت « لند اذكريني يا خاله بامر احوال تاسية .. كف يشرح صدرني وانا في ما نعملين من البابا .. وقد زادني بليلاً اشتغال الى هذا التصر »

قالت « وما يحيطك من ذلك الانتقال وقد اصبحت اقرب الى قصر الملك واعز جاهي .. »

قالت وهي تنظر الى آخر ما يقع نظرها عليه من مجرى الماء كأنها ترى قارباً يعود « ان ذلك الانتقال هو الذي اخافني .. وبالينة نقلني الى اطراف المدينة بل بالينة ارجعني الى والدي » قالت ذلك وشافت بدوعها فانشغلت عن النظر الى ذلك التارب بما جاز في خاطرها من امر والدهما وبعدها عنه ووقعها في ذلك الخط

الفصل الثالث

القونس

وكانت العجوز خالة ام فلورندا وقد احتضنتها من علنوبتها وربتها في بيت والدها حتى اذا آت مجدها الى بلاط الملك على جاري عادتهم كأنها ابوها ان تكون معها . فقضت في عشرها بضعة عشر عاماً ولم تكن ترداد الا حباً بها وانعطافاً نحوها لا فطرت على فلورندا من الجمال واللطف . فلما رأتها تبكي انتظر قلبها وقالت « اما الرجوع الى والدك فانه ميسور ولكن يقاومك هنا لا أرى فيه بادئاً وخصوصاً لاجل القونس .. » فلما ذكرت العجوز اسم القونس ظهرت البغبة على وجه الفتاة وكأنها كانت في

خليفة يغافل عن فدحه قليلاً وصعد الدم إلى وجهها فزالت ذيول لوعها . ثم تهدت والفتت إلى العجوز وقالت «دعيني من التونس ... حتى التونس ننسأه أصبح من أسباب شفائي وقد كدت كأن نعلمين أحببة سبب سعادتي ... آه ... دعيني أبكي ... ». فقلت العجوز « مالي أراك تحسين الشفاء عدفاً بك من كل حاجة وإنك من أسعد خلق الله ... ؟ كيْن تقولين إن التونس من أسباب شفائك وهو خطيبك ويسمى بك في سبيل مرضاتك ... ؟ ». قالت « أعلم ذلك وهذا الذي يزيد بليالي ... أحبة ومحبني ... وما الثالثة من هذه المحبة ... إن اللذن ذنبك ياخالله ... أنت علت قلي ... وكت خالية لا أعرف الفائق ... ساعدهك الله ... ». قالت « لم أندم على ما بذلته من الجهد في تربية فليكا لأنكما متداسان خلقاً وحانة وإننا من عائلة واحدة ... ولا سمعت في تربيكما كان هو ولبي عهد الملكة الواسعة ولما توفيت إلى أرجاء عالمكم برباط الخطابة حسيت إلى أوصالك إلى أوج السعادة . لأن التونس كان لا يلبث أن يصير ملكاً على أسبابها كلها ف تكونين أنت ملكة القوط . ولم يخطر لي أن يحصل ما حصل من الانقلاب فرمي أهل المطاعم والأغراض في أهلاك أبديه وإخراج الملك إلى أحد قواه ... ». ولما يافت إلى هنا خضعت صورها والفتت إلى ما حوطها مخافة أن يسمعها أحد ثم عادت إلى أيام حديتها قالت « فإذا كنت تمدين خروج الملك من بيته شفاءً فاني لا ألوتك ... ». فقطعت فلورندا كلامها وقالت « لا لا ... ليس ذلك سبب شفائي وإنما هو انقطاع التونس عن الجبيه إلى ... ». ها قد مضت أشهر ولم أشاهدوا وأظني أن اشاهد بعد أيام وخصوصاً بعد انتقالي إلى هذا التصر ... أعود بالله من هنا الانقال ... إن قلبي يهدني بسوه وبصيبي منه ... ولذلك تربيني منذ انتقالت إليو وإنما مغفرة الصحة لا يهداني عيش ... ». قالت « أراك واقفه يا حبيبتي فما في هذا النصر إلا ما يدعوه إلى الشراب صدرك وإنما سبب انتباختك فاما هو شوقك لا لتونس وهذا لا ألوتك فهو وإن يكن هو معدوراً في نفيه . لأن الملك برائب حر كابو وسكناته خوفاً منه لعلو بها اختلته من قبة يدك ... ». وكان النارب الذي وقع نثار فلورندا عليه في أعلى الهر قدم نواري بين بعض الصغير

ثم ظهر من بينها على مقرية من حدائق التصر . وحالما وقع نظر فلورندا عليه خنق قلتها لانها رأت فيو التونس واثنين من رجاله . فلم تعد تعلم ماذا تتول واكانت بالإشارة إلى فاقرب القارب من الفحنة وتزل التونس الى البر وشارى الى الرجالين فنزل احدها وهي في جهة أخرى وظل الثاني في القارب . واما التونس فلما وقع نظر فلورندا اسرع اليها وعليها لباس القناد الرسي وهو عبارة عن سراويل مختلفة قصيرة مبطنة بالثرو الى الركبة وحول صدره دراعة مختلفة من الامام وفوقها قبعة قصيرة ارجواني اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة وعلى رأسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطائر ومن تحت القبعة شعر الاسود بسترس الى اكتافه . وكان التونس في العشرين من عمره ولم يستطع شعر عاريته وشاربه بعد . وكان ايض الوجه اسود المكر . و كان قد علق بمحب فلورندا مذ كان ابنه على عرش اسبانيا وهو يومئذ وفي عهد الملكة لانه اكبر اخوه . وكانت فلورندا تستبعد حصولها عليه يومئذ ولكن خالها العجوز سمعت لدى الملكة والله التونس قبل وفاتها هاما من الدالة عليها بالنظر الى القرابة التي ينتمي بها فبحثت وتعلق التونس بفلورندا ملتفا شديدا . وكان يتردد عليها كثيرا وبعدها كل يوم تقريبا ثم انشغل عنها بعد وفاة والدتها اتابة من ضياع الامال . واصبح روبيك الملك الجديد وقد وضع عليه العيون والارصاد . خاف التونس الجبي « اليها ولكلها » كان يترقب الفرصة لرؤيتها وسأل عن احوالها حتى سمع بالاتفاق من النصر التقدم الى النصر الملاصق للنصر الملك وانها تقيم فيو وحدتها فهاجست فيو عيال الذرة ولم يعد يستطيع صبرا عن متابعتها للتنسق برؤيتها واستطلاع فكرها فاذ رأها لا تزال على عهدها اسرع في عند الاقتران . لانه كان يظمها زهدت يوم بعد خروج الملك من بيته . وانتق احتفال اهل طليطلة بعد الميلاد في تلك الايام وقد خرج الملك في موكيو الى الكبسة الكبرى والتونس في جملة العطانة وعليه لباس الرسي وهو في جملة الراكيين فحضر له وهو في أثناء الطريق ان ينفرد عن الموكب خلسة ويضي الى فلورندا لانه كانت قد بلغه اخبار فصحها فرجع اهلا لاخرج الى الصلاة في ذلك اليوم فاختار الجبي في القارب لولا « راه احد في اسواق المدينة وجاء معه في القارب اثنان من خاصته . فلما تزل البر ارسل احدها لاستقدام فرسو حتى يعود على راكبها الى الموكب قبيل خروج الملك من الصلاة . واستيق آخر في القارب لحين

الحاجة ... أمر خادمة بذلك وتنبت فوقه بصري على فلورندا فلم يقالك ان اسرع
غزوها وهو ب شب وثأر المسافة بينها نحو مائة متر

الفصل الرابع

— لسان الغرام —

اما في هذا رأته قادماً بفتت وظهورت البغية في عينيها واسرت دقات قلبها
وارتعشت ركبتيها وارادت ان تخفف لما لا يقوى على فعله فلم تستطع من شدة التأثر وانفع لوبها
رشخصت بصرها اليه وهي لا تصدق ايمانها تراء . اما هو فلما دنا منها ولم تخف له ولا
رجحت به تتحقق عنده ما كان يظنه من زهدتها فيه . وبعد ان كان مسرعاً بهدنة
المتناق شاططاً وندم على هبته وتطفله . ثم ما لبث ان رأى الجوز ببرول اليه وهي
تعار بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهي تقول « اهلاً وسهلاً بمحب القلب التونسي »
فاحتلآن بالله ولخته ما زال خائفاً فشيئي حتى اقترب من فلورندا فاذا هي لا تزال
جالسة وقد التفت بالردا . ويداها محبستان فهو حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها
اليه ونظرت فهو نظر حرق احساءه . وقرأ في عينيها بذلك الحظة ما لم يكتب على
الترطلس ملائكة صفات — فرأى فيها العتب والعصيف فرأى الشوق والوجود . فرأى
فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهم . فلم يستطع جواباً على تلك المعانى الا
بالجتو على ذلك الساط الاخضر وهو ينال بعنة الحب الوطن « السلام يا فلورندا
السلام » . ومد يده واحداً رأسه كأنه يسألها احساناً . فظلت هي شاحضة فهو ويداها لا
ترلان محبتيهن في ذلك الرداء . ولبث الاثنان شاهدين برهة وعيونهما تقاطعت وتنقاض
حتى طلب الدمع على فلورندا فشيئي عينيها فجذب عنها وجه التونسي . فاخترت يدها
من الرداء لتسحب عينيها فسبقاً التونسي الى استخراج متديلو ومسحها ثم مسح بو
وجهه وتنشق رائحة وتهدى تهيداً شديداً فيعاد يد فدمها الى فلورندا فلم تجد يدها
اليه : فلهم ايتها تبعد ذلك دللاً وعنيها فلم يعذها غد يده وقبض على يدها قبضة ارتعشت
لما فرائض الايثين كايمها امسكا بضاربة كهر بايثة قوية .

مضت فتحة وها ينفاطيان بالانفاس و لما من قراءة الاشكال ما يغترب عن الانفاس ·
و كانت العجوز تنشغل عنها بتعطى بعض الازهار والاستمار بين الاشجار رفقة بعواتها
و اغصانها مما قد يبدو منها في مثل هذه الحال · و ظل التونسي ساكناً وقد عول على الصبر
حتى تكون فلورندا البداءة بالكلام · فتحتها برقه واليد باليد والعن على العين والقليلان
يسار عن كايتها ينهاها بالحقنان · وقد غشي الاعين ما لا يلام هو من اكبر دلائل المقام
ثم فتحت فلورندا الحديث فقالت بفتحة الدلال والعتاب « ما الذي جاء بك
با التونسي ؟ .. »

قال « لا أدرى ما الذي جاء في يا حبيبي فهل تعلمين انت ؟ وما الذي اعمله فهو
اني اسرر هواك · واني حي برضاك ميت بعيناك .. حبيبي فلورندا .. هل عندك
مثل ما عندى ؟ .. نعم اعلم انك كنت تحبوني ولكن هل انت باقية على ذلك او
هي بعض او غيرك ما غير احوالنا وافساح آمالنا » ..

فادركت انه يشير الى خروج الملك من بيته ففتحت اناملها من بين انامله بافظ
مناظيرت اتها نحو وجهها عنه ونظرها لا يزال ثابتاً في نظره كايتها تقول له « أعدنا
هو مبلغ عملك بالحب وعواطف الحسين ؟ .. » فهم التونسي مغزى تلك الاشاره فقال لها
« لم اكن أشك » بصدق موذنك وقد امتنع قلباناً — ولكنني حببت سوّه حظي غيرك
وبعد ان خترت اي وملكي جرفني سوّه الطالع الى خسارة ما هو الم من ملك
العالم كله .. » قال ذلك وقد ابرقت عيناه وانتسلت اسرته وهو لا يزال ينظر اليها
ويتوقع ان يسمع قولهما · فعادت الى السكوت وافتت برؤاها وحولت نظرها الى مجرى
النهر واصفت الى صوت هديره · فاستولى على تلك المدببة سكوت لم يكن بخلة الا
خرير الماء وزفرقة العصافير

فلما طال سكوتها بعث التونسي عن العجوز فادا هي قادمة وفي يدها بعض الازهار
فندادها وهو يتول « تعالى يا خالة كلي فلورندا عساها ان تعطى عليّ بكلة ابرد
بها لفلي وجدى .. »



الفصل الخامس

ـ الحب كثير الشكوك ـ

وكانب العجوز قد وصلت اليها فندرت الزهور الى فلورندا واجابت التونس
فأثناء « اذا كنت لا تفهم بدون كلام فما انت من أهل الفرام . اخحتاج مع ما تراه في
فلورندا الى ايضاح . وهل تظن ما يابق بالشبان من التصرع يابق بالنتبات ايضاً » ثم
الافتت الى فلورندا وقالت « هنا هو التونس كليه ولسا ليه ... وقد سمعت منك
شكراً في عبيتو قبل رأيت صدق قولي في ثيابك ... »

رفعت فلورندا بصرها اليه وقد اخذ الديم منها مأخذًا عظيماً حتى ظهر ذلك
جليلًا في عيدها لما اعتززها من النبيل واللعمان فشخصت ببصرها اليه ببرهة وهو يكاد
يختلطها ببعض وقد نسي مصيبة في المالك وضياع حشو فهو وهان عليه ان ترضي فلورندا
 ولو خسر العالم باسره . وفيها هو غارق في تلك الملواجس سمعها تقول « هل شكت
في حي يا التونس ... »

قال « نعم ياميني ... والحب كثير الشكوك ... »

فاطرقت وهي تقول « صدقت ان الحب كثير الشكوك فند خامرني مثل ما خامرك
كما قالت خالتي ... ولكن ... »

فقطعت التونس كلامها وقال « لا أرى مسوغاً لشككك في ... وانت تعلمون اني مسؤولك
في هنالك . واما انا فيجيئ لي ان ارتتاب بيقاكلك على عهدي لما اصابي من نوايب الزمان .
فقد كنت ولبي عهد هن الملکة خاصبمت مثل سائر رجالها ... »

فلم سمعت ذلك ابدرته بالجواب قبل استئناف كلامه فقالت « لما احببتك ياميني
انا احببتك التونس ولم احب ولبي عهد مملكة النوط . ان الحب لا يعبر الرتب ولا
المناصب . والقاوب يا التونس تتعاقد وتخد وهي لا تبصر ولا تقوس ولا تكيل ولا تزن .
وهي لا تتعارف بالتهميات ولا تعرف الجاملات ولا تفرق بين الحقوق والواجبات .
الذائب يا التونس لا يرى علامات الشرف ولا يهوى النجاع ولا يخاف الصولجان —
الذائب يا حبابي لا يهوى الا الذائب ... »

قالت ذلك وقد نوردت وجهتها وبيان الاتهام في حمادها ثم اطريقت وسكتت وفي ملامح فيها اتها لم تستتم الكلام بعد .. فلم يدأ التونسي ان يتقطع سلسلة افكارها فظلَّ صامتاً وهو ينظر اليها نظر المستزيد ولسان حاله يقول اني كلامك .. فلما رأته يتوقف كلامها قالت « على اني آسفة لخروج هذا الامر من يدك لا لاني احب ان اكون ملكة .. ولكن .. » قالت ذلك وغاب عليها الحماده والغضب مما .. فتزداد احمرار وجهها وقد انقطعت اسرعها وافتنت نحو النصر كأنها تخاف رقباً .. وسكتت .. فانشغل خاطر التونسي بذلك السكوت وادرك بعض مرادها ولكنه تجاهل وقال لها « ولكن ماذا يا فلورندا يا حبيبي ؟ .. قولي .. افضلي »

قالت وهي تخفيص صوتها « ولكنني لولا هذا التبديل لم اكون افاسي هذه الملاعيب .. لم اكون احصب نفسي بين انياب الاسد .. وملادي الحارس بعد عني ... » وخلفها العبرات ولكنها استمرت في الكلام فقالت « ام اكون اعم بالا لوقظ غبطة على كرمي الملك او لوانه عهد بي اليك فلم يكن لهذا المخلص سبيل الى اقلاق راحتي ... » فتقطع التونسي كلامها وقد عانة البغثة وانتدلت الفبرة في قلوبها وقال « اذا افلق راحتك ؟ .. هل خاطبتك في شيء ؟ .. هل يدأ لك منه سوء .. اخبريني قولي .. » قالت « كلاماً لم يدلي منه شيء ولكنني لا احصب نفسي في ماء .. وخصوصاً بعد ان تناهى الى هنا النصر ولم افهم لهذا الفعل معنى .. فبقاء الملك في يدك ادعى الى سروري وسعادتي من هذا التهول ... »

فادرك التونسي الامر الذي تعرّض في يوم مع ما توخته من المبالغة في تلقييف العبارة وعلم اتها تزمرة لتفاهمه عن المطالبة بمحظتها .. وكانت لا يزال الى تلك الساعة جائياً بين يديها فلما سمع قوله احس كأنها صبت ماء غالباً على يديه فوقف وقد ظاظ عليه المدام وهاهانت عليه كل شيء في سبيل ارضها وقال « يحق لك ان تعيّري يا فلورندا اذا كنت متقادماً عن الامر ولكن لكل اجل كتاب .. وقد كنت امسكت عن زيارتك على ان لا ازورك الا بعد ان احترق رغائبك فطالب سعيه ولم اصل الى المرغوب فلم اعد اصبر على يدك وإنما خائف من فتورك .. فرأيت فيك من النبات في الحسب ما زادني ثباتاً في مسعائي .. فاعطي يا فلورندا ان ما يتوكل عليه هذا المخلص من احزاب الروم عصابة ضعيفة .. وإنما تكون الاساقفة من تصفيتهم رغبة في خدمة رومية (١) وكل

احراب الملکة ضد وفهم التوط واليهود وكل من يكره الظلم ... وليس هذا اعمال
الافاضة بهذا الشأن ولكنني اقسم لك يا رأس ابي وان كان مائنا ... ان روذرلوك هذا
لا يليث ان ينزل ويمود الملك الى اصحابي ...»

وكان فلورندا تسمع كلامه وهي تنظر في وردة من ورد الشفاء كانت خالها قد
جاءها بها فنشغلت بيتر اوراقها وهي تصفي لما يقوله التونسي . فلما بلغ الى قوله
يعود الملك الى اصحابه رسم ما يقى بين انانتها من تلك الوردة ورفعت اصبعها الى
كأنها ثبالت يقولوا او تنهى حقيقة ما يزيد . ففهم مرادها فازداد تهوراً في تصوره
واوهـة غرامة انه قادر على كل شيء فمد يده ومس اطراف شعر المستريل على كتفه وقال
« واذا كنت لا تقلين بقولي فاني اشهدك على نفسى واثهد هذه الحالة ايضاً ان بناء هذا
الشعر سراً على ان لم اف بتلوي »^(١)

فتحققت فلورندا انه يقسم صادقاً ولكنها لم تكن تخجل يوماً وبين تلك الاية
من العبارات فارادت ان تختلف من عهده فقالت « لا حاجة هنا الى هذه الاقسام ولا
تعرض نفسك للخطر من اجل الملك فانه مجرد باطل . ولانا المراد ان تكون معـاً في ماضـ
من أهل الاعـدـاـ . ولو في كـوخـ من أـكـواـخـ هـولـاـءـ العـيـدـ الـذـيـنـ يـشـغـلـونـ فيـ
الـحـرـثـ وـالـزـرـعـ ...»

الفصل السادس

موكب الملك

فاراد التونسي ان يجيئها فسح صغيراً فجفت والنفت فمح فرع الطبول وقرفةة اللمـ
فعلم ان موكب الملك راجع من الكـوسـةـ . وقد وصل الموكب الى التصر وهو لا يزال
مستغرقاً في حديقه مع فلورندا فلديم وتحقق انه اخطأ ولا بد من انت يجيـ
روذرلوك الطـنـ فـيـوـ . ورأـنـاـ فـلـورـنـدـاـ قـدـ يـقـتـ وـسـعـتـ فيـ مـثـلـ مـاـ سـعـ فـادـرـكـ اـنـ
أـطـأـ عنـ الـاحـتـنـالـ فـقـالـ لـهـ « اـذـهـبـ اـلـآنـ بـسـلـامـ وـلـيـكـ اللهـ مـعـكـ ...»

(١) كان ارسال الشعر من ملامات الشرف عدد القوط ولا يلقى او يقصى الا السيد

فأمسك يدها وودعها وهو يقول لها « ادعني لي فانك من الملائكة وداعوك
رسبيجاب . واذكرني في صلاتك عصاي ان اتفق لمرضاشك » فأجايةة باشارة من ،
أهداها وحاجيها . فخول نازلاً نحو النارب ليبعد يو عن الحديدة ثم يركب فرسه الى
القصر من طريق آخر . وظلت فلورتنا واقفة وهي تشييع بصرها حتى توارى فعادت
إلى مواجهها والجورز بين يديها فرجعوا نحو النصر وفلورتنا لا تكلم لعظم ما قام في غيابها
بعد ذلك الحديث . وقد ندمت لعراضها بأمر الملك وكانت ان يعبر ذلك إلى
الاذى بجيئها

اما رودرييك فقد سار بهوكو الى الكبيرة في ذلك الصباح وفي نعم شاغل من أمر
النوايس لانه كان يتوقع ان يراه في الموكب في جملة العاشية وكان قد زربها الكبيرة
للملك زينة باهرة بالرياحون واضاؤوا الشموع وأوقدو البغور حتى اشترت رائحة على
ما جاور الكبيرة . وكانت اصوات المربابين والصلبان تسمع لمسافة بعيدة والناس
يتراحمون لما هاهن مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضًا بالمطعون من السنوف
والنواخذ اكتار من المارين في الاسواق

ولما اقبل الملك بهوكو خرج الاصافنة لاستقباله ووراءهم وبين ايديهم الشامسة
والرهبان محملون المشاعل من الشمع وبعضهم محمل الصليب وأخر الكاس طآخر
غير ذلك من شارات الفصراية . فترجل الملك عن بعد وترجل من كان معه فكان
اول من استقبل الملك رئيس الاصافنة ثمباً فاخفي الملك على بي وقبلاً وقبل صليباً
مرصعاً كان فيها . ومشوا جميعاً في فناء الكبيرة الخارجي والإصافنة ورجال الكهنوتها مامهم
حتى أقبلوا على واجهة الكبيرة من الغرب فدخلوا من بابها وهو عباره عن ثلاثة ابواب
اوسعها اعظامها عندها العليا بشكل قطارة مثالية عليها توش مخنورة تجل الملائكة وبعض
القدسيون والآباء . فشقى الملك وعل رأسه ناج من الذهب يشبه ناج الرومان وشعر
مسترسل الى كتفه وظهره . وشعر لحيته وشاربه مسترسل الى صدره . وكل اشراف
المملكة بين يديه بالشعور المسارسلة والثيارات المتشابهة والكل يشهدون بما يشاهدونه
من الزهو في ذلك العيد . وساروا في صحن الكبيرة بين اعمدة تشييع من الرخام التي او
المرمر منصوبة في ثلاثة صنوف من الغرب الى الشرق بزيد عددها جميعاً على ثمانين
عموداً وعلو الكبيرة من صحنهما الى اعلى قيمها ٦٧ متراً وطولاً بزيد على مئة متراً . وقد
زادها تفخامة في ذلك اليوم ما علقه فيها من التزييات المذهبية بالشمع الملونة والفناديل

المهارة بالزينة امام الصور وقد تصاعد الدخور وعلت اصوات المرتلين يقللها غونا
الناس بالرغم عن سعي الكهنة في اسكنهم
ما زال الملك مائياً حق استقر على كرسي خاص بجانب المذكول واستقر سائر
حاشيته في مجالسم ومبرحون علامه الصابب . اما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعنهاء
شائعة في حاشيته وفي الجماهير كأنه ينش عن ضائع . وكان في كرسي عن يده قيس
كان يلزمه دائمآً فتقيم معه في قصره وبصل لة صلاة النوم وصلاه الصبح وهو الذي
يعرقه وبرشهه ويزريه . وكان الملك لا يذهب في اختفال الا اصطحبه ولم يكن
يهم امر الا يهشوره واحدة الااب مرتون . وكان طاعناً في السن وقد شاب شعره
ودق عضله وتشهد جلد وجهه واستطالت اسرع جبهه وغارث عيناه وزادها ارسال شعر
حاجبيه فوقها غوراً واختنها . وقد نسافت اسانانه والخلفت شفتها حتى اصبح فمه وادياً
بن جبلين . وكان في شبابه وكوله سريح الكلام فلما ضار اهتم خالط كلامه تنهى
شعب السام في قفهم ما يقول . وكان فصیر النامة متخصصها مثل فامة الشبان . وكان
شدید التعلق بكرسي رومية لانه ربي فيها فشب روماني المبدأ والغرض . ولم يكن
يحب جنس التقط على الاطلاق فكان لذلك من اكبر المساعدين على تنصيب رودريك

الفصل السابع

الروم والتقط

والشاغض بين الرؤم والتقط طبيعى لان اسبانيا لما فتحها التقط في القرن الخامس
للميلاد كانت رومانية المذهب والغرض وكل اعيانها واكابرها من الرومان فحصلت
التقط عليهم قرنين وبعض القرن ولم تحد قلوبهم ولا نأانت اغراضهم وظل "التقط"
يتكلم لغة الرومانية اللغة اخرى . وربما كان التقط احوج الى تعلم لغة الرؤمان (اللاتينية)
من الرؤمانى الى اللغة التقطية . لان اللاتينية لغة الملكة الرومانية وكانت اسبانيا
تابعة لها . ففتحوها التقط ولم يستطعوه استبدالها باللغتين كما استبدل العرب لغات ما فتحوا
من الملكة الرؤمانية الشرقية باللغة العربية . وشأن العرب والتقط في فتح مملكة الرؤمان
مشابه — جاءها التقط من الشمال وجاء العرب من الجنوب وكلها اهل بادية وخدونة

نا كنسحاماً واستولى كل منها على جانب منها ولكن العرب استطاعوا ما لم يستطعه النوط فأنشأوا على انفاس مدن الروم تدناً خاصاً به وجعلوا الام التي دانت لهم بـ^{هيالي}
الإيجاب إمة واحدة شكل لساناً واحداً . ولما التوط فتفى في أسبانيا ثانية ومتى سمع ثم
خرج منها ولم يدركها أثراً يذكر

وزد على ذلك أن التوط لما فتحوا أسبانيا كانت ديانتهم الاربوبية على مذهب
آر بوس^(١) صاحب البدعة الشهيرة في المصرافية . لأن دعاء هذه البدعة لما اصحابها اصحاب
من الأضطهاد وقاومهم الامبراطرة انسم هاجر إلى الملكة الرومانية وتفرقوا حوالها
في الشمال والجنوب وأخذوا يلون هذا المذهب في النوازل المتيبة هناك وبنهم فسائل
الجرمان في شاهي أوربا وفي جنلهم التوط . فلما فتح التوط أسبانيا كانوا يديرون
بالاروية وظلوا على ذلك قرناً وبعض القرن . ونشأ في اثناء ذلك الملة شيع أخرى
انبعها بعض الاسبان والتقط في جملها شيعة سلطورة المشهورة وشيعة باشونيوس وغيرها
في أواخر القرن السادس تولى أسبانيا ملك من التوط اسمه ريكارد فاتبع المذهب
الكاثوليكي سنة ٨٢٧ لليلاد فتبيعة الاساقفة ثم الرعية فعادت أسبانيا إلى مذهب كنيسة
رومية وصار الاساقفة أكثر من الرومان وجعلوا في جملة شروط الخاتم الملك أن
يكون قوطياً كاثوليكيًّا^(٢)

ولم يمض قابل حتى أحسن التوط بالخطأ الذي ارتكبوه بالغلي عن منهم ولغيرهم
وعلموا أن ذلك الغلي ذاهب بدولتهم . وكان أكثر ما يكرهون شعوراً بذلك غبطة والد
التوس بطل روبيدا . فعم على الغلص من تلك التبود فشعر الاساقفة بفاصد وكان
التلوذ قد افضى بهم فاختدلو مع اعيان البلاد ومعلم على غرض رومية فازلوا غبطة وولوا
رودريك — وبنال ائمهم فعلوا ذلك بعد موته غبطة . وعلى هن الكينية خرج الملك
من ذات غبطة التي بعث رودريك وجاءه الاكتروس من حربه . وبعدها أصحاب
غبطة أن رودريك ليس من أصل قومي ولذلك عذر مختلاً

وكان الاب مرزن من جملة الماعين في تصيب رودريك . وكان يكره
غبطة وأولاده بنوع خاص لأن غبطة كان يكرهه لشدة تعصيه رومية فكان مرزن
من اكار الناس سعياً في اخراج الملك من بدنه الى رودريك . ولذلك كان رودريك
لأنقطع امراً لا يشورنو . وكان في جملة مشورات مرزن على الملك أن يتحقق على

(١) دوريج ٢ (٢) تاريخ أسبانيا تأليف زويج ٢ صفحة ٢٥٣

التونس ولا يصح بغيرها عن النصر وإن يكون دائمًا بين يديه خوفاً من أن يلتحقه الاحزاب
للهطالبة بالملك^(١)

فلا يصل الملك إلى الكهنة في ذلك اليوم كان أول شيء نبهه أبو مرزق أن
التونس لم يكن في جملة فرسان الموكب . فغير الملك في الناس فلم يجد بهم فائض
خاطر ، ولكن مالبس أن شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تنتهي من الاعباء لحرکات
الكهنة في اثناء النساء على أنه كان يعود برهة بعد أخرى إلى الجھت عن التونس خلسة

الفصل الثامن

المحاكمة

فلا انقضت الصلاة وخرج الملك إلى موكيو عاد إلى الجھت عن التونس فلم يجد فركب
ودعا الأبا مرزق للركوب معه فقضى مسافة الطريق يتشاران في سبب تخوب التونس
في ذلك اليوم . فلما دنا الموكب من النصر رأى الأبا مرزق التونس مسرعاً على جواهه
من جهة النصر وكان عالياً يعلقاً بيالورندا فادرك أنها هي سبب تخوبه ولكنها انتصر
على تنبئه ذعن الملك إلى قدوسيه في ذلك المخطط

فوصل الملك إلى قصره وتراجعت باب الكبير وصعد على درجات عريضة من
الرخام تؤدي إلى قاعة النصر ثم إلى باحة قاعة على أساسات تستعرق إلى دهليز ينبع إلى
طرق توادي إلى إجراء النصر الخلفية وفي جلدها قاعة مجلس . فدخل الملك وقصبة من
طريق خاص يؤدي إلى تلك القاعة . ودخل رجال الدولة وفيهم وفود المهنيين من الطريق
العام . مجلس الملك على عرش مرتفع قيائمه بشكل قوائم الأسد وهو مصنوع من النضة والملك
في الملابس الرسمية وعلى كتفه بردة من الدبياج موشأة بالذهب وعلى رأسه ناج من الذهب
مرصع بالمجاراة الكريمة وفي يده صولجان من الذهب يتهي بصلب مرصع . وكانت
رودريك في نحو الأربعين من عمره متلي الجسم بارز الصدر والبطن قوي البدن طور في
وجوهه امارات البالة عيناه جاھظيان كبيرتان وحاجياء غليظان وشعر شارب وطويل
حتى يزيد على طول شعر لحيته ورأسيه

(١) كان لبيطة هلى قول بعض ثلاثة أولاد

جلس رودريك على عرشه فوق العرش صورة كبيرة يظل الميد المسيح مصلوباً وعلى جدران القاعة صور عديدة دينية . وجلس بجانب الاب مرتون وبين يديه رجال خاصون ثم تواجد الناس لتقديم التهاني وفي جلدهم التونس فاتحة دخل وهي " الملك وهذا " كما فعل الآخرون وجلس في جلدة الجلوس . فلما هم الناس بالاتصال اراد اللونس ان يصرن فأشار اليه رودريك ان يبقى فأوجس اللونس خيفة من ذلك الاستثناء . ولكن صبر حتى اذا خلا المجلس ولم يبق في القاعة غير الملك والقيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال الملك « ما الذي أحرك عن مرافقة الموكب في هذا الصباح يا التونس ؟ » فلما هم اللونس ولم يكن مستعداً للهواب لانه لم يكن يظن الملك هناله ليها به هنا الاهتمام فعلت وجهة امارات البنت ولكنها تخيل واجاب « كمن هي شاغل خصوصي اعافي عن القيام بدورس الصلة بين يدي جلاله الملك ... »

قال الملك « من الغريب ان يتفق لك هنا الشاغل في ذكرى عيد الميلاد وفي ساعة خروج الموكب ... » قال ذلك وحول نظره الى صورة في المائدة يظل مررم العذراء تحمل طفلها والملك يتشارل بمشيوط طرف ثوبه بأتم اجلاله

فقال اللونس « نعم انه اتفاق غريب . ولكنها وقع ولا حوله في وقوته ولني اتأسف لذلك »

وكان الاب مرتون في اثناه ذلك متغلاً بثلاثة بعض الصلوات امام صورة مريم العذراء بصوت مخفي لا يسمع احد ولا فرغ من صلاة عاد وقد ترجل برداه واصلح قلنسوته وجلس بجانب الملك واصفي لما يدور بهما . فلما رأه اللونس هناله بالامر اخليج قلبها لعله بما ينهما من المضايحة

اما الملك فلما سمع الاعذار لم يقبله ولكن رأى من الحكمة أن يؤجل حكمه في اقواله الى بعد مشورة القيس فأراد ان يصرفة فسمع القيس يقول له « بظاهرات اتفهم الملك كان في قصر جلاله الملك ... او يحيى او قصراً ... » قال ذلك وفتح وتدافل بصيح فتوبيديلو

فراد اسياء اللونس منه ولكنها خاف اذا اجاية ان يصرح ببنيه آخر

واما الملك فانه توس في عباره القيس شيئاً كان يتردد في ذهنه ولم يتحققه فأراد ان يفهم ذلك من مرتون على حدة فلم يصر على اللونس حتى يجيب فالثالث اليه لذاته الاستخفاف والتهديد والاغتسال معـاً وقال « انصرف الان يا بني واحترس ان تفعل

ذلك مرة أخرى ١٠٠

فأحسن التونسي عبد ذلك بخرج سكن لا جاذبه وكان ثقلاً كثيراً نزل عن صدره فخول غرب الباب وخرج وهو لا يكاد يرى شيئاً أمامه لعزم ما قام في نفسه من اسباب الفلق . ولم يكاد يخرج من باب التصر حتى اتته لنفسه وقتل له مركزة وما أكل اليه امر بعد خروج الملك من بيته . فند كان على عهد ابيوا ادا مر من هناك ت سابق الناس الى القاء الغيبة والاسمعطاف ولا يبقى احد لا يقف لها . ففر في ذلك اليوم والناس يتزاحمون في فناء التصر ولم يتبه له احد الاً أصدقاؤه حتى هؤلاء اصبعوا بمذارون المفلاحة بصداقتو خوفاً من ان يسيء الملك ظنه فيهم

خرج التونسي وقد هيئت فيه عوامل الغيرة وكانت الناظر فلورندا لا تزال ترن في ذيشه فند ذكر وعنه اباها باستخراج الملك فراده غبطة من الملك لكنها بوعده فرركب جواه وسار ترن الى متلول وهو غارق في بحوار الملواجس وقد استصرخ نسمة وهان عليه ركب اي شيء في سبيل الانتقام لوالد واسترضا فلورندا

— مختصر —

الفصل العاشر

— الزياره —

اما رودريك فلما خرج التونسي من مجلسه ظاهر برغبته في الاستراحة فدخل غرفته الخصوصية فجاء بعض رجال التصر فتنزع عن لباس الرسمى والسوء شابة الاعتدادية وهو لا يخاطب احداً منهم في شيء لانشغاله خاطره بالعبارة التي سمعها من الاب مرتين عن التونسي والتصر . فلما فرغ من لبس الثياب دعا الاب للغذاء معه فجاء . وفيما ها على المائدة لم يخاطله الملك في شيء لوجود الملكة معها وهو يحسب ان بعد امثال هذه المواقف عن ذهنها لما يترتب عليها من الغيرة . فلما فرغوا من الطعام قال الملك « يا ابااه اطلبه اليك بعد خدام المائدة بالصلة ان ترافقني الى غرفتي ... » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لأن زوجها كثيراً ما كان يخلو بالاب مرتين مثل هذه المخلدة للختارة او المشاوره او الاعتراف او غير ذلك

فلما خلوا في الغرفة قال رودريك « ما قولك بصاحبنا اليوم ؟ ٠٠٠

قال « اذا كنت تعني التوين فارى ان جلاله الملك قد بالغ في الحلم والرأفة في معاشرتي كيف يتغيب عن موكب جلالتك لاعذر ما أنزل الله بها من سلطان ؟ » قال ذلك بنتها الاستغراب واستجهل بطلتها فلما رأتهما على الملك ولو لم يكن روبيك قد الف الملاحظة وتنبه لما فهم منها شيئاً

فقال الملك « ولكنني سمعت تشير الى عذر اشاره لم افهمها جيداً »

فادرك الاب ان الملك يهتم في امتصال ما بين التوين وفلورندا وهو يتعامل ود يوم مرتين انه يصل سوا الا بدروعا فسابر الاب على فكره واجاهه بنتها البساطة قائلاً « لم اقل شيئاً وإنما قلت انه تاجر في النصر »

قال « واي قصر .. »

قال « واي قصر .. ؟ قصر جلاله الملك كأن مولاي لا يعلم علاقتها بذلك النصر ؟ »

قال وهو يبالغ في القبائل « لا اعلم علاقته له بهذا القصر بعد ان خرج الملك منهم ووضعه بيدي علي »

قال « لا اعني علاقة بالملك بل اعني علاقتها بفلورندا بنت الكونت جولييان التي امر جلاله الملك بقتلها الى النصر الصغير بعد بضعة ايام »

فلا ذكر اصحابها يفت الملك وخلف قاتلة حباً وغيره ولكن انتقام الملك ثبت عزيمته ف kepild كأن الامر لا يهمني وقال « هل هي علاقة قرابة ؟ أم ما هي »

قال « لا يهمني على جلاله الملك ان الكونت جولييان حاكم بونة والد فلورندا بنت ويرن غطاشة قرابة اظنهما نسائية ولكنني اعني قرابة التوين من فلورندا ب النوع خاص »

قال « اي قرابة ؟ »

فضحك مرتين وقال « كنت احسب الملك عارفاً بذلك لان خطيبها مشهورة من قبل توبي جلالتك عرش اسبانيا »

فلا سمع روبيك ذكر الخطيبة عظم على الامر لانه كان يحب فلورندا كثيراً ولم يكن يعلم بهك الخطيبة ولكنها لم يكن يخف خروجها من بيته اعتقاداً على ماله من المسيطرة عليها وعلى خطيبها وعوّل على ان يعطيها بالمال والسلطان او بهم ددها حتى تترك التوين وتعيش معه ولم يشاً ان يطلع التميس على فكره فظهور باقى اخواته بهذا

الجواب وقف . فاًدرك التيس ان الملك يريد الانصراف فوقف هو واصحاب وكان بين غرفة الملك وبين قصر فلورندا هايز يستطرق الى ذلك النصر وليس الى قصر فلورندا سهل من قصر الملك غير تلك الغرفة وقد هي اقصراها على هذه الكيفنةليل هذه الايام فعول دودريك على مكانتها بمحى لها تطلع عن عبة التوين . ولم ير ان يستند منها الى غرفته للا شعر الملكة بذلك وهو ما ينوي معاشرتها خفية عنها . فاغلق باب غرفه المستطرق الى قصره وفتح الباب الآخر المؤدي الى قصر فلورندا

الفصل العاشر

طارق

اما فلورندا فكانت بعد ذهاب حبيبها من المدينة قد تحولت هي والجوز الى النصر وقد اخذ الميام منها ماخذها عظيماً وانشغلت عن الوجدان براجعة ما دار بها وبين التوين في ذلك الاجتماع وندمت لما فرط من اقوالها المحبة له على طلب الملك . فالتى الحالى للتفكير وباقى الو لعلها يهدى الى ما يختلف هوا جهها . فدخلت غرفها وكانت تلك الغرفة تطل على المدينة من جهة نهر الناج ومجudge عن النهر شجرة من ثمر الليمون قد تعاظمت اغصانها ونشاعت حتى اصبحت فلورندا اذا جلس الى نافذتها لا ترى النهر الا من خلال الاغصان وخصوصاً في ذلك النصل وتلك الشجر جرداً نقيباً . ثم جلس فلورندا على كرسى بجانب الدافئة وارسلت بصرها من خلال تلك الاغصان العارية الى النهر وما وراءه فرأىت القارب قد بعد عن المكان . فتذكرت اهيا رأت حبيبها فيه ثم ارسلت افكارها في فضاء المواجه

اما الجبور فانها تركت فلورندا وعواجمها وتحولت الى ابونة بجانب صرير فلورندا فيها صورة المسيح مصلوباً وجدت امام الصورة وقبلها وجعلت تترع صدرها وتطلب الى المسيح ان يحيط التوين وبوتفنا ويهن له النرجس بنلورندا . وبعد الن ragazzi من الصلاة قبلت الصورة وخرجت وإلقت الباب وراءها وأوصت الخدم ان لا يقربوا من الغرفة للا يزعجاها . على ان الخدم لم يكن بوذن لهم بالصعود الى الطبلة العليا من

ذلك النصر حيث كانت فلورندا بل كانوا يقبعون في الطيبة السنلي فإذا أرادت حاجة بعثت اليهم مع الجوز .

واستغرقت فلورندا في هاجسها أمام تلك الدافعة حتى نسيت نفسها وبعثت من التفكير فاحسست بالتعاس فانكأت على سريرها وهي لا تزال في الحالة التي قابلت بها التوين فرأيت التوين في منامها فادعوها وجدها يطلق نوراً وأحياناً ان تقبله فلم تستطع فازرعيت وأفاقت وهي متبخرة الشخص . وفيما هي تسمح عينيها للتحقق أنها في المدام سمعت وقع خطوات فنظرت فإذا بالجوز داخلة من الباب وفي وجهها علام البغة فجلست فلورندا وقد بدت وقالت « ما بالك يا خالدة ما وراءك ... »

قالت « ما ورائي لاَ الخير .. لا نضروري » وسكتت

فازداد فلق فلورندا وصاحت بها « ماذا جرى هل أصاب التوين سوءاً؟ »

قالت « معاذ الله .. ولكن الملك يدعوك إليه ... »

فلا سمعت ذلك احضرت كل جوارحها ونسبت هاجسها مجبيها ولذاء مت من تلك الدعوة وقالت « أين هو .. وما الذي يiego في .. ؟ »

قالت « لا أدرى يا سيدتي وأكفي كت في غرفتي اصلاح بعض شأني فرأيت الملك ينسو داخلاً دخول السارق فبعت لروبيو فسألني عنك وطلب إليَّ ان ادعوك الى الغرفة الشماليَّة من هذا النصر على ان تأتي حالاً بالحالة التي تكونين فيها فجئت للقيام بأمره »

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحفقت وقوع الخطأ الذي كانت تختفِّي . ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جانها ودنت من الإيقونة فقبلتها وصلت الى الله ان يشمها وينفذها من مخالب الشرير . وطلبت الى خالتها ان تصلي عنها ایضاً ثم التفت بالرداء كما كانت ومشت وهي تتوسل الى الله من اعاق قلبها ان يغيبها من هذه التبربة - ولا يزاح المرء في مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى التوى الملوية غير المنظورة

مشت فلورندا كالذائب الى التقل فلا غزو اذا اصطك ركبناها وارتدت ملابسها وودت ان تكون تلك الغرفة على مسافة ايمال منها . على انها تجتمع بانكماها على الله حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات وإذا بالملك قد خرج لاستقبالها الى الباب وهو يensem لها ويرحب بها وقد خيل له ان مجرد ايماله يجعلها طوع ارادته وانه مجرد ما يظهر ارتياحه لها سببها تمثله في ارضائه

الفصل الحادى عشر

الغنة

اما في فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة والعنزة يسابقان الى قلبي والغضب والخوف يغليان في وجهها . وهو يمير بين يديها حق جلس على المendum ودعاما للجلوس الى جانب فحالت وامارات الحسنة والرزانة بادبة في عينها « لا يليق بيلى ان مجلس في حضر الملك ... »

فقال وهو يضحك « اجلسي يا فلورندا فاني لم ادعك الى لا جملك مشاق التجمل ولكنني اردت ان الاقيك وانت في راحة وسعادة ... اجلسي »

قالت « الغنو يا مولاي ... »

قططع كلامها وامسكتها يدها واجدهما فاحسست بال Lust يدها يدك كان شيئاً يمسها فاجهالت وجذبت يدها من يدك وجلست وهي تخاذل ان يمس ثوبها ثم فاحس رودريك باجذاب يدها وقد شعر يلس تلك اليد عكس ما شعرت هي و .. وشق عليه ما بدا من شرها ولكنه حل ذلك منها محل الحياة فابسم وقال « لا الونك يا فلورندا لما يبذلو في وجهوك من البغة لانك تهيبين من موقفك يدن يدي ملك الاسنان وهي اول من وقفت بها يدن يديه ولكن اعلى ياملكة الحال اني لم آت اليك ينسى الا لادعوك الى السعادة . ولا اريد ان تخاطبوني كاتخاطلين الملك بل خاطبني كما تخاطبون رجالاً همك ويهواك ويريد ان يجعلك اسعد فناء في هذا العالم »

فلما سمعت فلورندا قوله تحملت فصدء ولكنها أحبت الشخص منه بالمحسق فوققت وهي تتول « حاشا لمني ان تكون غير خادمة حذيرة يدن يدي ملك الاسنان الذي يحمل الناس بشدة بطدو ... »

قططع كلامها وقال « وما يمنع ان تكوني حباهي ايضاً ... بل تكونين مولاني ومالكة زمام ملکتي ... » قال ذلك وقد نارت عراطنة واحمرت عيناه ورجنت شفتها وهو يحاول التلطف بالكلام والاشارات ولكن المحسقة ما زالت غالبة على النظر وخلقو

قالت « كلاً يا مولاي ... لا يمكن ان اكون كذلك ... وارى جلالة الملك

قد فرط يا تونق اليه في دنياه فان هذا الموقف لا يليق بظلي .. »
 فظمها لانصدق عظم محبته ما وانتها تخاف ان يكون عاملًا على مخادعتها فوقف هو
 ايضًا وقال « يظهر لي انت لم تصدق قولي وبحقك لك ان تستقرئي ما يهدو من
 تربطي .. ولكنني اعترف لك يا قلورندا انت قد ملكت قلبي ودروحي وسلعت
 على كل جوارحي فتعطاني عليّ وتلطفي بالتحول .. » قال ذلك وهو ينظر اليها وقد اخفي
 خبرها الخيانة المندل المستعطف وبسط يديه وها تزداد من شدة المهاجر
 اما هي فلم تعجاً بهك الطواهر المخادعة فقللت على هدوها وثبات جائها وقالت
 بصوت هادئ، « اذيل ياذا .. »

فتوص من سـى اما قرب قبولاً فقال « بـان تـكونـي شـريـكـةـ حـاجـاتـيـ فـيمـشـونـ مـيـ عـيشـ
 السـعادـةـ وـالـرـفـاهـ وـنـكـونـ اـنـتـ الـامـرـ النـاهـيـ .. »

لاظهرت اليه نظر التـوـيـخـ والاـحـتـارـ وقالـتـ « وجـلـالـةـ الـمـلـكـ ؟ـ »
 وكانت تلك العبارة اشد وفـماـ منـ الصـاعـنةـ عـلـيـ رـاسـوـ وـلـمـ يـكـنـ يـقـوـيـ تلكـ الـاقـتنـونـ
 قـلـورـنـداـ لـأـنـ لمـ يـكـنـ يـعـرـفـ قـيـمةـ الـعـنـةـ وـلـاـ يـدـرـكـ قـوـةـ الـخـرـبةـ الـخـصـبـةـ .ـ وـلـذـكـ كـانـ يـظـنـ
 نـسـاءـ اـنـ اـبـنـ قـلـورـنـداـ اـبـهـامـةـ تـرـامـتـ عـدـ فـسـمـيـ وـسـلـمـتـ نـسـهـاـ لـهـ .ـ وـقـدـ فـانـتـ اـنـ الـعـنـةـ
 اـلـنـ ماـ فـيـ خـرـائـنـ الـمـلـوـكـ وـاسـيـ مـاـ عـلـيـ عـرـوـشـهـ وـارـقـ ماـ يـلـعـ اليـهـ مـدـيـهـ .ـ بـلـ يـسـيفـ
 قـاطـعـ تـقـبـ بـوـ النـفـاةـ اـمـامـ الـمـلـوـكـ وـخـبـسـ اـهـمـ مـهـمـ سـلـطـانـاـ وـاعـشـانـاـ .ـ وـلـذـكـ كـانـ
 موقفـ قـلـورـنـداـ بـيـنـ بـدـيـ روـدـرـ يـكـ موقفـ المـلـكـ اـمـامـ المـلـكـ .ـ وـلـمـ يـكـنـ نـعـاصـمـهاـ فـيـ اـوـلـ
 الـامـرـ الاـ رـغـبـةـ فـيـ الـخـاصـ بـالـخـصـيـ فـلـمـ رـأـتـ اـسـرـالـهـ فـيـ التـولـ اـجـاهـةـ بـكـلـةـ اـخـعـارـتـ
 طـاـكـ جـوارـحـوـ .ـ كـلـةـ ذـكـرـهـ بـارـتـاطـوـ مـعـ زـوـجـوـ الرـبـاطـ المـلـدـسـ الـذـيـ لـاـ يـبـرـزـ لـهـ
 مـخـاطـبـةـ سـيـاهـ بـلـ ذلكـ

اماـ هوـ فـسـاءـ اـنـ تـخـيـلـهـ بـلـكـ الـعـبـارـةـ لـاـ تـنـسـيـهـ مـعـانـيـ التـوـيـخـ وـالـعـيـفـ وـلـكـ
 تـجـاهـلـ مـرـادـهـ وـظـالـلـ عـلـيـ اـسـلـوـبـ بـالـاـطـلـةـ فـقـالـ « ياـ لـلـهـبـ منـ جـهـاـلـكـ وـغـرـورـكـ .. »
 اـدـعـوكـ اـلـسـعـادـةـ وـالـشـرـفـ وـاـهـلـ الـكـلـيـعـيـ الـبـهـاـ وـاـنـتـ اـنـسـونـ الـعـقـبـاتـ فـيـ طـرـيقـكـ ..
 اـلـأـ تـعـلـمـنـ بـاـ قـلـورـنـداـ اـنـ الـامـرـ الـذـيـ اـدـعـوكـ اليـهـ لـيـسـ فـيـ هـذـهـ الـمـلـكـةـ وـلـاـ فـيـ غـيرـهـ فـيـاهـ
 لـاـ وـتـنـذـرـ النـدـورـ للـحـصـولـ عـلـيـهـ .. »ـ تـعـلـيـ وـارـجـعـيـ الـرـشـدـكـ وـاعـلـيـ اـنـكـ تـرـفـيـنـ
 سـعادـةـ لـاـ يـدـاـلـهـ اـلـأـ تـنـذـرـ قـلـيلـونـ مـنـ خـلـوةـ الـأـنـامـ وـشـرـقاـ تـعـاـلـوـلـ الـبـوـاعـدـ رـبـاتـ الـحـيـالـ .ـ
 وـهـلـ تـجـهـاـلـنـ اـنـكـ اـذـ اـطـعـنـتـ قـنـالـيـنـ عـرـاـ لـمـ يـعـلـمـ بـوـ اـحـدـ مـنـ اـهـلـكـ وـلـكـ اـذـ ظـلـلـتـ عـلـيـ

شيك أساًت الى ايك لاني اذا رأيت منك الرها . بما عرضته عليك جعلت والدك
من اقرب المازر يابن من البلاط

فليما سمعت قوله لم تصر عن الغضب واحست بسلطان ما ينونق ملائكة فخاطبها
بما لا يخاطب بول الملوك وقالت وهي تشير باصبعها الى نفسها « تزعم يا رودريك انك
تدعوني الى السعادة والشرف وانت انت تدعوني الى الشقا والذلة . . . وبخاطبتك اياي
هذا التول ولو تلبيحًا قد اهديت واستصفرتني . بل انت مجرد توهمك فمولي بذلك جعلتني
ادنى خلق الله ويكفي توهمك في هذا الامر ان تامر برجمي . . . فاقفل عن ذلك ودعني
وشانى فانك صاحب عز وسلطان ولك الرقاب والاموال . واما انا فليس لي الا هذه
الجوهرة افصليها اياها . . . وهل تظن انك اذا اردت ذلك تستطيعها . . . » وارتعشت
يدها وارتعشت شفتها وايضا من شدة التأثر فاصطبّر قائلة « كلاما لا يستطيع
احد ان يسلّي هذه الجوهرة فالماء اثنين من خزانات العالم ياسره . . . وهي سلامي وتربي
ودرعي . وهي سهلتي الى السعادة الابدية »

ففُهم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت طربة في صدره ولكن هيبة الحق
وسلطان العدل غلبها على غضبها فلم يجرس على اهانتها . على انه ما زال راججا قبولاها فاراد
معاولتها بالكلام بان يخلط الجد بالمرجل فقال « وهل ذلك الفلام احق بك مني ؟ »
فلم يزد لها قوله الا عزبة وثباتا وقد ادرك انة يريد الحفظ من قدر النونس فقالت
« منها يكن من امره فانه نصيبي في هذا العالم وهو خطيب بشرع الله »

فازداد استغراباً لجسارتها وحدثته نسمة ان يجاهفها ويتقدم النسوة في معاملتها
ولكنه اجل ذلك الى فراغ جمهة حيلو من اهانها بالملائكة فقال لها « يظهر
يا فلورinda ان صغر سنك لا يزال غالبا على عننك . ولو لا ذلك لم تتأفلي غالباً
لا شأن له ولا مقام على ملك ملوك الاصياد . ولكنني اعنرك على طيائشك وابع
لك التفكير في امرك حق ترجعي الى صوابك ولا ترفضي النسمة التي ابدحتها لك . فلا تفوهي
هذه الترقة بما تمسكين يوم الاوهام الباطلة والاعبارات الفارغة . . . وهذا آخر ما
ابدحته لك من الصيحة . . . فتدبري امرك » . فلما رأت التوبيخ لم يجد معه تنعما عدت
الى اقناعه بنس برهانوفسككت اخطر اهابها وقالت بفتحة العقل والرازانة « يتول جلاله
الملك اني انسك بالاوهام الباطلة والاعبارات الفارغة فاقوله اذا علم ان جلاله الملكة
زاود شاباً عن نسوة وتطلب اليه أن يعيش معاها ويكون شريك حوانها . . . ؟

فلا سمع رودريك فوة سجها مع ما في ذلك البرهان من التغيرة هاج غبطة ولاح
له أن ينقدم العيف في اندفاعها وعمّ أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوي عن
شकها بالتونس—لأن ظلمتها لم ترفض طلبها لا لغطرارها بالتونس وتوهمها فهو اللئوة أو التروءة.
ومما زال يمتد إليها إذا خافتت خفر التونس وضعفه لتركه وطلب الكفة الرابحة فلا
ترى أفضل لها من ملك الأسماء—ولها توهم رودريك ذلك لأنه لا يفهم معنى الحب
الظاهر ولا يدرك منزلة العنة الحقيقية . وما درى أن الناسين إذا تعاقداً كانت السعادة
كلها في ذلك التعاقد ولا دخل للعنى أو الشرف في أسباب تلك السعادة . وتوم رودريك
أيضاً أنه إذا خفر التونس في عيني فلوريدا يزدهرها فهو . ف gioها من هذا الباب وسكت عا
سألته عنه من حيث أمرأته فقال « لا تعلمين يا فلوريدا إن التونس من بعض أنيابي
وإن زمامه في بدبي أفعل يوم ما شئت . » ئيظهر أنك لا تعلمين ذلك . ولعلك لا
تروجين على ما كتبت تعلمين قبل خروج الملك من بدبه . »

الفصل الثاني عشر

الصلة المخارة

فلم يكن ذلك الطعن في التونس إلا ليزيد بها مسكاً بـ واسهلاً كـ في عبيـو — والمحنة
الظاهرة تزداد شدة بما تلاقيه من المقاومة كـ تزداد الحرارة بالفرك . ولكن سـاءـماً أن يكون
هـذاـ القـالـمـ سـبيلـ إلىـ هـذـاـ الـكـلامـ وـخـافـتـ إـذـاـ أـجـابـةـ جـوـيـاـ عـنـيـةـاـ أنـ يـخـضـبـ عـلـىـ التـونـسـ
وـيـصـلـ عـلـىـ أـذـيـوـ . فـأـجـبـتـ إـذـنـعـةـ بـالـأـطـافـ لـهـمـاـ خـافـتـ مـنـ غـضـبـ رـبـاـ يـتـيمـ اللهـ عـلـيـهـاـ
بـالـفـرـجـ قـوـالـتـ «ـ إـذـاـ صـحـ»ـ إـنـ الـإـنـسـانـ لـاـ يـبـيـبـ أـنـ يـجـبـ غـيرـ الـذـيـ يـكـبـدـ مـالـاـ آـمـاـ وـشـرـقـاـ فـاـ
الـذـيـ حـبـ جـلـالـةـ الـمـالـكـ بـيـنـ النـادـيـ الـحـقـيرـ حتىـ أـرـادـ أـنـ يـجـعـلـهـ مـيـنـ أـهـلـ قـصـرـ كـافـةـ .
وـإـذـاـ كـانـتـ الـقـاعـةـ أـنـ يـهـمـ الـقـنـاءـ وـأـنـ لـاـ نـهـيـمـ فـاـجـدـ رـوليـ المـالـكـ بـأـنـ يـرـذـلـيـ
وـيـطـرـدـيـ مـنـ حـضـرـتوـ لـانـ لـأـعـذـ شـيـئـاـ بـيـانـ سـلطـانـ وـرـفـعـ مـنـامـوـ . فـأـرـجـوـنـ مـنـ
مـوـلـايـ أـنـ يـنـعـلـ ذـلـكـ فـانـ أـوـلـىـ يـنـصـبـ وـأـحـلـظـ لـكـرامـتوـ . »ـ قـالـتـ ذـلـكـ وـقـدـ تـورـدتـ
وـجـتـهاـ مـنـ عـظـمـ تـأـثـرـهاـ وـهـاجـ عـواـطـهاـ وـاصـلـكـ رـكـبـهاـ حـقـ لـمـ تـعـدـ تـسـطـعـ الـوقـوفـ .

ولكها تجلدت ونداغلت بالاعية أطراف جداتها بين أناملها ولبست تنتظرك جواب رودريك
 أما هو فلما تبين رباطة جأشها وقىّة سجّتها رأى أن يأنفها بالحيلة وبترك العنف
 إلى ما بعد فراغه من العمل . وذلك انه نظرًا لما آتى من تسكمها بالنون وتعلمتها
 بتوابع ذلك ذهنه أن ابعاده عنها يغيرها ويحملها على التبول بسواه . فظهورها بأمر
 طرأ على خاطره بعده فقال « لا أزال أعتقد اغترارك باللوم وقد طرأ علىي أمر يستعملني
 إلى الفخر الآن وما ذلك إلا من حسن حظك لأنني تركت لك فرصة تسلّمون التكرا
 فيها لملك ترجمين إلى رشك . فإذا لم ترجعي بعد هذه الفرصة فلا تلوبي إلا نفسك »
 قال ذلك بهجة شديدة وهي حتى خرج من الغرفة وترك قلورندا وحدها
 أما في فقد مرّها هذا النّاجيل لها تجد سيبلا إلى الغباء . فلما خرج رودريك من
 الغرفة مشتئ بغرفتها وقد فاضت أحشائها وعاد إليها المخوف وتزايد اضطرابها . فلقيتها
 العجوز بباب الغرفة فايندرها بالسؤال عما جرى فلم تحيها ولكنها خللت ساعة حتى أبلت
 على أبيقونة المدح فثبتت أمها وقرعت صدرها وقد ختنها العبرات وتحسّل تهدّلها
 ورباطة جأشها بين يدي رودريك إلى الحزن والكآبة ولم تز لها فرجاً يغير البكاء —
 كذلك يكون العمل المعكوس — فجعلت تتصرّع إلى صاحب تلك الابيقونة بدمع حاره
 وبعبارات صادرة عن قلب ظاهر يدقق مجده وبنوته
 فلما رأها العجوز جائحة جئت هي إلى جانبها وصلت معها وكلما قالت قلورندا عبارة
 أمنت العجوز لها . وكان في جملة صلاتها قوله « أبعد عن أيها الخلاص هذه الضررية وغير
 قلب هذا الملك أرجع إلى طاعتك ويشعر بنظاعة الامر الذي هو عازم على ارتکابه . . .
 ارشدني يا رب إلى سهل أنجو بو من هن الاشتراك . . . واحتظ عبدهك النون من كل
 شرٍ وأحرسه وكن معه . . . واجمعنا أيها الخلاص لعيش معًا بنوتي الله ومرضاو . . .
 تخدين على هذه المسكونة الغربية . . . هذه الفتاة التعبية التي ليس لها ملجأ سواك . . . انت
 ملجأ البائسين والقمعنا . . . لا نسج يا رب بوقوع هذا الشر في تذكرة ميلادك
 الجيد . . . »

وكانت كلما قالت عبارة لنفع صدرها وخالتها تتول « آمين » وكلها تذرفن
 الدمع العفنة

فلما فرغنا من الصلاة بعثنا وأحمسنا قلورندا بانيساط نفسها وارتياح ضميرها
 وشعرت كأن الاختصار قد زالت عنها وقد كانت متعاعيها على الله — ومثل هذه الراحة

لا يشعر بها غير أهل الآيات الوطيد . فان أحدم اذا أحدمت بمصائب العالم تحملها بالصبر وادهش آثارها بالصلوة . والبكاء من أنواع مذهبات الانقياض . فكثيراً ما يشعر الانسان بضيق فاذما بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور في النساء اكثر مما في الرجال

فما زال اختراب فلورندا جالست تذكر في سهل لنجامها واستغرقت في الانكار
والغموض جائحة الترفة . تتذكر ما يهدو منها

الفصل المائة عشر

ـ يعقوب ـ

فلذكر فلورندا في تأملاتها ولترجع الى الفونس لنرى ما كان من أمر بعد ذهابي الى منزله ولم يكن منزله بعيداً عن قصر الملك . فلما وصل باب المنزل ترجل وسلم الجعود الى بعض الخدم وهم بالدخول فأحسن بشيء استوفنه فوقت لحظة ثم دخل حتى أتي غرفته فرأى خادمة المخصوصي وافتباً بآياها ياتظر قدومه ليبلغ أوامر الملك من يربه وكان ذلك الخادم كلاماً قصير القامة جاحظ العينين أعنف الانف بارز الذقن . لم ينتبه قصيرة منصلة الى شعيبين غزروطي الشكل بارزتين نحو الاماكن طرفاها رأساً نحو خط وقد دبّ الندب في ذيذك الرأسين ولا زال اصل اللعنة عند الذقن سوداء . أو هي كثناية اللون . وكان اسمه يعقوب ولم يكن للاغنادية في تسرع شعره فكان الاعمال ظاهراً في لحيه حق اللد تخدمها جزارة نعجة تلب صوفها وتشبك ثم تبت اطرافها . على ان وجه الرجل كان على الاجمال ضاحكاً لبروز الانف ومحوظ العينين وبروز اللعنة على تلك الصورة . وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينتبه وجهاً ضاحكاً . وكان قدر رفيه في بيت غرفة شقة قبل ذلك فلما ملك قرية منه وكان يشق به ويهدى اليه بأموره ويسرت اليه كثيراً من آرائه . واهل القرى يقصدون بهم يعقوب على ذلك الترب وخصوصاً لانه غير فوطى . ولم يكونوا اعروفون أصله ولا كنية وصوابه الى ذلك المنصب وقد تجهزا من أمر

اما غريبة فقد كان يحبه وبذرية ولما دنى أجله أوصى أولاده به واوصاه به

وخصوصاً التونسي فقد أوصاه بالاعقاد على يعقوب بكل مهاته . وكان التونسي قد تعود على احترامه والوثق به من عهد والدك ويعقوب يسمى بذلك في خدمته . وقد لا يظهر له براءة لأول وهلة انه ذو رأي أو همة لما يبدو في وجهه من ملامح الجبون مع خفة الروح ولكنه كان في مقام الجد من أكثر الناس جداً وهلة

فلا وصل التونسي الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكاً وفتح له باب الغرفة فدخل التونسي ولم يكلمه على خلاف عاده من حارضه ومداعبيه . فادرك يعقوب انه في شاغل هام فوق لا يخاطله في شيء ، لذاً يعرض مهاري أفكاره او ينقل كلامه عليه أما التونسي فأول شيء فعله عدد دخوله الغرفة انه خلع قبعته عن رأسه وترع سينه وعلمه بالمحاط وجلس على كرسي من الخشب يجانب نافذة نطل على مغارس طليطلة عن بعد وأرسل بصر في ذلك النقاء والهار لا يزال صاحباً والجهازافياً . ليت برهة لا يتكلم ثم الفت بذهنه وصاح « يعقوب » فإذا هو باب يدهيه . فقال له « هل جاء عني الى هنا في أثناء غيابي .. »

قال « كلاً يا مولاي انه لم يأتي .. ألم تجده في الكيسة .. »
فخذل التونسي الصلاة فبادر الى ذهبه ان عمه كان في جملة المصلين لانه مطران (متربوبواست) ولكنه عاد فخذل انه بالنظر ما بين عائدو وبين الملك من الباعد ربه سار للصلاة في كيسة اخرى . فقال ليعقوب « أنقله سار الى الكيسة وماذا لم تذهب أنت للصلاه ايضاً .. »

قال « كنت مفتدها بأمور البيت .. وقد صليت هنا .. الا يكفي ذلك ؟ .. »
قال التونسي وكأنه نذكر امرأً كان قد ذهب عن خاطره « ساحهي فاني اميت ووجهه والذي ان لا اسألك عن الصلاة .. ما رايتك يعني المطران اني في حاجة اليه .. »
قال « قل وانا استندمة على عجل ولو كان في رومية .. » قال ذلك وتم فادرك التونسي انه يلوح الى ما بينهم وبين رومية من التناقض .. فاستحسن منه هذا الجبون وقال له « لا اخلط بعيدي بهذا المقدار .. الى يوم

خرج يعقوب الى غرفة الخدم فبعث خادماً ينشش عن المطران في الكيسة وآخر ينشش عنه في بيته وآخر في مكان اخر من مظاواه ورجع وهو في شاغل من امر التونسي ولكنه لم ي manus على استطلاع امره . فلما وصل الغرفة اخبر التونسي بما فعله وظلّ واقفاً وهو يلاعب اطراف لحيته بين اصابعه ويهزه امره . فلم يتبه التونسي له لاستهزاؤه في

هواجموا وقد تراهمت الاشكال في محيطها واكثرها بروزاً امر الملك وكيف استبد رودريك فيه واستخف به . وكيف انها بعد ان كان مطبع انتشار وجهاء المملكة اصبح مثل أحترم . . . وفك في الوبيلة لاستخراج الملك منه فادا هو فاقد من كل وجه لا مال عنده ولا رجال ولا شيء ينقاوم به ثم تذكر فلوريدا وانه عاهدها على اخراج الملك من رودريك فكيف يرجع عن عهده حاجزاً منهوراً . ففجئ لديه المصاب وقتل عليه التسلل وندم على ما فرط به بين يدي حبيبته من النساء . ففارق صدره وصفرت نسمة وغلب عليه الواس ففناشرت الدسموع من عينيه بالرغم عنه — والدمع ينبع الكرب حيث لا يرى المرء هزوجاً من شبيهه

وكان يتعجب لا يزال وافناً فسعى تهدى التونس ثم لحظ من بعض الحركات انه يسكي . فأدرك انه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه في خلبة فانسل . ولم يشعر به التونس حتى جلس على كرسيه بجانب الباب وقد اشتعل خاطره بالتونس فعول على املاع حاله من المطران بعد مجيئه وقد كانت له عليه دالة كبيرة

الفصل الرابع عشر

المطران اوبياس

ولم يمض برهة حتى عاد أحد الرسل وإنما يعقوب بقدوم المطران فتنزع بذلك خطاعية التونس فدخل عليه واخرين بقدومه . وكان التونس قد فرغ من بكاؤه وذهب بعض اصحابه فلما علم بقدوم عويم بيالك عن الاستئمام لذاته ما كان له من اللعنة فهو لا لشهار بسداد الرأي والتعقل مع عبيده لا لتونس

وكان امهه أُوبياس (عياس) وهو طليعاً مثل التونس يعنير رودريك مختلساً وكان قد بذل جهود في عدم الخابو فلم يفلح لان حرب الاساقفة الرومانيين غلب على رأيه ولأنه هو المطران الوحيد من أمم التونس وسائر أساقفة طليطلة من الرومان أو الذين يتضمنون لرومية . ولذلك غلب رأيه على رأيه وكان أُوبياس مثنيوك رودريك معتزل لا الاعمال الا عند الفرورة . وكان في ذلك اليوم قد حل صلاة العيد في منزله وخرج بعد

الصلة للجلوس في حديقة المترزل لأنهم يكن يعطيق ان بري رودريلك في ذلك المؤكب بدلاً من ابن أخيه . فلما جاءه الرسول يدعوه الى التوين ليس رداء وقلصونها وجاء مسرعاً

وكان أوبياس عضلي المزاج طويل الثامة طويل الاطراف عريض المكتفين عريض الجبهة يارز الوحدتين والذكور واسع الصدر أسم اللون اسود الشعر غزيره . وخصوصاً شعر لحيته فقد كان مرسلأ على صدره الى اسئل منطقته واصحاب هذا المزاج في الغالب قوبو الارادة مع علو اهليته وفقه الدين وعظم اهليته . وهم كبار في كل شيء . أما في الحرب او في التجارة او في السياسة او في أي شيء . تعاطفوا ^(١) فهم ينادون غالباً عن أصحاب الامزجة الاخرى وبنو قومهم في كل شيء . وكان اوبياس مع ذلك يهلي بالخطوات كبيرة التذكر قليل الكلام جهوري الصوت وكان قوله سديداً وراية صائبة ولم تخس برهة حتى سمع التوين خططوات عمود وكان يعرفها بعلتها ونتائجها وشدة وقمعها فوقف لاستقباله فلما دنا من باب الفرفة نقدم البو وقبل به فباركة ثم نقدم بعنوب فقبل يك فباركة وهو يبتسم له وكان اوبياس قلباً يبتسم لاحد

دخل اوبياس الفرفة مع التوين فاسرع التوين للحال وإغلاق الباب الخالص للخليع فتنزع المطران فلسونة فاسترسل شعر رأسه على كتفيه وكان فربراً جداً ولم ي Fletcher الذيب مع أنه في خروجهما من عنده . ونظر اوبياس في وجه التوين فرأه يبتسم ولكن تبرىء الدمع في عينيه وأثر الاندماج في امرأته فائز منقار في نعمه فقال لها « مالي أراك كاسف البال يا بنتي ؟ »

فلم يبال ذلك التوين عن ارسال دعويين آخرين وهو لا يزال مبتسمًا ولكن تجد و قد ارتاح ببرؤية عدو فقال « لا اظلكني أشكوك اليك أمراً لا تعرفه ... بل أظلك تشكوك مثل شكوك أيها ... »

فقال « فهمت مرادك يا ولدي ... ولكن الامر الذي تشكوك منه قد أصبح قد أفلأك بد من أمر حدث لك وجدد احزانك »

قالت « صدقت يا عاً ... وإنما مجدد أحرازي فوفوق بين يدي ذلك الوحش الكاسر في هذا الصباح وقنة خادم بن يديه ... وقفت وقد استصررت نفسي حتى حمبتني ذيـت حـيـاءـ ولو طـالـ وقوـيـ لا أـدرـيـ ماـذـاـ كـانـ يـصـيـدـيـ ... وـلـاـ خـرـجـتـ منـ النـصـرـ

رأيت رجال الخاشية لا يعبأون بفوري بعد ان كانوا اذا مررت بناسفون الى تقبيل
يدى ...

قال اوبياس « وما الذي دعا الى وقوفك هنا الموقف وعوادي برودريك فما
يُدعوك اليه ... »

قال « لاني تأخرت عن موعدك في هذا الصباح فلم أدركك الا وهو راجع من
الحكومة ... »

قال « ما كان أخبارك عن هذا الداخير فلم تكن تصفع تعينا ولا تحمل ملاماً حتى
ينفي الله أمرها كان معمولاً ... وما الذي أخرك عن الاحتفال ؟ ... »

فلم يتجمل التوين ان يقص على هو سبب تأخره لأن عنة مطلع على ما بينه وبين
فلورندا من الحبة المتبادلة وهو الذي وضع عربون الخطيبة ينهما فقال له « سبب تأخري
اني زرت فلورندا في هذا الصباح بعد ان طال غيابي عنها . وانت تعلم انتقامي عن
ذلك التصر وضواحيه منذ ابليت هصبة اي . وكنت احسب فلورندا انفررت فرارها
لاغتنق امرها فطال الحديث حتى نسبت الموكب فلم ائمه الا و م عادون من الحكومة
فأسرعت للانضمام اليهم . ولم اكن اظن الملك براقب حركاتي الى هذا الحد . فلما
دخلت عليه استيقظت بعد خروج المجهين وعني تعينا لم يكن شديداً بجد ذاته
ولكنها وقع على رأسي وقوع الصاعنة ... »

قال ذلك وكاد بشرق بدموعه ... فلم يبال اوبياس بدموع التوين لامتصفاره
مثل هذه الفطواهر — ظواهر الفحيف البشري — فقال ساكتاً لاستقام الحديث . اما
التوين فلا رأي عنه لا يزال مصطفياً له استطراد الكلام فقال « وما زاد فوري ان
ذلك التسوس المترم كان يحاول ايقاعي في الدرك حتى به رودريك الى علاقتي
بنلورندا ... وكنت اقرأ سوء النهد من خلال عيوب الفائزرين ومن وراء الناظر
الخلفية ... »

قال « اراك يا التوين مهيج العواطف كبيرة ولا فائدة من ذلك ... ولا عبرة
بالنظر نسبية او اشاره تراها حركات طائرة بالطائرة وما هي من الحقيقة في شيء ...
فخفف علك وارجع الى صوابك وابحث في الامر بحذا معقولاً ... »

الفصل الخامس عشر

رباطة الجأش

ذهب التونسي لنول عم وشر بصر نسو وضعنوا ولكن لم يستطع املاك عواطفه
فقال «كيف لا نعم بالاقوال كيف استطيع الصبر على الاهانة والاحتقار
أترضى يا عمه ان تكون ارقاء لذلك المحتال» قال ذلك الحمدبة باديه في
صوته

فاجابه او باس بصوت هادئ «لا»

فقال «فكيف تقبل بهك المعاملة وتقول لها حركات طائرة في النهاي
انتي لا تستطيع الصبر على ذلك وان الموت خير من الحياة مع هذه الاهانة»
فقال او باس «لا اقول ان الاهانة حركات في الهواء ولكن ارى الكلام الصادر
عن الحمدبة والغضب بلا روبية اشبه بحركات طائرة في الهواء لا فائدة منها»
لنجعل التونسي من ذلك التوبيخ الاطايف ولكن ما زال مندفعاً بتوار العواطف
فقال «أتلواني يا عمه على خطيبي وقد قتالوا أبي واخطسموا ملكي ثم ضيقوا علي في ذهني
وبحبي كأنني بعض عيدهم ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك ؟»

قال وصوته لم يرتفع «اريد أن تنظر في الامر بعين العقل وبالروبة لان الحمد
تدفع الرشد وتسوق الى الخطأ وربما يغسل لك اذا رأيت هدوئي وصوري الى
اقل منك استكانا من أحوال هؤلاء ولكنني انكر كلّاً ما قاتل فليلاً وسترى مني
سكن جاشك ودار الحديث بينما انتي قضيت العامين الماضيين طانا أسى في الامر الذي
لم يخطر ببالك الاّ اليوم وانت انتا ذكرنا على اثر انفعالك وغضبك بعد أن لاذت
خطيبتك وعشيقك على ضعفك واما أنا فاني لا أندفع بالغضب ولا أغضب الكلام
القارع ولكنني انظر بعين الحقيقة فقد كنت أتوقع منك هذه المسيبة في أول يوم خرج
فيه هذا الملك من يدك بنطع النظر عما قد يلحق بك من الاهانة أو ما قد تسمعه من
التعريض أو التوبيخ»

فَلَمَا سِعَ الْوُنْسَ كَلَامَ عَوْنَوْبَ وَأَنْهَى لِمَا أَنْسَهَ فِي مِنْ الرِّزَانَةِ وَالْجَدِ وَقُوَّةِ الْعَرَبَةِ
وَشَعَرَ بِصَغِيرِ نَفْسِهِ لِمَا خَلَمَهُ مِنِ الْضَّفَطِ فِي السَّنَنِ الْمَاضِيَّاتِ وَلَمْ يَدْكِ ضَفَطًا . فَأَرَادَ أَنْ
يَصْلَحَ مَا يَدْرِي مِنْ دَلَالِ الضَّفَطِ فَقَسَمَ وَقَالَ « لَمَّا أَصْبَحَتْ يَاهِاهَ إِنِي هَبَاهُونَتِي
هَذَا الْأَمْرُ وَمَا أَكَنْ أَحَبِبْكَ عَلَى هَذَا الْعَزْمِ إِنَّا إِلَآنَ فَأَشَرَ عَلَيْ ... أَشَرَ عَلَيْ ...
أَنْهَلَهُ لِاسْتِرْجَاعِ مَا اخْتَلَهُ هَذَا الرَّجُلُ مِنَ ... »

وَكَانَ أَوْبَاسَ مِنْذِ شَرْعِهِ فِي هَذَا الْمَحْدِيثِ فَدَأَخَذَتِ عَلَامَاتِ الْإِنْتِباْخِ تَدْنِي فِي
عِيَاهِ فَازْدَادَهُ بَهْبَهَ وَجَلَالًا وَاسْتَفَرَقَ فِي الْأَفْكَارِ وَقَدْ أَرْسَلَ بَصَرَهُ مِنِ النَّافَةِ إِلَى النَّفَاهَ .
وَالنَّاظِرُ إِلَى وَجْهِهِ يَهِينُ إِسْتِرْجَاعَهُ فِي الْمَوَاجِسِ مِنْ ثَيَاتِ بَصَرِهِ عَلَى لَا شَيْءٍ كَأَنَّهُ يَبْطَلُ
إِلَى صَوْرِيَّتِهِ فِي عَيْنَاهِ وَفِيهَا الْحَيْثُ وَالْمَغْسِبُ وَالنَّارُ وَالْمَنْشَطُ . وَكَانَتِ أَظَالَالُ تِلْكَ
الْمَوَاطِفِ تَبْجِلُ فِي عَيْنَيِّ الْبَرَاقِيَّينِ . وَلَوْ أَحْسَنَ الْوُنْسَ الْفَرَاسَةَ لَتَرَأَ أَفْكَارَ عَوْنَوْ
وَأَسْرَزَهُ وَكَفَنَ نَفْسَهُ مَؤْثِنَةً إِلَاسْتِهَارَةً وَالْمَدَاوَاهَ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلَمَّا فَرَغَ
مِنْ كَلَامِهِ صَبَرَ لِسَاعَ مَا يَنْوِلُهُ . فَإِذَا هُوَ مَازَالَ غَارِقًا فِي الْمَوَاجِسِ وَهُوَ بِلَاعِبِ أَطْرَافِ
جَدَائِلِ شَعْرِهِ بِأَمْلَوْ كَمَا لَمْ يَسْعِ شَيْئًا مِنْ أَبْنَ أَخْبَرِهِ . فَتَهِيبُ الْوُنْسُ مِنْ مَنْظَرِهِ وَلَمْ
يَحْسَدْ عَلَيْهِ مَجَارِيَ الْأَفْكَارِهِ فَنَظَلَ « صَانِتَهَا »

مُفْتَتْ لَحْظَاتِ قَلِيلَةٍ وَكَلَاهَا صَانِتَانِ ثمَ فَتَحَ أَوْبَاسَ الْمَحْدِيثَ فَقَالَ « هَلْ أَدْرَكْتَ
بِالْوُنْسِ الْمَشْرُوعِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَعْرَضَتْ نَسْكُهُ لَهُ وَمَا هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي تَلْعَبُ اِنْظَارَكَ
الْيَوْمَ ؟ »

فَقَالَ « كَيْفَ لَا ... ؟ إِنِّي أَنْفَسُ أَمْرًا هُوَ حَقٌّ لِي لَا يَنْأَرْعِنِي فِي أَحَدٍ ... »

فَقَالَ « فَهَمْتُ ذَلِكَ ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْرِتِ الْعَلَيْهِتِ الَّتِي تَسْتَلِعُ الْغَلَبَ بِهَا لِلْتَّبِعِ
عَلَى أَرْمَةِ الْأَحْكَامِ ... »

فَقَالَ « أَهْرَضَ لَدِبِكَ رَأْيِي وَأَنْتَ صَاحِبُ الرَّأْيِ »

فَقَالَ « قُلْ »



الفصل السادس عشر

— فلسفة التاريخ —

قال « لا يخفى على عي العزيز ان النوة التي ساعدت رواديك على تسم ذرعة الملك انا م الرومان وخصوصاً الاسافية . ولما رجال الفوط أهملنا وأهل عشيرتنا فانهم لا يريدونه وهو لاء حمامة كبيرة اذا اخذوا هم ورجالهم وابناعهم تألف منهم جند كبير يغلب على جند رواديك . فلا يصعب علينا اذا ذلك اخراج الحكم من يدك — اما بالشمارى
ولاما بالفتلال ... »

فابتسم او باس ابتسامة اغصانية دلت على استخفافه برأي ذلك الشاب قليل الاخبار ثم قال « صدقت يا ولدي ان الفوط اكترم على دعوتنا ولكن هل نظيرهم اذا دعوتهم الى الحرب يهفون ... ؟ لا أظن شكواهم من هذا الملك غرور عن حدود الكلام . ولا لوم عليهم ومم يخافون على ارواحهم فاتحالم . على ان اكترم لا يرون بائساً من يقاه رواديك وغيره من صنائع الرومان لاشترائهم معمراً في المذهب . فانهم جميعاً تابعون لكنيسة رومية وقد نطلب الاسافنة الرومان على اراضيهم وعلى قلوبهم كما نقلبوا على حکومتهم ... حق نسوا جنسينهم ... »

وكان او باس يكلم بصوت هادئ وتأني ولم يهد المهاجر في عينيه الْأَمْلا وصل الى هنا القول على ان الرزانة ظلت غالبة على حرkanو . ولكنه سكت هيبة والتونس ينظر اليه ويتحقق امام الحديث خذال او باس وهو يجدل شعر لم يتو بين آناملو على سهل الشاغل « سامح الله ريكارد ... فانه هو الذي جر علينا هذا البلاء »

فلم يفهم التونس معنى هذا الملام لان ريكارد ملك^١ من ملوك الفوط حكم اسياها زمان طويلاً في اواخر القرن السادس للبيالد وكان من رجال الحرب والسياسة فقال التونس « ما الذي ارتكبه ريكارد يا عاصي حق انتو جب هذا الملام والذي أعلمه انه هو الذي حنط لنا حملة الاسنان ودفع الافرنج عنها (الزنك) ... »

قال « صدقت يا ولدي انه نجا من الزنك ولكنه لفانا في ما هو أعظم خطراً

نعم ... »

قال « وما هو ذلك ... »
 قال « ألا تعرفه ... ؟ ألا تعرف ان ريكارد هو الذي أضاع جسدينا ...
 وحلّ جامعتنا ... »

فلم يفهم التونس مراده فقال « كلاماً يا مولاي اني لا اعرف ذلك - ما هو؟ »
 قال « ألا تدري يا التونس ان ريكارد هو الذي جعل مذهب كنيسة رومية
 (الكاثوليكية) مذهب حكومة اسبانيا ... »

قال « نعم ... ألا تظلة فعل حسناً ... »

قال « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة أيضًا وقد ربيتنا في حبها ولا يأس منها
 ولكنني أتفكر في الامر من وجهه السياسي ... انظر فهو من حيث جامعتنا التوبية ...
 جاء أسلافنا التوط منذ بضعة قرون . وكانت هذه البلاد في حوزة الرومان فاستقرت بها
 من أيديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يعنني عليك ان مذهب اسلامنا الذي جاءنا به الى
 البلاد ليس الكاثوليكي مذهب كنيسة رومية بل هو المذهب الاربوي نسبة الى آر بيوس
 الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل التوط قبل خروجهم على الملكة الرومانية^(١) .
 فلتحتها هذه البلاد وقضينا فيها نحو مئتي سنة ونحن على مذهب آر بيوس وأهل البلاد على
 مذهب كنيسة رومية

« ولا اخفي عليك ان ملوكنا الاندلسون لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يهتموا علاقة الدين
 بالسياسة . ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتصاب الترس لاسترجاع سلطانهم بطرق الدين
 فجعلا يدخلون في صالح الدولة رويداً رويداً ويهشون مذهبهم في الرعایا بوسائل
 مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور مطر قرن وبعدها القرن . فاستولوا على عقولهن حتى
 دريجة أجداده واعتقد المذهب الكاثوليكي وجعله مذهب الحكومة الاسبانية فاقرردي به
 رجال دولته وسادوا أشراف الملكة فهم النور الرومية حتى أصبح مجمع الاساقفة الذي
 يجتمع في هذه المدينة يدبر أزمة الملك كما يشاء . وربما أنها بالاول من رومانية نفسها .
 ولا تزال الكاثوليكي ديانة هذه الملكة الى اليوم ولم يبق للاربوبية اثر الا فليلاً جداً .
 ولاريبي عددي ان الذين استبدلوا مذهبهم في أول الامر انما استبدلوا معاشر ريكارد
 لا عن اقتضاع بالبرهان لأن مذهب آر بيوس أقرب الى احكام العقل من سائر مذاهب
 النصرانية ... »

(١) حيث - تاريخ الملكة الرومانية

فما وصل او يأس الى هنا أحسن»، بانه فرط في الكلام بين يدي ذلك الفلام وقد خلق تبريراته ما بدا في وجه التوين من دلائل الاستغراب لما غرس في ذهنه منذ طلبته من تبييع الاربوبية حتى كثيراً ما سمع تبييعها من عو نسو . وادرك او يأس ما جال في خاطر ابن أخيه فاستدرك قائلاً « لا يقرب عن ذهنك يا ولدي التي لا احرب اليك الاربوبية دون موافها . فاتنا لا نفضل مذهبها على مذهبنا الحالى ولكنني اخاطبك بلسان السياسة لا الدين لا يعن لك تداعج الخطأ الذي ارتكبه ريكارد سادمة الله لانه باعتماد المذهب الكاثوليكى أضاع الجمسيوية التوطئة - لأن الدين يا عزيزى اتيت الجامعات واشرتها . اذ قد يحيى التوطئة والفتى والروماني واليونانى والسكنونى والعربي وغيرهم في بلد واحد وهم اخلاقاً فإذا مذهبنا مذهب واحد ضاعت جنسوتهم الاصلية بنواي الازمان وصاروا امة واحدة

« وهناك جامعة اخرى رئا كانت مثل جامعة المذهب اعي بها جامعة اللغة . فشك ايضاً شاملة ولكنها في الغالب تابعة للدين . . . الا ترى اتنا بعد ان اعدتنا المذهب الكاثوليكى أصبحت اللغة اللاتينية هي المتفقية في كائناها ومحالسا لاهما لغة ذلك المذهب واخذت لغتها التوطئة في الانترافن او الضياع . . . ؟ فلو ظللنا على الاربوبية واستبدلنا لغتنا وعمناها في الشعب وحوّلنا أهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكى الى مذهبنا الاربوبى لكانت لغتهم لغتنا ومذهبهم مذهبنا وصاروا من أصواتنا . ولكننا غلنا عن ذلك فانعكس الامر واصبح اولئك الرومان بعد ان أخرجونا من مذهبنا ولغتنا بمحاباً اخراجنا من سلطاناها اكتسبوا الاصافحة الرومانيون من النفوذ في امور الدولة حتى لا ترى في اوربا كلها مجتمعًا دينياً له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لم يطبع طباعلة هنا على حكومة اسبانيا^(١)

« واول من أحسن بهذا الخطر من ملوك الفوط والذك نوح الله نفسه فانه سعى في اتخاذ حكمته من نفوذ رومية حتى كالي سمعته يصرخ بربون في المخروج من مذهبها او سلطانها الكاثولي وكأن معظم أبناءه اسبانيا من اختلف في رومية وتدرب حبها وحب اسلنا الاكبر فاكبروا غرض والذك وما زالوا حتى اندلوا آخر اراضهم التي اخ Hatchi التصريح بها لانها تولى كما تولى الملك ولصلحتها رودريك هذا وهو روماني الفرض وان ادعى انة قويت الاصل .. ففعلوا بذلك افساداً لا كان المرحوم والذك قد أنسه

الفصل الرابع عشر

رأي اوباس

وكان التونسي يسمع هذا الكلام باضطراب، وقد انتبه إلى خطورة لما آتته فرصة من المسئنة والحكمة ما لم يكن يخطر له من قبل فلما بلغ إلى خروج الملك من أبيه لم ينالك أن سأله قائلاً «كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وإناه، ثم عاش أحياء» قال «جحيم في ذلك أن حق الملك عندنا انتهاي وليس أرجواه^(١)» إذ لو كانت أرجواه لكت أنت أول الناس بهذا الأمر على أن كونه انتهايًا لا يتضمن بمحض ذاتك منه وكان يجب أن ينتهيوك لأنك ابن الملك وقد فعلوا ذلك غير مرة ثم لولا ما ظهر في خلال انتخابهم رودريك هنا من الأغراض التوجيه التي مترجمها ضياع جنس النوع فاطبلاً لما شق ذلك علينا»

ثم استأنف اوباس الحديث كائنة أفاق من غفلة وقال «أرأني خرجت من دائرة الموضوع الأصلي — وخلاصة ما خدمته لك أن الذين تدعهم قوماً وتروجان بصوروك في قيامك على هذا الرجل قد ضاعت جامعتهم الجنديبة في الجماعة الدينية واللغوية فربما كانوا أقرب إلى نصرة أوليك ما الينا قيل هؤلاء لا يبعد بأقل المدى عن أحرابهم» فلما سمع التونسي نتيجة البحث ثاب أمله لأنها كان يتوقع شد أزره بأهل عنده فلما تحقق ضياع أمله أحسن بضعف عزقه وظال مطرقاً لا يبدى حرراً كلاماً ولسانه حادلاً يقول «عبرت عن الحيلة

فلما رأءَ اوباس مطرقاً ادرك ضعف عزقه فاراد أن يصرخ ثوره فقال له «كأنك پشمتم من الججاج؟

قال «كيف لا أبايس وقد فرغت يدي من الرجال فضلاً عن فروعها من المال ولم يكتف هؤلاء باختلاس الملك فانهم اخرجوني منها صرير الدين فهل تعلم إلى أين ذهبويا بأموال ولادي؟

قال «أن أموال والدك اختفت بغير لان الملك رئيسوبت الذي توقي هذا

العرش منذ خوستين سنة سن "فأتوها يتفقى برجوع أموال الملك وكل ما يقتضيه المخربة الملكة"^(١) فلا يدifi لنا ان نبالغ في القاء التبعة على عدونا بالباطل . . . أما المدحول الى بلوغ مننا فاذا كنست قد فرغت يدك من الحيل اخرفي لا بد، رأي وارجو ان يكون سديداً . . .

فاستقرت التوبيخ تازل عمرو به العباره واشاره بدبو وعندما ما قد يعجز عن لسانه من تنويع كل الاموال عمولة اكبر عقولاً وواسع اخباراً . فاصلح او باس مجلده استعداداً لحديث طوبى والنتت الى ما حوله كانه يجاذر ان يسمعه احد وان كان على ثقة من اصرادها هناك . ثم وجه كلامه الى التوبيخ قائلاً «اعلم يا بني ان الانسان اذا عزم على امر لا بد له من النظر في عواقبه قبل الاقدام عليه والا كأنه العاقبه وخيمة عليه — انت تعلم ان الناس في اسبانيا طبقات منها (١) طبقة الاشراف وهم ارباب الاموال والمناصب ومهم حكام الولايات وحكام المدن واصحاب العقارات وغيرهم (٢) رجال الاكابر و (٣) طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وخدمة الحكومة (٤) اهل الحرف وهم اواسط الناس من سكان المدن (٥) الخدم والميد وهم كل ما في ملوك الملكة . ولا يعنى عليك ان هؤلاء هم النس اكبر ومهم حراث المحتول وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب

«فإذا شئنا ان نهض لاسترجاع الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانت بعض هذه الطبقات . فلنجرب في اقرب البنا . فالاشراف اما رومانيو الاصلي او قوطيون فالرومانيون طبعاً ضدنا . وقد يمت لك حال التوط فهم قد اضاعوا قوتهم في ملوكهم الجدد . فالاشراف لا فائدة لها منهم وكذلك اهل البلاط اما الاكابر وهم فائض تعلم لهم علة هذا التغيير . واهل الحرف بالنظر الى اقامتهم المستطبلة في المدن قد اضاعوا الخمسة اللازمة في مثل هذه المهمة . وردد على ذلك انت كلاؤ منهم مستقبل بصلو وشجاري ومخاف ضياع امواله القليلة . اذ لا يعنى عليك ان بلاد اوروبا كلها تقر بـ مملكة من المدن والمحنول . فأهل المدن لا يكادون يهسرون بما هو خارج مدنهم (٦) وكل مدينة منهم ينتمي وتحن لا يكتينا النهايم بأهل مدينة واحدة لان رودريك صاحب جند واعوان يستتجعد علينا حكماء في الولايات فتدفع ضياعاً

«يقي علينا النظر في الطبقة الاخيرة من هذا الشعب وهي طبقة الخدم والميد

(١) دوري (٢) موشكيو

هؤلاء هم الجبابر الأكبر ولا تستغني عنهم سائر الطبقات . ومع ذلك فانهم مستبدون فيهم استبداداً عظيماً . ولا يخفى عليك ان معظم هؤلاء العبيد اثنا دخلوا في الرق على اثر المخرب وهم رجال اشداء وخصوصاً بعد ان تعودوا العمل وعانيا الشفاعة لانتقامهم في الخنوف فان عتارات الاشراف وبسوتم قاموا لهم كلها في قضية هؤلاء العبيد . ومع ذلك فانهم مظلومون يقاومون من اسيادهم عذاب الذل - وناهيك بعذاب الرق - وانت تعلم ان هؤلاء الارقاء لا ينتصرون عن اسيادهم شيئاً من المواريثة الطبيعية ولكنهم تعودوا المخضوع لهم والخروف من اسواتهم حتى اصبحوا اطوع لهم من ظلم . فكل ما للعبد فهو له ولا يقدر ان يعمل علاً لا يامن حق الزواج . وكل ما اكتسبه العبد بالقصد او بالاتفاق او بالتجارة او بالحرب حتى الاولاد الذي تولد له فانها كلها لسيد . وله ان يبيع العبد او امتهنته او اولاده بدون معارض

« على ان اولئك الاسياد قد يتعينون على بعض عبدهم بالحرية مكافحة على عمل عظيم صدر منهم غير ان هذه الحرية فلما شهروا عن الاستبعاد فان المعنق لا يزال ثعب امر صدري فان عمل علاً فلسبيك نصف ما يكتسبه من ذلك العمل . وان اراد ان يحتفل من خدمته ووجب عليه ان يرد لك كل ما مات من الاسلحة او الالات ولا بعد ذلك المعنق من زمرة الاحرار الاصليين الا في الجهل الرابع من اولاده ^(١) - والخلاصة فاني لا اطيبل الكلام عليك لانك تعلم كثيراً من افعال هؤلاء الارقاء ولكنك فلما ذكرت في ما يقاومونه من المخدف والظلم وربما لم يخطر لك اثنين من جملة مثل جيشتنا ولا لوم عليك لانك شبيت وانت تراهم على هذه الحال »

الفصل الثامن عشر

— الوسيلة —

فلا يبلغ او ياس الى هنا وقف وتحجج وفترس في التوين ابرى اثر افعى الو فبو فرأه منصباً بكل جوارحه اساع ما يقوله عنه فعاد او ياس الى حد بيتو فقال « فالامر الذي

أوجه الفنانك اليه يا ولدي ان اقوى طبقات الشعب م اولئك الارقاء المظلومين وهم أكثر عدداً وأقوى ابداناً وأصيبر على الشفاء فإذا اخذتنيم اعواناً لنا في هذه المهمة نلبي المسألة رأساً على عقب . وقد لا تحتاج الا الى ظاهرهم بالقيام لهم إذا اخذناها اربعوا الملك وحكامه وشراف مملكته فتثال المراد بلا حرب ولا سفك دماء . ولكن ما الذي يجمعهم او كيف يمكننا ان نجمعهم جرّاً لنا ٤٠٠

وكان التونسي يتعاطل بعنف لاجع حديث عم و قد رأى الصواب بادياً في كل كلمة من كلامه . فلما وقف او باس عبد هذا الاستهانة ارتبك التونسي في الجواب لانه لم يكن يتوقع هذا السؤال امامه فلم يطرح هنا السؤال على اتساع الجواب فقال « اعلم يا سي » ان الوسيلة التي يجب ان تأخذها جميع كلمة هؤلاء الادميين المظلومين تحت لوائنا انا هي من افضل الوسائل واشرفها بل هي فضيلة تفي لنا ذكر امدى الدهور و يحيى لنا كل من ملك هذه البلاد قبلياً و تعال عليها الجزا » الحميد من الله سبحانه وتعالى — انتم ما في ٤٠٠ »

فلم يتم التونسي بالجواب هكذا لان ملاجم عمرو كانت تشير الى ان الجواب اشترى ثم قال او باس « ان الوسيلة يا سي » الجميع كلمة هؤلاء ائمها هي ان هم الحرية وتحمل لكل من يضم اليها منهم حقاً بدل حرية و بعد أجمل معين واذ قال ذلك الحرية كان كزار احد الاحرار دفعة واحدة لا يقاسمة أحد في انتهاه او مكاسبه على ان يكون ذلك مرتبها برجوع السلطان اليك والملك مقي تولست عرش اسيادها هوانت الاعذار وسهلت الطرق اليه على كثيبة ترثب اولئك المظلومين في نصرتك ٤٠٠ »

فانصر التونسي بما سمعه من عمرو واحسن « يا يبنها من التناوت في المدارك والتوى وخبل له ان الامر قد تم لله على ما يروم حتى أصبح كأنه يرى زمام الملك وهم بالقبض عليه » ولم يكن التونسي بليد الفضل الا بين يدي عموماً له من السلطان على عقوله ورأيه . فلم يبال ذلك التونسي ان تناولت من عبيدهو دعوه من دموع الفرح وعكت على يد عمرو لينتها فاجتنب او باس يد وهو لا يهزه عاطنة فرج ولا غضب ولكنه اصطدم بمحنة اغتصابه والتي ينهى على كتف التونسي وبقبض عليهما بنية عضلو فاحسن التونسي بشدة تلك النبهة وتوقع ان يسمع شيئاً بعدهما فاما باوس يقول « رأيتك اقتصرت بما سمعته ولم تعدل فكريتك للبحث في ما يحول دون عملنا هذا من الخارج »

فاجعل النون وحاف شهاب آمالو بعد ان اوشك بعثت بليل بديبو ونكر في ماذا عني ان تكون تلك المهاجر التي قد تناقض في سهل ذلك المدروز . ولكن قيل ان هم ساجواب ، سمع عنه يقول « لا أخذك ثم بهول ما يهلاج اليو مشروعنا هنا من الايصال للاتفاق على الجيد وإنماع الأحزاب وإنماع المعاذل وإنفراط الأعداء ... »

الفصل التاسع عشر

سر جديد

فلا يسع النون ذلك عاد الى اليس لعله يخلق بديبو وبدي عدو وسائر اهله من مال يكتفي لهذا العيل . واستغرب اخغراره برأي غدو الاول وغقبلة وصولة الى الفرض المتصود مع ان مسألة المال لم تكن لبعض عليوة وقد كان قبل هيبة يشكوا الى عموم خروجه بعد موته ايوب صفر اليدين . على انه انا اخغر بذلك لشيء اعتقاده بسداد رأي اوبياس وقد نشأ هذا الاعتقاد فيه من طلولاته لانا ما برح منه كان يدب ^٢ وبمحض بري عنه يأتى الى بيته ايوب بلاس الكتبة والكل يهتزون رأيه وبها ونة فشب ^٣ هل استسلامه له فاذ قال اوبياس قوله سلم هوبي واعتقد صوابه بلا روبية ولا تصر - كذلك كان شأنه معا في ما دار بينها في ذلك اليوم . فلما يسع النون ذكر المال تحقق ائم يداولون عيناً ولم يحالك ان بهذا اثر التقوط في وجده فظل ساكتاً وفي سكونه ما يتنبئ عن الجواب

اما اوبياس فلما رأى ابن الحبوب قد أستطع في بيته وضاقت المذاهب عليه ابتسامة اخرى وقال « هل يهمت يا النون ؟ .. ما أسرع ما ترجو وما اسرع ما تقطع .. لا تهأس يا بني اني لا ادع تلك العبراء في عك شعب هدرأ - اني لم افتش هذين العامرين نائماً .. لعم الباخاطيك على سهل المداواة ولكنني بالحقيقة اعرض عليك مذروعاً رقيقة وسبرت اخواره ودبرت كل شؤونه ولو لا ذلك لم ارض بالخصوص فيه معلمك .. » قال ذلك وبهض فهم النون معه وهو لا يدرى معنى ذلك المبوض ولكنها اصبحت شديدة الميل الى استطلاع ثمة المشروع واصبح فكره مضطرباً لا يصبر عن ساع ثانية الكلام ليرى ما دبره عنه من الوسائل للحصول على المال . على انه لم يمسر على حواله

فضلٌ صامِيًّا في انتظار الجواب . أما أو بأس فإنه تناول فلسونة فوضعها على رأسه فنظرَ
النونس بهم بالغروج . ثم ما لبث أن سمعه ينادي « يعقوب » وما عنم أن رأى يعقوب
داخلاً يهربُ ومحنةٌ واحدةٌ يما يقانو حتى وقف بين يدي أو بأس وفي وجهه ابتسامةٌ تدلُّ
على مافي نفسيه من الاعطشان فلما دخل جلس أو بأس وأشار إلى النونس أن مجلس
فنعمل ثم قال يعقوب « أجلس .. »

فأظهر يعقوب الحدة وقال « حاشا لي يا مولاي إن أجلس بين يديك أو يدي
سويدي (وأشار إلى النونس) وإنما يكفيه أن تأتني لي بالوقوف »
فсхك أو بأس ويندران يخصل لغير يعقوب — ومدى الروح التي أمسك بها جديـد
شعبيٍّ لحيتو وشكٍّ بلطفٍ حتى أفعىٍّ على طلاقته في أرض القرفة ثم ظاهر بالاجفال
وارجع يشكٍّ وسمح أطراف أنامله ينديله وهو يقول « أبى متى تفصل هذه اللحية
يا يعقوب ؟ .. أما آن لك أن تفصل .. »

فلما سمع يعقوب ذلك المقال تبدلت سمعته بفترةٍ وذهبت عنها ملامح المجنون
وبدأ الجد في عينيه وقال « سيدكم أعلم متي .. ولكلن ارجوان يكون ذلك قريباً »
فلم يتم النونس معنى هذا الجواب وخصوصاً بعد أن رأى ذلك التغير في وجه
يعقوب وأكله صير لبرى ما يهدو منه فسمع عنه يقول « وإنما أرجو ذلك أيفاً .. ولكن
غسل لحيتك يا صاح يكثف ثغرات طالعة فهل تدفعها .. »

قال « نعم إنني لا أذخر مالاً ولا ولداً ولا نسماً في سبيل خسلها .. كاتعلم .. »
فلم يزدد الأمر لدى النونس إلا غموضاً وإبهاماً ولم يتم لاستدعاء ذلك الخادم
معنى ولا لتلك الالغاز مغزىٍ وشكٍّ عليه أن يتحول موضوع المداولة من الجد إلى
المزل وهو لا يعرف عنه بليل إلى المزاح إلا قليلاً وإكثار ما يتعلّم ذلك مع يعقوب . تحمل
كلامها عمل المزاح وظل ساكناً يتحقق العود إلى الموضوع الأصلي

اما أو بأس فقال « إنني أعلم ذلك يا يعقوب وقد أنت لي أن أسع في غسل لحيتك
هل أنت قادرٌ من المال مهـا كبر مقداره ؟ .. »

قال « نعم يا سيدى وأنت تعلم ذلك .. »

قال « قد كتبت أعملة ولكن هل حدث تغيير أو تبدل .. »

قال « كلاً يا مولاي تهن على ما تهن عليه .. »

فأطرق أو بأس مذاق طوبية لا يتكلّم واستغرق في الأفكار كأنه يحمل معهلاً أو

يذكر في امر طرق ذهنة في تلك الساعة ثم وقف فوتاف بمأرب والنونس فقال لل الاول
«احب ان اراك الليلة في منزلتي»
فأشار بيده وعينيه وشتيه ان «سماً وطاعة» وخرج واغلق الباب وراءه

الفصل العشرون

كتاب فلورندا

فتوقع النونس بعد خروج بعقوب ان يجمع من عمرو ما يزيل ذلك الفاق عنده فلما رأه
جلس جلس هو واصح بمسموه وهو ينظر اليه كأنه يصمت لما يتوله فمعه يقول «طب
نسمة يا النونس ان المال تحت يدي عدد الطلب ولا بد من جلسة اخرى اشرح لك
فيها التناصيل وارتب المخطلة التي يجب ان تسير عليها في هذا العمل المختصر»
قال «ولكنني لم افهم علاقة ذلك بجادتنا هنا وبليبيو»

قال «ستطلع على مر ذلك في تلك الليلة ان شاء الله .. هل تأتي معي منذ الآن
الى منزلتي فتناول الطعام بما .. لا بل الافضل ان ن匪 هنا واسير أنا وحدى لاخلو
بنسي وارسم المخطلة التي يجب اتباعها في هذا المدروع» قال ذلك وبهض وتحول نحو
الباب وهو يهيي الموسينا على عادته والنونس يتفق اثر ابودعه عند خروجه .. وقبل
وصولها الى باب المفرقة سمعا قرعا على مدخل بعقوب وفي ذلك كيس صغير من الحرير
الارجوني مسطحة الشكل كان فيوكا باه وقد هند بشرط من الحرير الازرق .. فلما رأى
النونس الكيس خلق قلبة لعلمه انه من فلورندا وكثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيو
فاسع الى الكيس وتناوله وسأل بعقوب عن حمله اليه فقال «احذر من النصر
الملاوي»

وكان قد شرع في فضي قبل ساعي الجواب فلما دخله الخرج منه صبيحة من
الخشب مربعة الشكل قد كثي سطحها بالشع وكتب عليها حزاما يعلم من حديد
(وهي من جملة وسائل المكانة في تلك الايام قبل اختراع الورق باجيال)^(١) فتناول
الصبيحة وتحول نحو النافذة وقد نسي وداع عمرو واخذ ياتلواها بنسوة ولم يكن يصل الي

(١) الانكشاري بيد يا العريطانية (باليونغراف)

آخرها حتى ارتعشت أتماله وتغيرت صحته . وكان أوباس لما رأى الكتاب توسم فيه جديداً فنماه عن حركات اللونين ربما يقرأ مكتوبة لكنه ما لبث أن رأه يقلب تلك الصيحة وبعد تلاوتها وهو يوجهها نحو التور الداخل من النافذة ويتعرس في الكتابة بعيبه كأنه يشك في قرأها وقد امتنع لونه وإرتعشت أتماله وبان النضب في أسره . فظل أوباس ينظر إليه ثم أغلى الباب ليخلو بالتونس ثانية . فشعر التونسي بحركة إللاق الباب فانبه ونظر فإذا عنة يشي خن بكل هدوء وسكنية وكانت نظره إلى خلف شيئاً ما قام في نفسه على أثر تلاوة ذلك الكتاب . وقد حاول الجلد تشهيّها بما كان عليه عنة من سعة الصدر ولكن التأثير كان غالباً على منظره . وتقدم نحوه وبيه تلك الصيحة فقدمها له وهو يقول « ويله لا تنجو من شر الأ وتنفع بأشر منه وكل مصائبنا من ذلك المقلس الساقط ... »

فمد أوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة وقرأ فإذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوهة بالنظر قوطية^(١) حزراً في الشمع على الخشب فقرأ في ما معناه :

« حبيبي التونسي »

« إن الامر الذي خذلني من أنتقامي إلى هذا النصر قد أوشكت الوقوع فيك . فانا في خطرك من بران الاسد الا إذا أسرعت إلى اتفادي . أنت زعم انك تحب فلورندا فاسرع إلى اتفادي قبل أن تقوت الفرصة ... وإنما ما بي من حيائنا لا يتجاوز ساعات قليلة إذا انتقضت قبل خروجها من هذا النصر ... فإذا لم يكن لي تصيب من النجاة فإني استودعك الله وأطمئنك أني ذاوية شهادة العذاف والظاهر ... اذا ذكرني بين يدي أهل ... وموعدنا الاجماد الساوية في احضان الآباء القديسين »

« كتبة فلورندا المسكونية »

فلم يكن أوباس أقل نازلاً لما قرأه من كتاب التونسي ولكنها كان أثبتته جائدة وأصر على الطوارى . وقد أحس أنه ممثل عاقد بصير فلورندا من السوء وهو الذي وضع عربون الخطبة بهاؤين التونسي . فظل بعد تلاوة الكتاب صامتاً يجاوئ الجلد . أما التونسي فلم يعد يستطع صبراً على عواطفه فقال « اعذرني يا عاً ، فقد نند صوري ولسيت كرمي الملك وإنك الذي باركت عربون الخطبة بهاؤينا فانت مطالب بآلام العقد فضلاً عاً أنت مكلف به من ذلك بواجب القرابة ... ومهمها يكن من الامر دبرني برأك »

فالتقت اليه بدو ورزانة وبك على حبيبي سرحها باصا به وقال « طب نسأ يا ولدي اني مخرج فلورندا من قصر الملك وهي في خير ان شاء الله ... » ثم أطرق واعمل فكرته وهو يصعد بمحاجبي ثم ينطليها بما يدل على استهزءه وحربه ثم قال « اني لاعجب من أمر هذا الرجل واشتغالو عن أمور رعيتوها لا يرضي الله ولا عباد ولكن ذلك من الاadle القاطعة على قرب سقوطه وذهب ملكوك لان الله لا يؤيد ملكا يخالف وصاياه ... » وكان النونس غارقا في محار المهاجمين وقلبه ينقد خيرة على فلورندا وكان لما شاغل عنة هناجاه نفسو قد اعاد النظر في كتاب فلورندا فوقف بصور خصوصاً على قوله « اني ذاهبة شهيدة العناد والظهور » وفك في ما يعلوي تحت هذه العبارة من المعانى المذيرة للغيرة ثم سمع منه بنادي « يعقوب » قد دخل وقعته سيف بن وقال « ليبيك يا مولاي »

قال « هل اعرف اثنين من خدم هذا المازل يمكننا الوثوق من امامتها اذا كلماها في مهمة ولو كانت ضد هذا الطاغية صاحب كرسى طبلطة اليوم ... »

قال « انا يا ميدي ... »

قال « انا اذخرناك لمهمة اخرى ولكننا نحتاج الى شابين او ثلاثة انت تتقى بما انت بها ونشاطها وبسالتها لان الامر الذي ستكلتها به يحتاج الى الاندماج والتجاهدة والامانة ... » فاطرق يعقوب وقد أمسك طرف حبيبي بانامله وجعل يندهل بين المسابة والإهام حتى أصبح مثل طرف المحمل لما يدخل الشعر من الاوساخ - فعل ذلك وهو مهترق في الأفكار ثم حرك امامته بذلة فاعاد التحري الى ما كانت عليه والتقت الملايوس وفي وجدهم امارات البشر وقال « فلما اتى واحد من هؤلاء وان يكن مظہهم نداً في بيت مولاي وعاشوا على مائدته لان الانسان اضعف من ان يضحي نفسه في سبيل صدق ضيق ... ولكنني أعرف اثنين فقط أطلبها أهلاً من الفتة ... »

قال « ومن ها »

قال « ها أجلا وشندلاً »

فقال اوبياس « وكيف اخترت هذين وليس هما من ربي في بيت الملك ... »

قال « اخترتها لاعتدادي باقتنارها على هذه المهمة ولا نهالا بزال طامعين في العمل اذ لا يخفى على مولاي انها كانا من طينة العبيد وقد حررها المرحوم اخوه والختبها بمحابيتو لما آنسه فيها من الكفارة والذمة وقد ظهر لي بعد تخلصها من العبودية انها طامعات في

الارتفاع شأن من يذوق طعماً لا يعرفه فإذا استطاعه زاد في اشتهاه وفطلب المزيد منه .
واما من تعود طعماً حلوًّا فلتلي يستزيد منه . وعذان الشابان ولذا في مهد العبودية
وننسها من انس الاحرار فرأى الملك المرحوم عظم نسمتها في حديث بطول سرد ،
ففتحها الحرية والختيم بمحابيده فيها الآمن يطلبان العلى فإذا كان في المهمة التي تذهبها
إليها ما يطبع في ذلك اسهلاً كافي سهلها والا اعتذرنا عنها ولا يخونان ...
قال « اراك بارها في فلسفة الاخلاق ... فإذا كان الفروب تعالــ الى متى
وها معك »

قال ذلك وحوال وجيه الى التونس فلم يعنوب انه يطلب خروجه فخرج اما التونس
فكان قد عاد الى هواجذه فلما أقبل عليه ابو قال له « ماذا غيب على هذا الكتاب ...
قال « أكتب اليها ان تكون على أهمية المتر في الساعة الثانية بعد الفروب وإنك
تلقيها في القارب بجانب النصر ...
فتباول التونس قلعة من نسوج غليظ كانوا يكتبون عليه ايضًا^(١) وكتب اليها وبه
ترجمت ما معناه :

« الى مليكة القلب فلورندا
لليك يا حبيبي اني مواف النصر في الساعة الثانية من الليل القادم ففيها
الخروج بما تستطيعين حلة واشرفي من النافذة المطلة على الهر فاذا رأيت نوراً بذلك
اعلي اني في انتظارك هناك ... تشدد وقوى قلبك ولا تخافي
« كتبه عبك الذي يندلك بروحه »
وملئ الكتاب وحاطة وجملة في الكيس الارجوانى وخشب ودفعه الى يعقوب على ان
يرجعه الى الرسول الذي جاء به وبوصبة بالاحتدااظ به لسلاماً يطلع عليه أحد فتباول
يعقوب الكتاب وخرج



الفصل الخامس والعشرون

كتاب آخر

وكانت الشس قد تجاوزت الاصل فأخذ التونسي يأهله للزوج مع عمومه منزله للمناوبة هناك يا يتعلمه ويع شئ ما اصحاب التونسي من البنية ما زال مستغرقاً ما سمعه عن يعقوب من الاسرار المكتومة وكانت العروس قد تبدل قليلاً في اليوم وتقلب البرد فليس التونسي فيه من البرد الشغون وعنة النف" برداً هو الأكابر يكي وكان البرد قليلاً يهُر فيها وفياها يهُر باليه للزوج وكل منها ينكر في أمر على حلة فتح الباب بهذه ودخل يعتوب وفي يده اسطوانة من جلد بلون الفرمي فعلم او باس ان فيها كتاباً من رودريك فقد كانت كتبة الى عاليه وماراً تو تكتب على الجلد وثلف وتدخل في اسطوانة من جلد العجول مدبوغ بلون الفرمي فلما وقع نظر التونسي على تلك الاسطوانة تقدم لاستلامها فاعترضه عنة وتناوها وقال ليعتوب « من جاءها؟ »

قال « جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألي رئيس عن سيد التونسي هل هو هنا فاردت استهلاك لاعود اليه بالجواب فايديركي قائلاً اخباري حالاً فاني ماموري بايصال هذا الكتاب اليه على جناح المرة حيث كان . فقلت هو هنا فدفع اليه الكتاب وقال انه يتضمن ... »

فنظر او باس في ختم الاسطوانة فادا هو ختم الملك نفسه فنفس الختم واستخرج الكتاب فادا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستعمله لكتابة الاوامر وكانت الرسالة ملتوقة على نفسها فشرها وقرأ ما فيها والتونس يقف على يساره يطال لثراها فادا هي امر رسي من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

« من رودريك ملك الطوط

« بسم الآب والإبن والروح القدس

« الى الشجاع الباسل عزيزنا التونسي سلام .. . وبهد فقد يلقينا ايها العزيز ان بعض العبيد والموالي في كوتيبة قد تردو وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك فادا انك كتابي هذا اسرع الى مقر جنودنا في طليطلة قان فرقه من اني بعد في انتظارك لتفه نحت قيادتك الى تلك المدينة لاخدام الدورة . ولا بد من العجلة . وبدلك على استهلاك

اننا كتبنا هذا الامر في يوم العيد الذي لا يجوز العمل فيه - فان كتب واقفاً لا
تجلس وإن كتب مائشياً لا تقف قبل انفاذ امرنا هذا والسلام
كتب في قصر طلطيطه في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٧١ «
وما جاء النون على آخر الكتاب حتى أسودت الدنيا في عينيه وصاح لشدة هياجـة
« لا اذهب الى مكان ... لا اذهب ... »
فالنون اوباس اليولنة الاستصغر وقال له « كيف لا تذهب ... ؟ وهل
نستطيع ذلك ... ألا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة فإذا
عصيت امر جررت على قدمك البلاء ... »
قال « واي بلاء اجره على ثني ... ؟ »

قال « اذا خلقت عن المسير اهلك بالعصيان وامر بالتبغ عليك فعل عذرك من
الرجال ما تدفع بوقرة الحكومة الآن فلا تكون النتيجة الا ایقاع الاذى بك وبها
كلما اد برى الجميع المندس مسوهاً لذلك بعصابتك ... فالحكومة لنضي علينا بالمالية
والمسايرة حتى ينضي الله امراً كان منعولاً ... »
ولم يكن النون يجهل ذلك ولكن غبطة التورتها وخرجوه من طلطيطه وهي في
ذلك الفتن اغلق ذعنه فلما سمع كلام عمرو قال له « ولكن ما العمل ... كيف
اجتمع بنلورندا ... »

قال « اترك امرها الي ... فاني انوي انقادها الليلة واخليها في مكان ثم
اكتب اليك حينها تكون وزرى ما تألف به الحوادث . ولا تخرب هل ابشر بما ترجوه من
وراء سفرك هذا من تهديد المسيل لمشروعينا - انكل على الله ولا تذكرهوا شيئاً اعمله خير لكم »
فالنون الى يعقوب وقال له « اخبر حامل الرسالة اني ذاهب بعد قليل ... »
قال « قلت لك بما يولي ائمـة كوكبة من الفرسان وقد علمت انهم مأموروـن ان
لا يعودوا الا بك »

قطع اوباس كلام يعقوب وقال للنون « اذهب بما يبني ... اذهب الان
وانا انوي كل شيء بديابك ولكن ا Finch لك ان تصطحبـ يعقوب وتعتبر عاليه وسوف
يطلعلك على امور شملك ... »
فقال يعقوب « سمعاً وطاعة وارسـع الى ائمـة فليس منها ما يصلح للسفر وكذلك
فعل النون وخرجـا والنون يتجدد ولكنهـ الى كل حملـ على عمـو

الفصل الثاني والعشرون

— عود إلى القصر —

فلم يدع التوين ينأّب للسفر ولعد الماء قصر رودريك حيث تركها فلورندا في غرفتها تذكر في أمرها بعد النraig من الصلاة والثانية حلها على الله . وكان رودريك قد خرج من عددها وهو يضرر لما الفر العاجل . وكان أول شيء باشره أنّه في الأدب مرتين في غرفته يخلو بعض الصلوات وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك إلى قصر فلورندا وتحقق أنه لا يعود من هناك إلا وهو متربع بوجوب الخلاص من التوين أو أبعاده . فلما انتهت عادةً آنس الغضب والانفعال في غيبو وجبيو حتى لند يمحب الذي يبرأ لصين عن فعل تلك النيمة وهو إذا غضب لا يالي يبدل المآلات — ولكن الحب . . . الحب يختلف الغضب ويالجم الثلب والعنق . . . الحب يذال الأسود وبمساير الجباره وهي الذي يبعث إلى الدقة والمحبو فإذا رأيت رجالاً في خلو جناحه وخليفة فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد — نعم ان حب رودريك لم يكن خالصاً من شوائب المنكر ولكن ذلك لا يمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير . لأن سبب الحب واحد ولكنه يظهر في الناس مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم — ولا يبعد ان يكون رودريك قد هُبّل فلورندا وهي تمنّه وتناوشه ولكن أمسك نفسه طبعاً باسترضاهها واستنباته لها . فحصل من عواقب الكظم ما ظهرت آثاره في وجبيو حتى خول لربين لما رأه انه في أعلى درجات الغضب فاستقبله ضاحكاً . فخجل رودريك وجباره وهو يحاول اخنانه انفعاله عنيناً فلم يرّ خيراً من ان يشافل الأدب بالحديث ف قال له وهو يظهر الاختلاف « يظهر ان لذلك الدلام مأرياً بعض اهل هذا القصر »

فأجاب الشيخ وهو يتطلع عن نمrus على جاري عادته « كأنه بالملك لم يتم اشارتي الى ذلك في هذا الصباح . . . »

قال « بلى فهمت . . . ولكنني . . . » وسكت

فأدرك التيس انه يضرر شيئاً فقلل « سأكتأ » وهو ينظر بسايده على شدو الدائرة وعيناه تنظران الى الملك كأنه يتوقع نسبة حدوثه . أما رودريك فلم يرّ بأيّ من

اطلاع مرتين على قصص وهو مستودع اسراراً لا حجاً فلورندا ثانية نوى البقاء على كفافه
حياةً من الناس وخوفاً من امرأته وهو يعلم سلطان النساء على النساء. تخاف أن يقع حجاً
لدى التهيس موقع الاستهجان فيطلع الملكة على ذلك فتفتف في سيلو — على أنه اراد
اطلاع مرتين على ما في من عزمه فقال «أرى أن أسي في أبعد هذا الشاب من هذه
المدينة بالمحسني فتشغلة عن القصر وإهلو ..»

فطأطاً الشبح رأسه استعملها كما أنه رأى الجواب بذلك الاشارة أهون عليه من
الكلم ... ثم قال «إذا أبعدته فقد شفع بخدمته وتخلىص ... ولكن لا توت الحبة
إذا ظل رأسها ساماً ...»

فعلم رودريك أنه يدور إلى أوباس ويجد أبعاده ... فقال «إن بناء رأس
الحبة بين يديها أسلماً عافية لها وخصوصاً إذا كان الذنب بعيداً» ففهم مرتين إشاراته وشك
فيهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث به إلى التونس كالتقدم وصبر
حتى أنها ببنادق أمره وإن التونس جاء الممسكر وبهياً للسفر . وكانت الشمس قد توارت
وراء الأفق وأقبل الظلام وكان أقبالة زاد ذلك الملك تعاملاً عن فضاعة ما نشاهده ولم
يعد يستطيع صرراً إلى اليوم التالي فتناول طعام المساء مع امرأته وأكثرمن من تعامله المحرر
على تلك المائة تشاغلاً عما ثار في نفسه من الدبران الشيطانية فهان عليه ارتکاب كل
فظيعة ولذلك قالوا «السكر رأس المعاصي»

بهر رودريك عن المائة وقد امتنلاً جوفه ودارت الخبر في رأسه وتحول
نئاً إلى غرفته والتدبيس لا يزال على المائة مع امرأته . فدخل رودريك الغرفة واغلق
الباب وراءه وفتح الباب الآخر وسار في الدليلز نحو غرفة فلورندا

أما فلورندا فكانت بعد اعمال النكارة قد كتب ذلك الكتاب إلى التونس ودفعها
إلى العجوز فارسلته مع خادم تعتقد بالخلاص وعادت ولبسنت تنتظر الجواب فشققها ذلك
الانتظار عن كل ذكر . فقضت في الانتظار ساعة ظلمها شهرًا أو سنة فكانت نارة تعلل
من الباب وأخرى من النافذة المشرفة على التهر طامة تدعو حالها وستنتهيها في سبب
الأخير وهي هون عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فتفق قلبها سروراً طاول
شيء فعلتها أنها قبلت الآية وشكرتها على اجابة صلواتها . فأخذت تجمع ماحفظ حمله
من الحلي وغنجه والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس . فعند ذلك تركت فلورندا كل
شيء وتحولت إلى النافذة وجامت إليها وأرسلت بصرها إلى بحري التهر تنتظر ظهور النور

الملك مع علمها ان الاجل المفروض لا يزال بعيداً . ولكن الفائق اوهما فربة . وكانت الطقس قد برد وتلبدت الغيوم فاغيرت السماء . وعصفت الرياح واومض البرق وتصف الرعد ولم يمض قليل حتى تماطلت الامطار . ولكن ذلك كلها لم يشغلها عن التزوس في المهر وركبناها ترتعشان وجلاً وفرحاً . وكانت كلها لاح برق ظلها مفعال حبيها . وقد تنفسن اليوم فبعض ظلل بعض الكواكب في مجرى المهر فتسبيها نوراً مثلثاً وربما كانت عذرين كوكباً فظنن تعددها ناججاً عن تكرر سلطخ المهر الايجاج . او يوم السبت في ذلك اعتراض بعض اغصان الحديقة بينها وبين المهر وخصوصاً الاغصان الخفية النافقة

نهاية النافقة

الفصل الثالث والعشرون

٢٥ تجربة أخرى

وفيما هي تتعال نفسها بقرب المدرج وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافقة نحو المهر انتهت بهذه فحسمت وقع اقدام رودريك في الدليل بخمارت قواها وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها واحسنت من تلك الساعة بما يهدى بها وكانت في قفلة عنفة فلم يستطع على الساط وجعلت شفريع الى الله ان يساعدها وينفذها هذه المرة . ولم تجد تعزية الا خالقها فقالت لها « أليست هذه خطوات الملك ... » ولم ثم كلامها حتى خرجت الجوز ثم عادت وهي تأول « الملك يدعوك الى تلك القرفة ... »

فصاحت فلورندا « وبلاه ما هذا المصاص يا ايي ... » ولطممت وجهها واخذت في البكاء .

فتقصدت الجوز اليها وجعلت تختلف عنها وهي لا تدرى ما اذا نزعها هذه المرة على اهها لم تر خيراً من الرجوع الى المعري الاكبر . وهو الدين . فقللت « اتكل على الله وهو الذي افدىك في المرة الماضية بتذكرك الا ان وما علي امر عمير » وكانت فلورندا من اهل الايان الوطيد كما رأيت فتضمنت الى الله ان يساعدها

هذا المرة ايضاً والتمنت الى خالها وقالت لها « انسول اليك يا خالة ان تصلي من اجل ونطلي الى الله ان ينقذني من هذه المخربة » فقلت « ها انتي باقية هنا جائحة امام هذه الايام الى حين رجوعك لاني لو صحبتك ما نعمتك ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده » فاطلأن بالفلورندا هذه العبارة ومشت كالعادة المسافة الى الذبح وهي تندم قدماً وتنظر اخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالساً في صدرها جلوس من لا يهمه الهوس ورأيت في وجهه من دلائل الغضب مالم تزد في المرة الماضية وقد احررت عيناه واكمد لون وجهه من السكر واسرع تنفسه واشتد حتى اصبح شفيراً . فظلت فلورندا ل الاول وهلة انتي ترى هذه الملامح في وجوه بحسب نور المصباح . على انتها لم تفع شيئاً ما عليه حتى اسرع قلبها بالخفقان . ولكنها استعانت بالله وتجلدت وتقدست حتى وقفت على بضعة اذرع منه واطرقت . وكانت قد ضفت شعرها ولملئها وغورت ثوبها تأديباً للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شفتها بها وتفاعف ذلك الشفف انتبه عروضاً بالمسكر فخاطبها وهو لا يزال جالساً وقد مد رجليه وبسط ذراعيه على الوسائد في الجانين فقال « هل حدثتك نصبك بشيء جديد ؟ .. »

فظلت ساكتة ولكنها بالغت في الاطراق فاعاد السؤال وقد توكلت على ركيبيه كأنه يتعذر للهوس فقال « أجيبي يا فلورندا .. يظهر انك أدركت المعادة التي أدعوك اليها وخصوصاً اذا علمت التي أنتدتك من يدي ذلك العلام الذي كان يغيرك على حيوه وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك ... » فلما سمعت ذلك خافت أن يكون قد دبر شيئاً لا للومن فرفعت بصرها الى ووترست فهو كأنها تستطلع صدق ظلها . فلم تزالك ان ردت بصرها عنه لانها توسعت في عينيه معنى ارتدت له فراصها . رأت شيئاً لوسائل تصوير ما استطاعت التعبير عنه بغير لفظ « الدر » على انتها عادت الى الاطراق وفي خاطرها ان تسع منه ما يحيي الحقيقة . فإذا هو وقف بسرعة يازجهها عربة وقال وهو يلاعب شاربيه بين الابهام والبساطة ثم يمرح طويلاً باصحابه « لماذا لا تجيبي كأنك تخجلين من الندم بين يدي الملك فاني ساحنك على ما مفي » قال ذلك وخطا نحوها ويناه مرفوعة كأنه هم ان يلتهما على كنهها تحبياً

اما فلورندا فلما رأته يدنو منها ثقہرت ورفعت ذراعيها تتحملي بهما وندرت منه كأنه

ذئب كاسر يهم بافتراسها . فتراجع رودريك واظهر الاستغراب وهو يقول « ما بالك تغرين كأنك تخافون اذية وإنما أنا أريد تعطيب خاطرك وإيفي رضاك ». وكانت فلورندا لا تزال في ريبة من أمر التونس فأرادت أن تتحقق ظلمها وكانت الامطار قد تعاظم تتساقطها واحتفلت أصواتها باصوات المياه المخدرة من المباريات وذهب العواصف وقفز الرعد وفلورندا في غسلة عن كل ذلك لعظم ما قام في نفسها من الخوف . على أنها لما عوّلت على مخاطبها انتهت لما جحول بين صوتها الفوضى وأذن رودريك من الأصوات الخجولة فقالت بصوت عال لكنه مرتعش « قد قلت لولي الملك أن هذا الموقف ليس موقفي وإن الله قد جعل تصفيبي سوء ». فقال لها « كأنك لم تفهم كلامي قلت لك إن الغلام الذي تسفيه تصفيتك قد مضى ولا سبيل إليه »

فلا سمعت قوله توهبت أنه قبلة فصاحت وقد قفت شعرها وارتعشت أطرافها وأحيضت كأنك صبيت ماء غالباً على بديها وقالت « ماذا تقول ؟ ماذا فعلت بالتونس ماذا ماذا هل قتلت ؟ »

الفصل الرابع والعشرون

الاستشهاد

فلا رأى رودريك ما أصابها خاف أن يقسى عليها بعنة وهو يريد إثباتها لنفسه ولو ساعة فقال « ما هيءة البغيضة يا فلورندا ماذا فعلت بالتونس لا لم اقتلة ولكننيين يدي وجهاته طوع ارادتي اذا شئت قتلت بكلة ولا أنكف لذلك خطوة واحدة يظهر انك لا تزالين تحملين من هو الذي يخاطبك ومن هو ذلك الذي تسفيه تصفيتك نعم اني لم اقتلها بل اكتفيت ببعاده ولكن اذا بقيت على اصرارك اقتله واما خللتك على غيرك بعد قتل انتك أنت وإنما أنا لا استرضيك ولا

استعطفلك بعد ما رأيتك واعلي ان هن ال الساعة هي الحد الفاصل
بين ينبعك وبين ما أريد قال ذلك بصوت عال ومشي مسرعاً الى باب الغرفة
وأغلق ورجع وهو يقول « فاختاري الحافظ الذي تريديه وأخرجني منه ثم التي
نasse على المقعد وهو يلهث من الضسب كأنه ثور يغور وقد زادت عيناه احمراراً واوداجاً
انفاصاً »

أما فلورندا فلما سمعت تصريحه بالامر وخففت ذنو الخطر التفت الى ما حوطها
كماها ننس عن ضائع او تستجده رفينا — فعلت ذلك وهي لا تعلم لماذا فعلتها وهمت
بالجواب فقطع رودريك كلامها قائلاً « عن تبحثين أنا في غرفة ليس معنا
ثالث وليس على وجه المحيطة من يستطيع ان يهول دون مرادي فاقبلي
طائعة آلة احتفظ لحياتك وادعى الى سعادتك »

وكانت فلورندا لما سمعت قوله « وليس معنا ثالث » قد تذكريت ما كانت تقرأ
ونسمة من مواعيد الكتاب المقدس وان من يمكن على الله الا ينفل وان الله موجود في
كل مكان وقد تقدم ان فلورندا كانت من أنفو الناس اياماً فاحسست للحال بالاطهان
كماها محاطة بظاهرة من الملائكة يحرسوها وتشجعت ونظرت الى رودريك وهي شعرت
فيه وقالت « تزعم اننا مفردان وان الجو خالي الله وقد فاتك ان الله موجود في كل
مكان لا يدع ل احد سلطاناً يغلب سلطانه ثم التي سمعتكم شهدوني بالقتل
فافقيل ثم اقتل ثم اقتل افقلني اني لا ابابلي بجهاتي ولكن اتوسل اليك ان لا تس
التونس بسوء آه يا التونس » قالت ذلك وخففتها العبرات واطلقت
لتفهمها عican البكاء

فلا سمعها رودريك تبكي لم يزدد الا حنقاً وخصوصاً بعد ان سمع ذكر التونس على
انه لا رأي توبيخها وبيانها مع شدة تعذيبها بمحبوبها ورغبتها في ينانو تراوي له ان يعرض
عليها استثناءه فقال « اذا كانت حياة التونس هبتك بهذا المقدار فاني اكراماً لعنونك
ابنها وارببه واجمله من أسعد أهل طليطلة ولا يكفيك ذلك الا ان تتنفس عن
سعادك »

فأباصرت استثناؤه بذلك الرأي وقالت « ان الامر الذي يرضيك مني بذلك انا
هو أمني ما الذي في هذا العالم امن من جهاني بل هو امن من التونس
التونس نasse لاني بدون ذلك الا كليل الميد بدون تلك الجوهرة الشفينة

لا استحق نظرك من التوين ولا من سواه . . . هل أنا لا أساوي شيئاً . . . وهل تظني
لولا ذلك استطاع خطاطبة الملك بهك الجسارة؟ . . .

فرأى رودريك أنها تعيل الجدال ولا يرى ما يدفع بوحدتها ولا هو يريد الاقتناع
بنوها لأن أمياله الهرمية غلت على عقوله وارادته وقد يكون — وهو عادها ويرادها —
منتعماً أنه يتسم امراً منكراً وإنما محبة بتويغه . ولكن لا يملك عنان شهوانه — وفي
هذا الموقف الحدُّ الفاصل بين النفيحة والرذيلة . لأن الناس ينتهاون في أميال الدنيا
وفي تبزيم بين النفيحة والرذيلة وإنما ينتهاون بقى الإرادة على كبح الذهوّات والعمل بما
ينتفعه الضمير — في مثل ذلك الموقف ينماضي الناس . وإنهم إلى النفيحة أقرب
إرادة . . . فأهل النزاهة والعلمة لا ينماضون سواهم بالتبزيم بين الخير والشر ولا ينبعون
من معنى النسائل والرسائل أكثر ما تفهم سواهم . ولكنهم ينماضون بأقدارهم على
ضبط عواطفهم برهة قد لا تزيد على بضع دقائق . فإذا استطاعوا ضبطها حظوا كرامتهم
طول العمر وعاشوا في راحة وسعادة — بذلك على ذلك أن الذين يجهرون عن كبح شهواتهم
ويسلبون لآهائهم لا يلبون أن يندموا حين لا يمنع الدم

الفصل الخامس والعشرون

— اليأس —

وكان رودريك بع قوة بدنو ضعف الإرادة فلما سمع ناريع فلورندا ادرك خطأه .
ولكنه تجاهل ونماي وتصامّ وعاد إلى المغالطة فاظهر الغضب ووقف يفتح وقال ما
« أراك تحبوبن المداعنة بلا فائدة ولم يبق لي صبر على أقوالك . . . ألا تشعرين بما
تعرضين نفسك له من الخطأ؟ . . . ومع ذلك فما لا يمكن ان يكون برضاك لا بد منه
رغم انتك » قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها وبهـ ترتعش فاقشعر بدن
فلورندا وأحمست كأنه مسـكـاً ذراعها بنيفة من حديد فصاحت « وبلك يا ظالم . . .

شيء لك يا فامي .. لا تخاف يوم الحساب .. لا تخاف الله .. قبح الله ملكاً ينوي انتقام المظلومين وهو أكبر الطالبيين . ولمن الله رجلاً يزعم انه اقيم لکبح جحاح المشردين وهو لا ينوي على كبح شهوانه .. ثم ارسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الاخرى وقالت « اليك اتوسل ابها الخالص الحبيب .. واعوذ بك من هذا القلام المخائن .. »

وكان رودريك في اثنا، ذلك بمحاول النصف على يدها الآخرى وهي تحاول الخلو منه فوق ناسة في وجهاها فاشتت رائحة المخمر فهمت ان تقول شيئاً فاعترض قوطاً رعدواً فاصنة نوالٍ بضع ثوانٍ عنها صوت صاعنة انقضت بالقرب من ذلك المكان فارتاج النصر من أساساته وندى ويسق البرق من شفوق الباي اخذ كلّة حمظة عن فلورندا وتولاه الرعب لانه نوم لاول وهلة ان النضاه يهدده - كأنه يفعل بعض الذين يربون في مهد الدين فمعذبون ان الاقدار تراقب حرکاتهم وسكنائهم وان الطبيعة لا تعامل عمالاً الا وهي تعمد بوجه او شرم - اما نواباً مل حسنة او عذاباً على سبة - وربما اعتذر بعضهم العجل الواحد من اعماها نارة ثواباً وطوراً عذاباً فيما لاما بوجه البو ضمير - والضير يدران يخدع الا ان يكون قد مات بحال المذكريات او غلب عليه تيار الشهوات كما اصاب رودريك لاسع قصف الرعد واغضاض الصاعنة فانه نهم لاول وهلة وانتفع لونه واخراج قلبة ورها ندم وعوّل على الرجوع عن قصته - على ان ذلك الخاطر لم ير في ذهنه الا مرور البرق ثم عاد الى ما كان عليه

واما هي فانها اغتنمت تلك الفرصة واستخرت يدها من يديه وقد اعتبرت انتقاماً بذلك الصاعنة تصيراً لها عليه اجاية لصوت دعائهما - فالافتتحت البو وهي تقول « الا تعلم ان في الكون من ينتصر للضيق على التوى .. لا يستطيع ذلك الجبار ان يتزل علىك وعلى قدرك صاعنة تذهب بكلّي الى الموت العاجل ..؟ .. »

فالغم رودريك لما رأى الاقدار تردد سحبة فلورندا عليه ولكنها اعتبرت نفسها في موقف انتقام ولم يزدد الا تزادي في غرضه فتندم اليها وقبض بالجدى يديه على كتفها ومد يده الآخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجله - فتضددت في، واعتبرت من بين يديه فاغفلتها بالرغم عنه لانه لم يكن مسكوناً بكل قوته - فلما افتشت منه تفاصيل غضبة فجوم عليها هجوم الثور وهو لا يبالى بها يكون من امرها

فـلـما رأـتـهـ فـلـورـنـداـ هـاجـأـ إـلـىـ الشـرـ يـكـادـ يـطـاـبـيرـ مـعـنـيـوـ لـفـرـطـ غـصـبـاـيـشـتـ الـخـطـرـ العـاجـلـ فـعـولـتـ عـلـىـ الـأـنـخـارـ قـبـلـ وـصـولـ إـلـىـ مـرـادـ فـجـيـثـتـ عـلـىـ رـكـبـهـاـ وـرـفـعـتـ بـصـرـهـاـ إـلـىـ السـمـاءـ كـاـنـهـاـ تـمـنـيـتـ وـهـيـ لـاـ تـرـازـ إـلـىـ تـلـكـ الـحـلـةـ تـعـقـدـ أـنـ الـعـيـانـ الـأـلـاهـيـةـ لـاـ تـخـلـ عـهـاـ وـلـكـمـاـ لـمـ رـأـتـ رـوـدـرـيـكـ يـكـادـ يـطـلـبـ إـلـيـهـاـ اـسـرـعـتـ فـيـ قـبـضـتـ يـكـنـاـ يـدـهـاـ عـلـىـ عـنـهـاـ وـهـمـتـ أـنـ تـخـفـقـ نـسـمـاـ وـهـيـ تـنـوـلـ «ـالـمـوـتـ المـوـتـ خـيـرـ مـنـ الـعـارـ إـلـيـكـ أـسـلـ روـجـيـ يـاـ عـلـاصـيـ الـحـبـ »ـ فـالـتـ ذـلـكـ وـضـعـفـتـ عـلـىـ حـجـرـهـاـ فـاغـسـ الدـمـ بـيـهـ وـجـهـهـاـ وـجـهـظـتـ عـيـانـهـاـ . . . فـانـشـفـلـ رـوـدـرـيـكـ يـرـفـعـ الـفـضـطـ فـأـمـكـ يـدـهـاـ وـشـدـهـاـ فـأـ بـعـدـهـاـ عـنـ عـنـهـاـ وـكـانـتـ قـدـ خـارـتـ قـوـاعـدـهـاـ فـسـطـعـتـ وـقـدـ اـرـتـخـتـ عـرـاءـهـاـ وـاسـتـلـتـ عـلـىـ ظـاهـرـهـاـ الـاحـراكـ

الفصل السادس والعشرون

رسوها بالماء

فـلـما شـاهـدـهـاـ رـوـدـرـيـكـ فـيـ تـلـكـ الـحـالـةـ تـبـهـتـ فـيـ الـحـاسـةـ الـبـشـرـيـةـ لـحـظـةـ وـعـدـ الـتـلـيفـ مـاـ يـاهـاـ فـجـيـثـاـ بـجـانـهـاـ وـامـسـكـ يـدـهـاـ وـبـهـفـهاـ يـرـيدـ اـجـلـاسـهـاـ لـتـحـمـوـ مـنـ شـبـوـبـهـاـ . . . فـاـنـاـ فـيـ لـاـ تـرـازـ مـعـصـمـةـ الـعـيـانـ مـسـتـرـخـيـةـ الـاعـشـاءـ فـخـلـقـ قـلـبـهـ وـخـرـكـ ضـمـرـهـ وـنـومـ اـهـمـاـ مـاـنـتـ اوـ كـادـتـ تـوـتـ فـذـرـكـهـاـ وـاـسـرـعـ إـلـىـ الـبـابـ لـعـلـهـ يـعـلـمـ مـاـ فـرـشـهـاـ وـوـ . . . فـتـحـ الـبـابـ وـطـلـبـ جـمـيعـ فـلـورـنـداـ فـاسـتـقـيـلـهـاـ الـعـبـورـ وـيـخـارـجـ مـنـ الـخـمـرـ وـقـدـ بـهـنـتـ مـذـمـعـتـ فـتـحـ الـبـابـ لـاـهـاـ كـانـتـ لـاـ تـرـازـ إـلـىـ تـلـكـ الـحـظـةـ جـائـيـةـ تـصـلـيـ وـهـيـ مـسـتـرـخـيـةـ الـخـاطـرـ لـاـ شـكـ عـنـهـاـ فـيـ خـيـانـةـ فـلـورـنـداـ مـنـ هـذـاـ الـخـاطـرـ . . . وـكـانـتـ وـهـيـ مـسـتـرـغـةـ فـيـ الصـلـاـةـ لـاـ تـسـعـ ثـيـابـهـاـ مـاـ سـوـيـاـ وـقـدـ اـفـالـتـ الـثـانـيـةـ الـخـاطـرـ عـلـىـ الـهـرـجـيـاـ لـلـمـواـصـفـ فـلـمـ تـنـهـيـ لـنـصفـ الرـعـدـ وـهـبـوبـ الـرـياـحـ الـأـكـاـ كـاـ يـشـعـ الرـاقـدـ بـصـوـتـ يـسـعـهـ بـيـنـ الـبـنـاءـ وـالـنـاءـ . . . وـلـكـمـاـ حـالـمـسـعـتـ فـتـحـ الـبـابـ تـبـهـتـ كـاـنـهـاـ اـسـتـيقـنـتـ مـنـ ذـلـكـ الرـفـادـ وـهـرـعـتـ خـوـ الـبـابـ فـاسـتـقـيـلـهـاـ الـمـلـكـ وـالـبـغـةـ عـلـىـ وـجـهـهـ وـقـالـ «ـإـلـيـ بـكـوـبـةـ مـنـ الـمـاءـ اـسـرـيـ حـالـاـ »ـ قـالـ ذـلـكـ وـعـادـ إـلـىـ الـغـرـفـةـ فـتـبـعـهـاـ الـعـبـورـ بـالـكـوـبـةـ وـرـكـبـهـاـ تـرـعـدـانـ مـنـ الـخـوفـ عـلـىـ فـلـورـنـداـ . . . فـدـخـلـ رـوـدـرـيـكـ وـهـوـ بـأـوـلـ لـلـعـبـورـ

« رشوة بالمال » فلما رأت العجوز حال فلورندا صاحت « فلورندا ... فلورندا ... ما الذي أصابك ... » وأسرحت فرشتها فاستيقظت وجلست للحال وهي تنظر إلى ما حولها فلما رأت رودريلك صاحت « ولاءك لا إزال حية ولا يزال هذا الشرير أمام عيني ... كدت أحسب أنني بحثوت منه بالموت ... »

أما رودريلك فاختفى عن ذلك وجه خطابة إلى العجوز وقال « أرأيت ما الذي فعلته فلورندا ب نفسها لطبيتها وغزورها ... ؟ اعرض عليها السعادة فترفضها ... » فلم تجد العجوز جواباً غير البكاء لأنها توهمت بخواص فلورندا مسقبولة على أنها لم تجد شيئاً غير التزلف في ثبات أمم رودريلك وقالت ودموعها تماضق « أنتدم إلى مولاي أن يرقق يده العادة المسكينة ويزركها وشأنها فان في قدره وتحت أمر مثانت مثلها ... » فاصابه رودريلك من قوتها وكان يهوي مساعدتها فرفضها برجلاً وهو يقول « عي يا عجوز النحس ... وانت أيضاً ؟ ... » فخرجت العجوز وقد ذكرت الموعد الذي جاءها من التوين فنالت في ندتها لعل مع التوين رجالاً يصدعون الوئام فینفذونها من بين يديه بالقوة ... فبرولت إلى الأميرة وفقت النادرة فتحجاً قليلاً ثم صفت الريح في وجهها وإليها الماء ونظرت إلى جهة اليمن فلم تجد نوراً مثلك ولا غيره، ثم فاقفلتها وعادت إلى الصالة أما رودريلك فاقفل الباب وعاد إلى فلورندا وهي لا يزال جالمة على البساط في الغرفة وقد استراحة وعادت إليها قوهها وتصاعد الدم إلى وجهها برد الفعل فعاد الاشراق إليه ولكن الكآبة ما زالت غالبة على مبشرتها ... فدعا رودريلك منها وهو يد بعث إلى مطلع يوم آخرها وهو قابض بها على خبیر أبرق فرنك كأنها ينطرسأً وبهذه الأخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مد يديه إليها وهو يقول « لقد نند صيري يا فلورندا فيها آني عارض عليك السعادة لآخر مرة — فاما ان تناهياً وهذا خاتمي رعنون على ذلك وإنما ان أغد هذا الخبر في صدرك في هذه اللحظة ... أجيبي حالاً ... »

فنهضت للحال وتصدرت له وهي تقول « آجيء ... ألمد خبرك في صدري وارجعني من هذه الحياة ... وباحبذا الموت الذي أتي به وجه ربي ببرقة طاهرة ... اقتل يا رودريلك ... اقتل ... » فقال لها « أمعني التكرا ولا نفاني أني أقول ذلك بمرد التهديد ... أني فاعلة حالاً ... وانت عذلتني وأجهت سؤلي أخذت هذا الخاتم عربون شعبي لك وكتت أسمد بنات طليطلة ... »

قالت « وانت لا تحيطني اقول ما أقوله مزاجاً .. فاني لا ارهب الموت فداء عن العناف والطهر .. بل الموت خير لي ... الا اذا رجمت الى رشك وندمت قبل ثبات الفرصة — لانك نادم في اي حال . فاذا ندمت بعد ارتکاب هذا المکر لا يطعنك ندمك شيئاً .. واذا قيلني فانك ندم على قتل فناء بربة طامع لا ذنب لها الا اصرارها على العمل بوصيۃ الله » ثم حوت وجهها نحو الماء وقالت « يا أباها الخلاص الحميد .. ربى والي .. الا كدنت لهذا الرجل فظاعة ما هو متقدم عليه .. افعش غداوة الجهل عن عيني .. »

فحمل رودريک وقطع كلامها وقال « اذلك توقعون فض الرعد ووهبوا البرق جواباً على كلامك كاملة الماخصية .. فانحن في عصر المهاجرات .. »

الفصل السابع والعشرون

خطوات غريبة

وفيا هو يريد انتم كلامه والمخبر شهر سبتو كأننا هم ، بأن يطعها بوع وقع اندام غريبة في دليل النصر . فانهست قسمع تلك المخالعات تقارب من الغرفة وهي تصرع فخلق قلبها واقشعر بدنه وعاد ابو الاحسان الديني الذي ربى فيو . تحبل لان الله استجاب دعاء فلورندا فأرسل بعضاً ، لاتكون لاغاثتها — لانه يعتقد ان البشر لا يستطيعون الدخول الى قصر في تلك الماعة وإذا دخلوه فلا يتجاوز احد على الوصول الى هنـ

الغرفة والا بباب موصدة والا بامر صارمة

فهي رودريک وفلورندا ئولي قليلاً في حرقة وها واقفان وإشارها شاحضة نحو الباب ينتظران ما يكون وفلورندا ترتعش خفشاً وبعنة . وإنما رودريک فإنه ارجع المخبر الى مكانه ومني الى الباب وهو لا يزال يسمع خطوات النادم تقارب . وقبل الوصول الى الباب سمع فارقاً يترنمه فرمى عينها ارتقت له جوانب النصر وارتدت فرائص رودريک ولم يبالك ان اسرع الى فتحه . ولا تسل عن دهشته واضطرابه لما رأى او يناس داخلاً وهو في ما يعرفه فهو من الهيئة والرزاقة ورباطة المجالس والماء ينطر من اردانو

أما فلورندا فتوهت لما رأته انه ملاك لا يس نوب او ياس وظلت واقفة والبغدة قد ملكت كل جوارحها حق على ربها في حلقها واستكست تنفسها
اما رودريك فلم يسمع عدد روزبة او ياس عن اظهار استغراقو من جمارتو الى هذا المد فقال لها «ما الذي جاء بك الى هنا في هذه السنة؟ ... وكيف دخلت هنا النصر بغير استثنان ...»

فاجابه او ياس وهو لا يزال كأنه يخاطب غلاماً وقال «اما الذي جاء في فهو امر بهم الملائكة ساعرضه عليكم . واما دخولي بلا استثنان فخلاله الملك يعلم ان امثالنا لا ينتذرون في الدخول على الملوك او مخاطبهم وم يخاطبون الله بلا استثنان ...»
فهن رودريك انه يعرض بسلطة الاكابر وخصوصاً الاسافنة فانهم هم الذين اجلسوه على الكرسي . ولكن او ياس لم يكن منهم للأسباب التي قدمناها . فسامه ذلك التعریض ولكنه كان مشمراً بارتکابه ذنبـاً عظیماً والذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكاً وخصوصاً يمني بـيـرـيـرـجـلـمـهـيـبـ مثل او ياس . فعند رودريك الى تفعيل ذنبـيـهـ بالـمـعـالـطـةـ وقد عـوـلـ على ان يصرف او ياس ثم يعود الى فلورندا فقال له «انتظرني في الدار العـامـةـ رـيـنـاـ آـتـيـكـ ...»

قال «لو كان الامر الذي جئت به يحصل الا عـظـارـ ما جئتـكـ في هذا اللـيلـ تحت سـيـولـ الـاعـطـارـ ...» قال ذلك وـمـدـ يـدـهـ نحو فـلـورـنـداـ وهو يـظـهـرـ انه يـخـاطـبـ الملكـ وقال «إذا فتحتـ الدـافـقـ المـطـلـةـ عـلـىـ الـهـرـ خـفـقـتـ الـأـمـرـ الـذـيـ قـلـتـ لـهـ لـكـ ... وـرـأـيـتـ الـأـمـطـارـ بـلـ الـلـاـلـوـجـ شـاصـاطـ ...ـ قـلـوـمـ يـكـ عـيـيـ لـأـمـرـ ذـيـ يـالـ ما عـكـرـتـ عـلـىـ الـمـلـكـ رـاحـةـ ...ـ اـنـيـ لـاـ اـخـرـ منـ هـنـاـ الـمـكـ لـأـمـكـ ...ـ»

وكانت فلورندا كلها مساعيـ وـلـاـ حـظـ لـمـاـ يـقـولـ اوـ يـاسـ اوـ يـشـيرـ اليـوـ فـلـماـ سـمعـتـ ما ذـكـرـ عنـ النـافـقـ اـدـرـكـ اـنـ يـدـرـيـ الىـ الـوـعـدـ المـفـرـوبـ لـاقـاذـهاـ فـرـحـتـ اـمـاـ روـدـرـيـكـ فـالـفـتـ الىـ فـلـورـنـداـ وـاـشـارـ اليـاـ انـ «ـاـذـعـيـ اـلـىـ غـرـفـتـكـ رـيـنـاـ اـعـوـدـ»ـ وـخـرـجـ مـهـرـوـلـاـ وـاوـيـاـسـ لـاـ يـغـيـرـ مـدـيـتـهـ وـلـاـ يـكـرـثـ بـاـنـهـاـكـ الـمـلـكـ وـاـسـعـجـالـوـ .ـ فـلـمـ اوـصـلـ روـدـرـيـكـ اـلـىـ آـخـرـ الدـهـلـيـزـ تـاـمـلـ الـبـابـ فـرـاءـ مـنـتوـحـاـ فـتـذـكـرـ اـنـ نـسـيـهـ بـدـونـ اـقـدـالـ .ـ فـلـمـ خـرـجـ اوـ يـاسـ عـادـ الـمـلـكـ وـاقـنـلـ الـبـابـ وـرـاءـ ،ـ كـاـنـ يـمـاـذـرـ اـنـ يـعـنـطـانـيـ فـلـورـنـداـ مـنـ يـدـيـهـ وـمـشـيـ وـاوـيـاـسـ لـاـ يـكـرـثـ بـتـلـكـ الـمـحـرـكـاتـ حقـ وـصـلـيـاـ اـلـىـ الدـارـ الـعـامـةـ حيثـ يـعـقـدـ الـجـلـسـ عـادـةـ .ـ فـلـيـلـسـ الـمـلـكـ وـدـعـاـ اوـ يـاسـ اـلـىـ الـجـلـوسـ فـقـالـ «ـاـنـ الـاـمـرـ الـذـيـ جـتـ

من اجله لا يصح ذكره في هذه القاعة ٠٠٠

فاستغرب رودريك جواه وقال « وابن اذًا ؟ ٠٠٠ »

قال « في غرفة منفردة على حدة »

فهض رودريك وقد سأله « هذا العدت ومشي معه الى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل . فجلس وجلس او باس بين يديه ورودريلك لا ينتفع صبرًا عن شاع كلامه فقال « قل يا حضرة المير وبوبلت ٠٠٠ »

قال « جبلك يامر دعاني الله الى تبليشك ايه ٠٠٠ »

فانتصر رودريك وطالع بعنقه شاع ما ينوله . فقال او باس بصوت هادئ على جاري عادته « ان الله خولك سلطاناً على الناس تحكم فيهم وتنصف مظلومهم وتضرب على ايدي الظالمين فلا تخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه ٠٠٠ »

فيغت رودريك لما في خطاب او باس من التوبيخ واقطب حاجبيه اشاره الى اسمه جانو تلك الجسارة وقال « هل عندك كلام في غير من الدشون ٠٠٠ »

فادرك او باس افعاله وانه اثنا برید تحذير ورد التوبيخ اليه فلم يقل منه ذلك فقال « العنك نظن ما اقوله وها او ليس هو بالامر اقام ٠٠٠ »

قال رودريك وقد ظهر الغضب في وجهه « لا أرى ما يسوع لك الا عراض على اعمالي في داخل قصري — فإذا كنت تعلم امراً يتعلق بالاحكام بين الناس او بالامن العام او بسياسة البلاد تكلم »

فابصم او باس باختناق وقال « لا تعلم ابا الملك اتك مطالب بكل حركة غيرها في منزلك وفي الخارج ٠٠٠ ؟ وإن الصعالبك اقرب الى الحربة في تصرفاتهم من الملوك ٠٠٠ ؟ اتك مؤمن على ارواح الناس واميالهم واعراضهم . وإنما اعطيك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها . اتفخذه وسيلة لسلبها ثم تترك سلبها ينصلك وإذا جاءك ناصح اتهمنه واحتقره ٠٠٠ ما هذه اخلاق الملك المؤمنين ٠٠٠ »

فاغضط رودريك تلك الجسارة وارداد حنف لرذاته او باس ورباطه جاده وقال « هل كان اخوك المرحوم اقرب الى تلك الاخلاق مني ٠٠٠ »

الفصل الثامن والعشرون

الشمعة

فالمواييس الله يعرض بخروج الملك من ايديهم تجذيرًا له لم يصر على ذلك فقال وقد ارتفع صوتها ولكنه ما زال هادئاً «دعنا من ذكر الاموات فالمواييس من محاسيمها اخن تمحاسب الاحياء ... على اني ما اظن غريبة اذا كان حماً يفعل مثل فعلك ... بل انا اجله عن الاقدام على مثل هذا المذكر ...»

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال «دع عنك ذلك كله فما هو من متعلقاتك لاني اعلم بواجهاي منك ...» قال ذلك وتخول عنة اشارة الى رغبته في افتتاح الحديث

فظال او باس جالساً وقال «لو كنت تعرف واجهاتك ما اردت السو، بناءة حافظ
وانت ذوا مرأة ... وبدلاً من ان تغافل عن هذه النظيرية فانك تدافع عنها ...
ثم وقف واثم كلامة قائلاً «اعلم يا رودريك ان انتهاك في هذه الامور واهلك
كلمة الله ووصاياه من اول الاذلة على قرب انتهاه هذه الدولة ...»
فلما سمع رودريك هذيد بهقرب انتهاه دولة الفتى اليه وهو يقول «اراك هذيني
خروج هذا الملك من بيدي ... انكم ان تنهيتموا ذلك ولو ملائمة الدنيا موامة واستعفتم
بنعمات السما، والارض »

قال « اذا كان لنا مطلع في هذا الملك فان قوات اليماء تقدر على اخراجه من بركه ...»

ولم يتم او باس كلامه حتى رأى باب المخفر ففتح ودخل الاب مرتين ابتدأ وهو يهرب ويشتم كأنه يرى النكلم ويعتله التبلجح من شدة الدافر ثم نطق فخرج كلاماً منطماً موصلاً مخاطلاً بشبه قوله «... آه... آه... آه... آه...» هدد جلالة الملك «... آه... آه...» باخراج الملك من بيته «... يا الملوخة وة... آه... آه... آه... آه... آه...» ولم يتم الاب هذه الجملة حتى امتلاكت تجويه باللعاب المتطاير من فمه فلما فرغ من الكلام شناغل بمسح لحيته وجعل يختاري ارض الغرفة بسرعة وهو مطارق ولا يزال يضم

فادرك او بابس انه بهبة زوراً لوقع الشهبة عليه فسكت استخناها
ولما رودريك فانه شر طرك التهمة وناظهر بالفضيحة والانتصار وقال « لا بأس
يكفي الان ما قد سمعناه من خبر وشر .. » قال ذلك وتحول من الغرفة قبيحة الاب
مرتين . فهيف او بابس وهو لا يهالي بما رأه ولما هبة فوزه باقتحاد فلورندا من بين يديه
وكان المهب في مجيء او بابس الى النصر وكيفية دخوله انه لما دنت الساعة
المعيبة جاء اجهلاً وشتبلاً الى منزل او بابس فامرها باعداد فارب اللزول بو في
البئر فنزلوا بو فتساقطت الامطار وعصفت والرياح واضطرب الجم فهاج البئر ولكنهم
لم يبالوا بذلك هل عدوه في بادي الراي مساعدًا لهم على اختناه خططوا لهم . فوصلوا
تحت النصر وفلورندا في الغرفة مع رودريك وخادمها في المجرة نصلي وقد اهلكت
النافذة . فصعد الشابان ومعهما او بابس لا يبالون بالامطار والرياح حتى وقفوا تحت
جمجمة فلورندا عند تلك الشجرة الجردا . ولم يهبه طم احد من الحرس ولا الحاشية . فأشار
او بابس الى شتبلاً ان يتسلق الشجرة ويفرغ النافذة فسلق حتى وقف على المقص المقابل
للنافذة فلرعا بطرف حسامه قرعًا خبيثًا ثم قوى النزع فلم يهبه احد لان العجوز كانت
قد خرجت بكأس الماء لترش فلورندا . فنزل شتبلاً واغير او بابس بالله لم يسمع جواهاً
توقف او بابس برهة يتأمل وقال في نفسه لو كانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن
ليشغلها عن هذه النافذة شاغل . فلا بد من ان تكون في ضيق ولا بأس عليها الا من
رودريك . فتحيل لها في أشد الضيق وانه ان تأخر عنها قد يهبي عليها فامر الرجال
ان يربطا النارب بجنب النصر وكذا تحت النصر وحالما يسمعا فتح النافذة
يصعدان على الشجرة وهم ملآن فلورندا وما معها

قال طا ذلك وتحول الى باب النصر العبوى وسأل الخضر عن الملك فقالوا انه في
النصر فدخل ولم يعترضه أحد لان الاـنفـة كثـيرـاً ما كانوا يدخلـون عـلى المـلـوك لهمـ
خـصـوصـيـة وـخـصـوصـيـة مـلـك عـلـيـعـلـة لـان إـلا كـلـيـرـوس كانـلـيـاـ اـكـثـرـاـ دـاخـلـاـ فيـ ثـؤـونـ اـسـبـاهـاـ
ماـ فيـ سـائـرـ مـالـكـ اوـرـبـاـ تـقـرـيـباـ وـعـلـىـ الاـخـصـ عـلـىـ هـدـهـ روـدـرـيكـ لـانـ اـنـ اـنـتـصـبـ بـعـاـسـعـهـمـ
نـعـمـ اوـبـابـ لمـ يـكـنـ مـنـ الـذـينـ الـقـيـمـ وـلـكـ الحـرـسـ الـوـاقـفـينـ بـالـبـابـ لـاـ وـهـمـ
الـشـيـرـيـزـينـ اـسـقـفـ وـأـخـرـ وـاـنـاـ يـكـلـيمـ النـظـرـ اـلـىـ الـبـوـبـ الـاـكـلـرـيـ وـالـنـافـةـ عـلـىـ الـاـجـمـالـ .
عـلـىـ اـنـ هـيـةـ اوـبـابـ تـكـفـيـ وـحـدـهـ لـاحـتـراـهـ فـإـطـاعـةـ اوـمـنـ وـخـصـوصـيـةـ فـيـ تـلـكـ السـاعـةـ وـقـدـ
زادـ الـاهـمـ جـلـلاـ وـوـفـارـاـ

دخل أو باب من أبواب النصر الواحد بعد الآخر لا يعترضه أحد حتى إلى غرفة الملك وكان يعرفها جيداً لأنها كانت لبوسطة من عهد غيره . فسأل الحراس عنها فقالوا « إنه دخل غرفة ولا يدخل عليه أحد فيها »

فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد نسيها غير موصدة فدخلها فلم ير فيها أحداً ورأى باب الدهليز المؤدي إلى قصر فلورندا مفتوحاً فدخل وما في الدار أحد من الخدم فشيء ملحوظ من لا يهاب ملكاً وجعل يبحث ببصره فرأى تلك الغرفة مضيئة وسع المكان فلم يبال ذلك أن ضرب الباب تم دخول . وهو إنما ضرب الباب قبل دخوله مخافة أن يكون رودريك وفلورندا في حالة يندفع لها بدنه فلا يستطيع امساك غضبه - وإنما النفس بأنف من العصس وباغية الناس في أماكن اسرارهم ولو كان في استطلاع ذلك مصالحة له فلما دخل الغرفة أدرك من مجرد النظر إلى وجه فلورندا أنها مصونة سالمه . فلم يبق له إلا أن يبعد رودريك عنها ربطاً تستطيع الذهاب إلى جسمها وتبعد عن هناك فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم لفرضين : أولاً لاملاقي صراح فلورندا والثاني لتوبيخه على ذلك الامر العظيم وهو لا يبالياً غاضبة ذلك ام ارضاء . ففعل وكان ما كان من غضب رودريك وخروجه على تلك الصورة وهو يبني الانتقام وخصوصاً بعد ان عاد إلى قصر فلورندا فلم يجد لها ولا للجبريز اثراً

الفصل التاسع والعشرون

الانتقام

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد أخذ الغضب منه ما أخذ أعلاه في الباب مرتين بينما وهو يفهم ويهز رأساً على رأساً من الملك استغراً من (وقفة) أو باب . وكان يظن الملك لا يفارقه تلك الليلة حتى يهاجموا على الارتفاع بأو باب ولكن ما ليك ان رأي رودريك تحويل عنده راجعاً إلى غرفته مجلس هو على متقد في احدى طرقات النصر لا بد للملك اذا عاد من المروي فلما أبطا الملك سار مرتين إلى غرفته وإنما رودريك فاندان ارجع إلى قصر فلورندا وفناً داه يقصد حنةً وكذاً ولا نسل عن حاله لما لم يجد أحداً في كل ذلك النصر ورأى حجرة فلورندا مشوشة بما حل بها من الأدوات الخفيفة الحبل . والغالبية الثمن

رجع رودربيك الى غرفته وهو يكاد يتذمّر غيظاً وبيت الى قيم قصره في تلك الساعة
فيماه . فابى ذر الملاك بالسوق عن خرج من ذلك التصرفي تلك الليلة . فاعتم النجم
بالامر فلما سمعهم الخدم فقالوا لهم يهوسون في العافية السلي لولا يومن لم بالصعود الى
فوق مطلقاً وهم على ثقة ان باب التصرم يفتح في تلك الليلة وابهم لم يروا احداً خارجاً
من مكان آخر لأن القلام كان مخيناً وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من
الاتجاه لما يحدث خارجاً . فسألوا المخرا ، فكان عذر اشغالهم بالدو ، والعواصف عن
كل شاغل . واخيراً يجهش في الطريقة التي يكن الترار بها فإذا هي من النافذة المطلة على
الهر ورأوا على نوافق الأغصان اليابسة دفناً من الترو تناشر من اهداه فيها ، فلورينا

فتحيق رودربيك عذرها ان او باس مشاركة لها في ذلك الترار . ثم عي غضبة عليه
وعوّل على الايقاع يو فعاد وقد انهكها العصب واثر التسلل في عزائهم فأحس كأنه أفاق
من سكره فأحب الخلوة فذهب الى فراشها فتقلب على مثل الجمر ولم يتمتعن رقاداً وقلبه
ينقد حنقاً من او باس فلم ير ما يترجّك به الا باستدعاء مرتين وهو متودع أسراره .
ذهب من النراش حتى لي أحد الحارس الى اقتنين يباو فآمره ان يستقدم الاب مرتين
على عجل ولو كان في فراشه

ذهب الحارس حتى قرر باب مرتين . وكان قد خلع ثاباته وتدثر بتهليس اللوم
وجلس في النراش وبدأ بحلاة اللوم . فوقف الرجل خارجاً حتى فرغ الاب من
الصلوة ثم دخل عليه وأبلغه أمر الملاك باستدعايه . ففرح لعله انة لم يدعه الا للإذاع
ما او باس فهو للحال وهو لا يزال بذلك اللباس وتزمل فوقه بقباء ، واضح من الترو . ولم
يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منتشلاً ايض كأنه كثلة من العطن فوق رأمه .
ومشي حتى دخل على الملاك وكان رودربيك أيضاً في خو ذلك من النهاية الغريبة بعد
تقليله في النراش وقد اختلطت خفايا رأمه بشعر لحيته وشاربه واثر الغضب والنيل
في سديه . فلما دخل مرتين عليه شعر باريلاح لرو بيتو فهو فهو لاستقباله وقبل بيته ودعاه
للجلس مجانبه فبايس وهو يقول « ارجوان يكون جلاله الملاك قد دعاني لأمر يرس »
قال « لا أطلبتك تجيئ السبب الذي دعوتك من اجله . . . وقد كنت في هذا
المساء ، ناظرًا سامعًا لما كان من او باس »

فرأى مرتين من باب التلبيق ان يقطع كلام الملاك ويتقول « اهـا وفاحة غريبة
وليس أغرب منها الا صبر جلاله الملاك عليه »

فقال زودريك « إنها بالحقيقة وفاحة لم أكن انوقيها من قوم قد أذنام الذل وأخذنا الحكم من أيديهم .. الا بخاف او باس غفي » ٤٠٠
 قال مرتون « أظن جلاله الملك لم يتبه لتحول اقواله .. وأواس مشهور بذلك الكلام وكثرة التكرر فإذا قال كلية يجب التمعن في فحواها لانه لا يتكلم عن هوى ولا يبني الكلام جرافاً .. الم تسمع قوله بل لاتكلم : اذا كان لنا مطلع في الملك ذان قوات السهام تقدر على اخراجو من يدك - إنها جسارة غريبة تدل على ما يدعى من الشراك والملكايد .. ولا اظنه الا يعتقد المجالس المرية وبعاقد الاداء على خلع الملك .. ولكنه خائب لا محالة .. »

واحسن رودريك عدد ساعي هذا التعامل بارتياح لانه اكتشف يايا لأهتم او باس والنبيض عاد وعلي من في مازلولعله يجد فلورندا بهم وقد غالب على خاطره أنها فررت الى هناك اذ ليس لها من الأقارب احد .. وخصوصاً بعد ما عابته من القرائن الكثيرة فقال « ما الرأي يا حضرمة الاب في هذا الخائن ؟ .. »

قال « الرأي ان نبيض عليه حالاً في هذه الساعة قبل انت يذهب او يدس الدسائس .. لانه خرج من قصرك وهو يهددك .. فلا تكون هيئاً .. والحل في هذا المقام ضعف » ..

ولم يكن زودريك في حاجة الى هذا التحرير وهو أكثر رغبة في ذلك - ولكنه زاد على رأي مرتون أن يتبعه على اهل بيته ايضاً واسوthem الى السجن لاعلم يمكنهون على دسيسة جديدة فقال اليه « يقائد الحرس الملكي »

خرج مرتون وأمر بعض الحرس باستئصال القائد وعاد الى غرفة الملك

الفصل السادس

او باس في قصره

اما او باس فانه لما خرج الملك من بيت بيته هب هو وسار على عجل الى منزله لوانفاته فلورندا في الخادمين وتدبر وسمله لاخراجها تلك الليلة من طاولة .. فوصل منزلة وسائل

الخدم هل جاء احد للسؤال عنه . فقالوا كلاما . فاندفع خاطره لاعتقاده انهم كان يحسبون برمي وصوطم حتى مل الانتظار فعول على الخروج بهنوس للبحث عنهم في الطريق الذي كان يقع ان يحيطوا فيه لكنه ما لبث ان سمع ضوضاء ووقع حوار خيول امام الفيل فظليم جائعا على افراس فنهض للحال وااطل من شرفة النصر والظلال لا يزال حالك فرأى جماعة على افراس دنوا من النصر واحد فلما يو عن بعد ولم يناظرها احدا من اهله ولم يتمطلع لعدة الظلال ان يهين الوجوه ولكن ادرك بذراسته انهم من رجال رودربك وقد جاؤوا لامر يوجب قتلها . على انتم يختلف على قسمها لرباطة جاثوا ولا عتقاده ببراءة ساحتهم واعتقاده على عزوبتو وتقد تجدوا ولكنها خالف على فالورتنا ورماها اذا جاءوا في تلك الساعة فامهم بتفعوت في الشراك لا محالة وإن عمل فكرته هنوة فرأى المبادرة الى العسل اولى فتحول الى غرفه فنزل بالثياب وخرج الى الباب ونادي اقرب فارس اليه . فجاءه وترجل وجهه باحترام . فقال له اوبياس « ما الذي تتعلمه هنا »

قال « انسا مأمورون بالوقوف هنا الى الصباح »

قال « ومن امركم بذلك ؟ »

فسكت الرجل وتحول وجهه الى جهة اخرى ونادي ضابط تلك الكوكبة ثم جاء الآخر وترجل وجا اوبياس وهم يتقدمل به . فاجتذب اوبياس به بعنف وقال « من امركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟ »

قال « امرنا به من ينوب عن الملك .. ولماذا افلات راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك .. ؟ نعم مدبرجها »

قال ينفيه اهادنة الاعيادية « افصح يا جدي عن الغرض من وقوفك هنا او ارجعوا من حيث اتيتم »

قال وهو ينافق صوتا بهمبا من اوبياس « اننا مأمورون بالقبض على قداستكم حملنا تهبون بالخروج من هذا المنزل .. »

فاستنشاط اوبياس غضبا ولكن ظل هادئا وقال « مأمورون بالقبض علي .. ومن امركم بذلك ؟ .. »

قال « يعتذر في مولاي فاني مأمور لا يدعني الا العطاء .. اننا مأمورون من

قال دنا الاکبر بـهـا علی امـر جـلـةـهـاـ الـلـكـ هـلـ نـسـطـلـعـ مـخـالـفـهـاـ الـامـرـ ؟ .. .

قال « كـلاـ ». بـلـ اـنـاـ أـحـرـضـمـ عـلـىـ الـعـاـمـةـ دـائـمـاـ .. . » قال ذلك واعـلـ فـكـرـتـهـ لـلـسـارـعـةـ

فـيـ الـامـرـ خـوـقـاـ مـنـ وـصـولـ فـلـورـنـداـ فـيـ تـالـكـ السـاعـةـ فـقـالـ « اـنـيـ خـارـجـ السـاعـةـ بـعـدـ مـعـكـ وـلـاـ

حـاجـةـ يـكـ إـنـظـارـ الصـبـاحـ »

قال الرجل « وـمـاـ فـيـ الـامـرـ يـاـ مـلـاـيـ ماـ يـدـعـوـ إـلـىـ هـذـاـ الـلـاقـ ». فـاـوـ مـكـثـتـ فـيـ

مـنـزـلـكـ شـهـرـاـ مـاـ مـسـنـاـكـ »

قال « بـلـ أـنـاـ خـارـجـ السـاعـةـ .. . هـمـ بـهـاـ »

فـاـشـارـ الصـابـطـ إـلـىـ فـرـسـانـهـ اـشـارـةـ بـهـمـوـهـاـ فـيـ هـرـبـ طـافـاـ بـحـيـادـ رـكـبـ اوـبـاسـ عـلـيـوـ

وـسـارـيـوـ وـهـوـ فـيـ وـسـطـمـ وـالـكـ سـكـوتـ لـاـ يـجـسـرـونـ عـلـىـ الـكـلـ فـيـ حـضـرـيـوـ

اماـ هوـ فـكـانـ فـيـ أـشـاءـ الطـرـيقـ يـنـكـرـ فـيـ الـامـرـ الـذـيـ سـاقـهـ لـاـ جـلوـ وـقـدـعـرمـ عـلـىـ الـدـابـاتـ

وـالـعـنـلـ . غـيرـ انـ ذـهـنـهـ مـاـ زـالـ مـشـغـلـاـ بـفـلـورـنـداـ وـخـافـ اـنـ يـلـتـهـاـ بـهـاـ فـيـ ذـالـكـ الطـرـيقـ

لـكـنـمـ يـلـتـهـاـ النـصـرـ وـلـمـ يـرـواـ اـحـدـاـ

فـلـمـ وـصـلـ اوـبـاسـ إـلـىـ قـصـرـ الـلـكـ عـوـلـ اـنـ يـتـرـجـلـ فـاـشـارـ الـبـوـ الصـابـطـ اـنـهـ

مـاـ مـوـرـونـ بـسـوقـتـ إـلـىـ مـخـنـقـ بـرـبـ النـصـرـ إـلـىـ الصـبـاحـ . قال الصـابـطـ « وـهـذـاـ الصـبـبـ

قـلـتـ لـنـدـسـكـ اـنـ تـقـيـ فـيـ مـنـزـلـكـ إـلـىـ الصـبـاحـ اـرـدـنـاـ بـذـلـكـ الـحـافـظـةـ عـلـىـ رـاحـنـكـ .. . »

فـاقـتـعـ روـدـرـيـكـ بـاـخـلـاءـ الطـرـيقـ لـفـلـورـنـداـ وـلـوـ أـلـقـيـ بـهـمـ بـعـضـ الـعـنـفـ رـبـيـاـ يـلـقـ

الـلـكـ وـبـرـيـ ماـ يـرـيدـ مـنـهـ . فـدـخـلـ غـرـفـةـ فـيـ بـيـتـ يـعـانـبـ النـصـرـ وـقـالـ الـحـرسـ بـالـبـابـ

قـضـيـ اوـبـاسـ بـقـيـةـ ذـلـكـ اللـيـلـ وـهـوـ يـخـطـرـ فـيـ ذـلـكـ الغـرـفـةـ ذـهـانـاـ بـاـيـاـ وـيـنـكـرـ فـيـ مـاـذاـ

عـنـ اـنـ يـكـوـنـ غـرـضـ الـلـكـ مـنـ ذـلـكـ الدـعـيـةـ عـلـىـ هـذـهـ الصـورـةـ . وـخـاطـرـةـ خـاطـرـ كـثـرـةـ

وـتـهـمـ شـقـيـ رـبـاـ يـهـمـ روـدـرـيـكـ بـهـاـ . وـلـكـنـهـ مـرـبـاـ تـوـهـهـ مـنـ بـخـاـةـ فـلـورـنـداـ وـلـمـ هـوـ فـلـمـ يـكـنـ

لـجـافـ مـوقـنـاـ وـلـاـ هـابـ خـطـارـاـ فـيـ سـيـلـ الـحـقـ وـالـحـرـيـةـ . وـالـرـجـلـ الـحـرـ لـاـ يـوـلـهـ مـوـقـفـ

وـلـاـ يـهـمـ بـمـنـ مـقـىـالـ وـهـوـ مـخـتمـ حـقـ مـنـ اـعـدـاهـ اـلـاـ اـنـهـ قـدـ يـكـوـنـ فـيـ خـطـرـ مـنـ دـسـائـ

الـمـدـلـمـينـ اوـ اـسـتـيـادـ الـقـالـمـيـنـ



الفصل الخامس والثلاثون

- البلاغ -

وما صدق او باس بطلع الفجر وتدجش الظلام رغبة منه في الاطلاع على صر هن الدعوة . فضى بعض النهار ولم يطلبه أحد فازداد قلة فاستدعي رئيس المخابرات وهو الصايبط المأمور فسئل بين يديه فقال له او باس « وماذا عسى ان يكون آخر هذا الاسر ... »

فقال « لا ادرى يا مولاي فعسى ان يكون آيلاً الى الخبر ... ولو عرفت سر ذلك ما اخليته عن سعادتكم »

قال « اني في حاجة الى متزلي فاذا لم يكن ثمة سرعة في المقابلة فلعلنا نسائل الى متزلي ثم اذا أراد الملك مني امرأً جنتة ... »

فتقرب الصايبط الى او باس وفي عبديه خبر يتردد بين كفانه واظفاره . فادرك او باس ذلك فيو فقال « ما الذي تفهم قل ... »

فقال « انك اذا ذهبت الى متزلي لاتجد فيه احداً ... »

فبعث او باس وقال « وكيف ذلك ... »

قال « لا يهم قضي على كل من حواه ذلك المنزل من الخدم والبييد وم في الحين الآن ولواب المنزل مقفلة ... »

فلم يمع او باس قوله حتى عزم الملك على التفك يوجهاً ولو لا رزاهه وعملاً لبدت البقنة على وجهه . وما زاد قلة خوفة على فلورندا وقد تبادر الى ذهنه انهم لم يتقدروا على اهل متزلي الا لانهم رأوا فيو فلورندا - على انانم يسأل بتفاصيل المحادية ولكنك نظر الى الصايبط وقال بسكينة وتمثيل « لا ينفعهم ذلك شيئاً ... » ثم تحول الى الداخل . فخرج الصايبط الى مكانه .

وكان ذلك الصايبط من يعرفون فضل او باس وعائلته ولكن كان واكثر رجال الدولة مسافرين مع الباراكير يرون الحق وبقوله ولكنهم لا يتعلون به - شأن الدول في ادوار الخلاطا وتهترها فانها لا تخلو في اثناء ذلك الاخلال من رجال عزلاء .

يعلمون بما أصاب دولتهم من المخالل وينتقدون أفعال حكومتها فيها بغيرهم وهم خارج المناصب ويرعون أنهم لو أتتح لهم الوصول إلى تلك المناصب لادخلوا في الحكم أصلاً حراماً. فإذا تولى أحدهم رأى نفسه، ضطرراً إلى مجازة تيار الأحوال العامة كما فعل أسلافة فإذا حاول معاونة ذلك التيار عرض نفسه للخطر. وبينما كان يطأول يقانعه على عزمه التدمير وهو في منصبه العجز وهو فردٌ عن معاونة مجازي الأحوال — وهي إنما يأخذ تلك الدرجة من الانخراط بتوالي الإجراءات — والبدن إذا بلي بالضعف من المرض لا يرى عودة إلى الشباب . إلا أن يكون المصلح في أكبر المناصب فقد يأتي باصلاح ذي بال ولكنها يذهب بهم

وقد كان في طباعلة كثيرون من برونو المخالل المنظرق إلى الدولة ولكنهم لم يكن لهم سبيل إلى مناصبها الكبرى . وإنما صغار الحسبيون فليس لهم إلا التذمر والكتاب كاكا كان شأن ذلك الفايض

رجع أوباس الذي متعدد في تلك الغرفة قعد عليه واستقر في المواجه حق مفعى بعض الماء . فلما رأى الخادم آتياً إليه بالطعام تخلى أن مكانة سرهول هناك وترايد قائلة فأنا في الطعام ورد المائدة واستندم الفايض وقال له « أفي لا استطيع طعاماً قبل أن أعرف مذهب هذه المعاملة فهل لك أن تستطلع ذلك من أحد؟ »

فقال « أرى يا مولاي أنت تكتب كتاباً احتجة إلى مجلس الملك لعلي آتوك بالجناب الشافي »

فاستخرج أوباس من جيبه لوحًاً شمعاً كتب عليه بالمسار ما معناه « حملني جيدك إلى هذا المكان بلا ذنب افترقة وللملك يعلم أن رجال الكهنة لا يتجاوز عما لديهم على هذه الصورة وإنما هم تحت سيطرة الكهنة فلا أدرى سبب هذا السجين . إلا أن يكون ذلك من جهة ما نطرق إلى حواه هذه الدولة »

فحمل الفايض الكتاب وسار به إلى النصر . ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول « إن الأدب مرتبين داخل الماءة قدسمك »

فلم يدرك أوباس لذلك الخبر إلاً على رجاءه أن يستطلع منه مذهب ذلك الأمر وقد علم أنه أتى بأمر الملك بهذا الشأن . فظلّ أوباس جالساً مدخل مجلس مهرولاً وهو يفهم كأنه يتناول بعض الأدعية حتى وقف بين يدي أوباس ثعبان وعزم كأنه يريد تقبيل يد باعثي رتبته الكهنة . فلم يبال أوباس بكل ذلك بل ظلل مساكتاً . ثم جلس

مرتون على كرسي شجاء المقد و هو يبتسم وجهه بهلال فرحاً - ولا يفرح الانسان بشيء اكثراً من فرحة بيوره على عدنٍ حتى قالوا - ان المعاادة في النصر
ويهدى ان تتحقق الاب مراراً ويسع وجهها وكمية ثبور مرة استعداداً للكلام كانه
فيهم بالناطق وتحول عنده لسان دون الاصلاح الى ان فتح عليه فنال وهو يقطع الكلام
فعلمـا قد بعاني جلالة الملك لابع قدسكم انه يعلم امیازات الكتبة والـا لا يجوز سجهـم
او حـا كـهـنـم الاـ في مـيـالـسـ كـهـنـوـتـهـ وـكـهـنـةـ اـمـاـ اـمـرـيـقـ عـلـيـكـ وـقـيـارـبـهاـ باـشـمـ عـلـسـ
الـاسـافـةـ وـمـ يـظـرـونـ فيـ اـمـرـكـ

فـلـماـ سـعـ اوـ بـاسـ فـوـلـهـ زـادـ اـسـفـراـيـاـ وـلـمـ بـنـمـ المـرـادـ تـامـاـ لـانـ مـجـعـ الـاسـافـةـ اـنـاـ يـجـمعـ
مـرـ فيـ السـنـةـ اوـ مـرـتونـ (١)ـ وـلـاـ يـجـمعـ غـيـرـ اـجـتـاعـ اـنـوـيـةـ الـعـبـيـةـ الـأـلـلـ للـظـرـفـيـ اـمـوـرـ فيـ غـايـةـ الـاهـيـةـ
كـانـخـابـ الـمـلـكـ اوـ الـجـبـتـ فيـ خـطـارـ يـهـدـدـ الـمـلـكـةـ اوـ غـيـرـ ذـلـكـ .ـ وـاجـتـاعـ هـذـاـجـمـعـ يـنـتـفـيـ
مـكـانـيـةـ اـسـافـةـ الـاـقـاـلـيمـ وـالـمـطـارـتـةـ يـاـ يـتـفـرـقـ اـيـامـاـ عـدـيـةـ .ـ فـأـطـرـقـ اوـ بـاسـ وـأـغـلـقـ فـكـرـةـ
فـيـ هـذـاـاـ الـاـمـرـ وـلـمـ يـجـبـ

وـكـانـ الـاـبـ مـرـتونـ لـماـ فـرـغـ مـنـ قـولـهـ ثـبـتـ بـصـنـ فيـ اوـ بـاسـ لـيـمـتـفـلـعـ ماـ يـبـدوـ مـنـهـ
وـكـانـ يـقـوـعـ اـسـتـوـاهـ وـغـصـبـ لـيـشـفـيـ مـاـيـقـمـوـ .ـ لـانـ مـنـ يـعـدـ اـهـمـكـ اـذـاـمـ بـرـ قـوـلهـ
اغـضـبـكـ تـرـجـعـ تـلـكـ الـاهـمـةـ الـبـيـوـ وـيـشـقـ ذـلـكـ عـلـيـوـ .ـ فـلـمـ رـأـيـ مـرـتونـ انـ اوـ بـاسـ لـاـ يـزـالـ
كـاـكـاـنـ وـلـمـ نـظـمـ عـلـيـوـ عـلـامـ الـاخـطـارـ وـلـاـ اـحـدـ وـلـاـ اـجـابـ باـعـتـراضـ وـلـاـ
استـهـامـ تـوـمـ اـنـ ذـلـكـ مـاـيـتـجـعـ عـنـ دـمـ اـدـرـاـكـ خـطـرـ الـاـمـرـ الذـيـ يـنـتـربـ عـلـىـ ذـلـكـ
الـاجـتـاعـ فـنـالـ «ـ وـلـاـ يـقـنـىـ عـلـيـ قـدـسـكـ اـنـ جـمـعـ الـاسـافـةـ يـنـتـفـيـ زـمـاـ طـوـبـلـاـ وـلـاـ اـلـآنـ
ذـوـالـنـظـرـ الـمـيـعـ .ـ اـكـثـرـ اـنـ طـلـيـطـلـهـ لـهـيـةـ جـلـالـهـ الـمـلـكـ بـعـدـ الـمـلـادـ لـاـ يـعـوـلـ الـاعـفارـ
فـيـ جـمـعـ الـجـمـعـ فـلـاـ تـشـبـرـ

فـظـلـ اوـ بـاسـ هـادـئـاـ وـلـمـ يـلـ شـبـاـ لـانـ كـانـ قـدـ اـدـرـكـ ذـلـكـ مـنـ ثـلـاثـ تـسـوـعـ
فـلـمـ رـأـيـ مـرـتونـ لـاـ يـزـالـ سـاـكـاـ رـاـبـطـ الـجـاـشـ جـائـشـ قـدـرـ صـدرـهـ وـاشـتـدـ غـيـرـةـ
فـأـرـادـ اـنـ يـلـمـ لـهـ بـالـنـسـةـ الـمـوجـهـ خـنـ فـنـالـ «ـ وـسـؤـنـيـ يـاـ حـدـرـ الـمـبـرـ وـبـولـتـ اـنـ يـنـهـطـ
مـنـكـ آـقـوـالـ تـدـعـوـالـ اـسـاءـ ظـانـ الـمـلـكـ كـاـ قـلـمـ فـيـ مـسـاءـ الـامـسـ وـهـلـ يـلـقـيـ يـاـلـكـ
اـنـ وـهـدـ جـلـالـهـ الـمـلـكـ بـالـخـلـعـ ؟ـ وـلـوـاـ وـجـودـيـ وـسـاعـيـ ذـلـكـ التـوـلـ يـاذـنـيـ لـمـ
اـصـدـقـ ظـانـكـ لـمـحـمـ مـهـلـ ذـلـكـ اـيـضاـ فـيـ كـاـنـكـ الـبـيـوـ الـاـنـ »

الفصل الثاني والثلاثون

ـ توقع المصيبة شرّ من وقوعها ـ

فادرك او بابا لهم يريدون معاً كثناً بهيمة سيامية ضد الملك . فاستمعتم الهمة ولكن بالله ارتاح لاستقراره على حقيقة الخور — والانسان اكثار فلاناً في اثناء انتظار الخبر ما هو بعد ساعده ولذلك قالوا « توقع المصيبة شرّ من وقوعها » — فلما وقف او باب على سرّ الامر لم ير فائدة من الكلام مع مرتين في هذا الشأن فضلاً عن اننا بشيء غلط بذلك الكلام . فوقف بهدو ورزانه وقال « صبرأ الى يوم الاجتئاع ... وكان رودريك لا يريد ان يبقى عدي شل يترتب سقوط دولوي فزادني بعلو يقيناً بدنوا اجلها ... » قال ذلك وسني ولم يترك للاب مرتين فرصة للجوء

اما مرتين فانه بهض بهوض او باب وقال وهو يظهر الشفقة عليه « الا نزال نقول ذلك ... يا للعجب ... كيف يعطيكم خبركم على المؤامرة ضد الملك وسلطان وحاتو وانتم تعلمون ان الكبيرة هي التي تهدى باجماع أسفافها ... »

فادرك او باب انه يريد التطويل بمضاعفة الهمة عليه وشقاء على قدركه يتكلّم وتحوّل عنه وول وجهه نافحة نطل على الحديثة

فلما رأى مرتين ذلك منه خمل وهرول مسرعاً نحو الباب وهو ينادي الصايبطا فلما حضر بين يديه قال له « يا مرك الملك ان تخبط بهذا الحجين لان امن ذو شأن واحد ان يقلت بذلك ... »

فشار الصايبطا يرأشو ان « حاضر » وخرج الاب مرتين ظافراً مختصرأ اولاً ما سأله من رباء على جاش او باب وتأنس وصبره . وكان يود ان يرى منه حنة او غضباً ايسوعة تانيةً وبشي غليلة منه

اما او باب فانه عاد الى اعمال النكارة وبالله لا يزال مشغولاً على قلورندا فذكر التوبيس وخروجه بالامس لنهاية الجيد فاراد الاستههام عن متن فعاد الى الباب واستدعى الصايبطا فوقف بين يديه فقال له « هل علمت بفروج الامير التوبيس من طلابطة ... ؟ » قال « علمت ان فرقة خرجت من طلابطة بالامس ولا ادرى اذا كان الامير

فُرِجَّعَ لِأَوْبَاسَ إِنَّ الْمُؤْنَسَ سَافَرَ مَعَ تِلْكَ الْمَرْقَةِ وَلَكِنَّ ظَلَّ مُشَغَّلَ الْخَاطِرِ
يَنْلَاوِنَدَا لَا يَدْرِي مَا آتَى إِلَيْهِمْ وَخَافَ أَنْ تَكُونَ وَقْتُ فِي الْإِسْرَارِ جَمِيلَ مَيْزَلَوِ
فَاهِمَ إِلَيْهَا قَبْضَوْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا — وَوَدَّ لِوَاسْتَعْلَامِ اسْتَعْلَامِ إِمْرَهَا مِنْ أَحَدِ وَجْهَتَهِ
نَفْسَهُ أَنْ يَمْتَهِنَ الصَّابِطَ وَلَكِنَّهُ خَافَ عَاقِبَةَ ذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ تِلْكَ التَّهْبَةِ أَمْ —
وَلَمْ يَغُرْ مَا يَدِهَا مِنْ أَنْسِ الصَّابِطِ وَحْسَنَ ظَلَّوْنَ إِلَيْهِمْ إِنَّ الَّذِينَ يَطْبَقُونَ ظَاهِرَمْ يَاطِّبُهُمْ
فَلَيْلُونَ وَأَقْلَمُ مِنْهُمُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَلَى عَزِيزِهِمْ فِي مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ ضَمِيرَمْ — خَافَ أَوْبَاسَ
إِذَا كَانَشَ الصَّابِطَ بِحَدِيثِ فَلَوْنَدَا أَوْ نَظَارِهِ لِدِيَهِ سَالِهَنَامَ هَا إِنْ بَرَحَ بِذَلِكَ لَدِيَ
أَحَدَ فِيَنْخَذُهُ سَجَّةَ عَلَيْهِ مَعَ اعْتِنَادِهِ أَنَّ الصَّابِطَ مُخْلِصٌ لَهُ وَلَكِنَّهُ عَوْلَ عَلَى سَوِّ الْفَنِ
وَعَدَ النَّاسَ كَلِمَ جَوَامِيسَ عَلَيْهِ

فَضَى أَوْبَاسَ فِي مُحِيمَوْ بَضْعَةِ أَيَّامٍ وَهُوَ يَنْتَظَرُ التَّآمِنَ الْجَمِيعِ وَلَمْ يَتَوفَّقْ إِلَى سَيْلِ
الْإِسْتِهَانَمِ عَنْ فَلَوْنَدَا وَلَا اتَّقَنَ لَهُ سَاعَ شَيْءٍ. عَمَّا فُرِجَّعَ إِلَيْهِمْ قَبْضَوْنَ عَلَيْهِمْ وَعَادُوا
هَا إِلَى قَصْرِ الْمَلَكِ . فَلَمَّا نَصَّورَ ذَلِكَ افْتَمَرَ بِدَنَا وَنَسِيَ الْخَطَرَ الَّذِي يَهدِدُ حَيَاتَهُ

الفصل العاشر والثلاثون

الموكب

أَصْبَحَ أَهْلَ طَلِيلَةِ ذاتِ يَوْمٍ وَقَدْ دَفَتْ فِيهَا الْمَوَاقِيسِ وَزَينَتِ الشَّوارِعِ
وَخَصُوصًا الشَّارِعُ الْكَبِيرُ الْمُؤْدِي مِنْ قَصْرِ الْمَلَكِ إِلَى الْكَبِيسَةِ الْكَبِيرِ . وَاشْتَغلَ الْمَيْدَانُ
بِكَسِ الشَّوارِعِ وَتَنْظِيفِهَا وَوَقْتِ الْمَرْسِ صَفَّوْنَ بَيْنَ النَّصَرِ وَالْكَبِيسَةِ وَفِي أَبْدِهِمِ الْمَرْبَابِ
وَعَلَيْهِمِ الْمَلَابِسِ الرَّسِيبَةِ الَّتِي يَأْسُونَهَا فِي الْاحْتِلَالَاتِ الْكَبِيرِ . فَسَاءَلَ النَّاسُ عَنْ مَهْبِبِ
ذَلِكَ وَنَظَارُوا إِلَى الشَّارِعِ الْكَبِيرِ وَنَظَارُوا مِنْ الْمَوَاقِدِ وَأَشْرَقُوا عَنِ الْمَطْلَقِ بِتَوْقِيُونَ
مَشَهِداً جَيِّلاً أَوْ مَنْظَراً ذاتَ بَالٍ وَكَانَ يَوْمًا صَاحِبَيْنَ تَجَهَّلَتْ بِهِ الشَّيْسُ عَلَى ابْنِيَةِ طَلِيلَةِ
وَبَنِيرَهَا وَبَسَاتِيَّهَا

وَفِي الْفَصْحِيِّ عَجَ الشَّارِعُ بِالْفَوْضَاءِ فَالنَّفَتَ النَّاسُ فَإِذَا هُنَاكَ فَرْقَةٌ مِنْ فَرْسَانِ
الْمَرْسِ الْمَلَوِّكِيِّ بِالْمَلَابِسِ الْجَبَدِيَّةِ خَرَجُوا مِنْ قَصْرِ رُودَرِيكِ يَأْمُرُونَ الْمَارَةَ بِاَخْلَاءِ السَّيْلِ

لوكب الملك وعلى بضعة عشر متاراً وراهم زعنة من الخامة بالآلية الزاهية يقللها الوشي المذهب بعضهم يحملون صلباناً فائنة على عهد والبعض الآخر يحملون الشموع وقد ظهر نورها لطلع الشمس على ان اكثروا طلاق، بهبوب الرياح — لأن ملمس الشفاعة في طليطلة وإن كان صافياً فإنه لا يخلو من الرجع أهابه لوقوعها على جبل، وبعضهم كان يحمل أخضاناً من الزهرون وأخرهم في أيديهم المباخر يصاعد منها البخور وهم يزغبون بأناشيد لاتينية . وبعد حلقة الشموع فرسٌ على رودريلك بناج، وحولة الاساقفة بلايسير الرسمية وورائهم المطارنة والشامسة وثيورم من رجال الاكليروس . ووراء ذلك كوكبة من النرسان . فلما رأى أهل طليطلة ذلك الموكب علموا ان الاساقفة قد أموتون للإجهاض ولكنهم استغروا أجياعهم في ذلك الحين وما هو الوقت الإجهاض . لأنهم كانوا يجتمعون أجياعهم السنوي في وقت معون من العام . فانقضت المخواطر وأغارب الناس لأن الجميع لا يجتمع في غير يوم عادة إلا لامرهم جدعاً . وهي على زمن لا يجتمع إلا لغرض هم وكانت الجامع الدينية في إسبانيا ثلات درجات (١) الجامع الككري (٢) الجامع الأقليبية (٣) الجامع الابرشية ^(١) . فالآولى تجتمع بأمر الملك في طليطلة للنظر في الأمور العامة المتعلقة بالملكة كانتخاب الملك أو المصادقة على قانون أو نحو ذلك مثل اجهاء في ذلك اليوم للنظر في التهمة الموجهة إلى أوبياس . والجامع الأقليبية تجتمع في الأقاليم بأمر الأساقفة مرة أو مرتين في السنة . والجامع الابرشية يحضرها روؤساء الديور والتعموس والشامسة ونحوهم . فلما رأى أهل طليطلة الاتهام يجتمع هذا الجميع خافوا ان يكون هناك ما يتعلق في حرب أو عزل أو تولية

أما الموكب فظل سائرًا حتى وصل إلى الكنيسة فتحى النرسان التي كل من الجائعون ثم انقسم الشامسة بسوهم وصلبائهم ومواحرهم إلى قسمين دخل كل قسم من باب جانبى وترجل الملك والأساقفة والمطارنة ودخلوا من باب الاوسط

وكان خادمة الكنيسة قد يهضوا بطلع الشمس وإشتغلوا في التنظيف ووضعوا المقاعد والكراسي في الترتيب اللازم في هذا الإجهاض . وإناروا الشموع وفتحوا الأبواب ووقفوا ينتظرون الموكب ويعهون كل من أراد الدخول من العامة أو من سواهم اذا لم يكونوا من يغتول لهم حضور الجامع والذين يجوز لهم حضورها هم : (١) اساقفة طليطلة

والأقاليم المشتركة معها (٢) المغاربة الميتروبوليت (٣) رؤساء الديور (٤) الخامسة والخوارنة (٥) بعض رجال البلاط الملكي (٦) الملك فما دخل الملك إلى الكنيسة اخذ كل منهم مجلمه . وكانت المناعد قد تزهبت صفوًا متعاقبة جلس الأسفاف على الاولى منها ورتقوا عليها باعتبار الأعمار . وورائهم الأسفاف الصغار وهو لاء جلسوا بحسب الأعمر أبهاً وجلس ورائهم التموس - والخامسة وقف بين أبدיהם . وفي وسط القاعة امام تلك المنادم كرسي خاص يكتنف سر الجموع . وهناك عرش مزخرف أعلاه الملك وبين يدي العرش مناد ملء يشهد الاجتماع من خاصة الملك . أما الآباء مرتين فكان يجب باعتبار كونه قسيساً أن مجلس بين التموس وربما كان في متنه لهم جميعاً لكربيتو ولكنة نضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يجيئ على الذهاب .

الفصل الرابع والثلاثون

الجلسة (١)

فما استقر كل واحد في مجلسه انقلب أبواب الكنيسة واستولى السكوت على تلك القاعة الكبرى . وظل السكوت سائداً برهة لا ينبعق أحد بكلمة . ثم تكلم رئيس شامسة الكنيسة من على كرسي بجانب الميكل فقال باللاتينية (Oremus) أي «فلصل» وكان القول صدى قوي . ولم يكدد ينبعق بذلك اللانطة حتى انصب الجميع جدأ على ركبهم وأخذ كل منهم يصلي لنسو بصوت مختلف . ثم فطاع صلواتهم أكبر الأسفاف سأ بصلاة قاماها بأعلى صوته فاصغوا لها . ولما فرغ منها صاح الجميع «آمين» ثم قال رئيس الخامسة باللاتينية (Surgite fratres) أي «انبهروا إليها الآخرة» فنهضوا وعاد كل إلى مجلسه . وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بخلافة قانون الإيجان (نؤمن بالله واحد الخ) على مانقرر في مجتمع النسطاطينية وختم الثلاثي بعبارة تدل على الاعتراف بالجامعة المسكوبية الاربعة (١)

ثم واف شناس على ثوب أبيض ناصع وبين يديه كتاب ضخم على حالته يجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب في مكان اخباره . وكان الأساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيطلع ذلك الشناس ليرفعوا منه موضوع الاجماع — لأن ذلك الكتاب فانون الملكة وعادتهم اذا ظهر الجميع ان يتلو الشناس فقرات من ذلك القانون تتعلق بالغرض الذي اجتمعوا من أجله — نادى هو بتلوي واد متعلقة بالخطاب الملك وهن يسمى في افساد بيات الشعب عليه او بهم دخلة ونحو ذلك . فادرك الجميع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التزوير

ولما فرغ الشناس من ثلاثة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابه الى الحضور وقال «ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والاحوال على ما يراى لكم هادة ولكنني أبلغ قدسك اننا اجمعنا للنظر في هبة موجهة الى أحى من اخوتنا — وللاسف انه أستوف من الاساقفة . وربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع انه متيم في طليطلة — لانك اكرم عرثتني . . . » فلما قال الكاتب ذلك ضج الاصaque وهماسوا في شأن او بأس واكرم لم يستغرب اتهامه بخلع رودريج لما يعلومنه من علاقته بالملك السابق وطمعوا بالملك لا باباؤه — ثم قال الكاتب « وسنتقدمة وينفذ بين ايديكم وقنة المهم فاما ان يبرئ نفسه او مجرئ عليه النصاوص »

فلم يفرغ الكاتب من كلامه تكلم أحد الاساقفة المجالسين في المقد الاول وقال « لا بد لكل هبة من يوجهها ومن توجه اليه . فقد علمنا ان المهم هو اخونا المتروبوليت او بأس ولكننا لم نعلم من يهدى بذلك . . . »

فأجاب الكاتب « انكم ستعلمون ذلك متى حضر »

فسكت الجميع وترصدا يانتظرون قدوم او بأس وساع عما كانوا . فانفرد أحد الشاسة وهي الى غرفة تستطرق الى باب سري فتوجهت انتظار الاساقفة الى تلك الجهة ثم ما لبثوا ان رأوا او بأس داخلاً بشبه الممهودة وقاموا المتدلة وجلال عراه وذهبوا وليس على وجوه شيء من دلائل الاضطراب او الوجل . فلما وصل الى الماحة الوسطى أمام مجالس الاساقفة اجال نظره فيهم ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الابرين انتباها كأن لم يكن موجوداً هناك

الفصل الخامس والثلاثون

الحكمة

وقف او ياس هناك وقلة فاهم وليس وفاته مهتم . وقف وهو ينظر الى من حوله نظرة الى اناس ضعفاء ولم يفهم عددهم ولا ماهي ايديهم من السلطة النافذة وخصوصاً الملك فان او ياس كان يعن غلاماً غمراً وزاد اختصاراً له بعد ما عاشه من امر مع تلورندا — والرجل الحبر يقدّر الناس بفضائهم وان كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ ولكنهم لا يزالون في باطن سرم يهارون رجال الشفاعة ولا يعدون احترامهم لدورهم الا مظاهره خوفاً من القلم أو الناس للتنفس . على ان منهم من يصلح في اطراه اهل النفوذ حتى ينخدعوا بآفاقهم . ويزداد ضررهم . فاذاكروا ذلك الملائكة في بلاط ملك ضعيف اختره بمنسوبي اقماره او عمل بدوراتهم — والملائكة لا يصلحون للشورى — فتتحمل الامور ويسود اهل النساء وتتأول الاحوال الى المسار والعواز باش

وكان او ياس من لا يدعون الا الحقيقة ولا يهينون الا المخرج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه هي لنسورقة في الحياة الدنيا او طمعاً بمناصبها او ملائتها . ولكن كأنه ارى نفسه متذاعزلاً العالم وانظم في سلك الكهنة الله المأمور عذراً لميدانه بيراه حسماً في عقوله ويستغرب تفاصيل الناس عذراً — كان يرى نفسه اسريراً للحق عذراً للحقيقة وحريراً الذكر لا يعرف المداهنة ولا المراوغة — فلا تعجب اذا رأيتها واقفنا في ذلك المجلس غير هباب وهو يرى الحق أعمقهم منهم واشد هيبة

فلما وقف او ياس وقف الكاتب ووجه خطابه نحو قاتلاً «ابلغ سعادتكم اننا استندناكم الى هذا الجميع باحضره الميتروبوليت لمبة موجهة اليكم وكل واحد مننا يتحقق ان تكون ياطلة وتشيراً ساحتكم ... انكم مههرون بالمؤامرة على خالق جلاله الملك ... ولا يخفى على سعادتكم ان مثل هذه الهرمة لاتس جلالة الملك فقط بل في تتناول هذا المجلس كلة — لانه هو الذي القبة وافرق ... »

وكان الاب مرتون في الناء كلام الكاتب شاخصاً بعيونه مطلولاً يعنفو . فلما سمعه

يقول ذلك أشار باطريق جنديو وهرأوس ان «احمدت» لانه حسب ذلك يزيد نسمة الاسافة وسائل اعفاء الجميع عليه
أما او بابا فلم يكن يعيها يدوم من أحد فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى المكتوب على الجلسة ونطاولت الاعناق لبعض ما يقوله او بابا فإذا هو يقول بصوت هادئ «همست كلامك وما تقوله من أمراء اهلي ولكنني لا أجيئ علي قيل ان اعرف الرجل الذي يهدىي ...»

فالثالث الكاتب نحو الملك وحى رأسه كأنه يقول «جلالة الملك نسمة ..»
فتقال او بابا «وما هي أدلة على ثبوت هذه النسمة» فاراد الباب مرتين ان يقلد او بابا برباطة جاشه وتأتيه فظل جالساً والثالث الى الاسافة لنسمة الاستخفاف والهكم وإخراج شفتيه من غورها وتعيها وأصعد حاجبيه وهرأوس كأنه يقول لهم «اسمعوا قول هذا الذي كف يطلب من الملك شاهداً على قوله ..»

اما الكاتب فلم يسمع الا الالتفات الى رودريك كأنه يتظاهر جوابه على قول او بابا . فاشعار الملك الى الباب مرتين ان يجيءه . فوقف مرتين وقد نسي القافية ورها لهما الجاشه وعاد الى فطريتو العجوزة . فلما رأته الاسافة بهم بالكلام اصاحتهم لا يقولوا لكلا قنوتهم الناظفة بالنكبة فلا يهبون مراده — وعلى جواب سيديون حكم . اما هو فقال «انتطلب الادلة على ثبوت النسمة عليك وكل الفرائين توبيدها . يكفي انكم منذ كان الملك السابق حياً لا تزالون تسعون في خلع طاعة الكثومة الكاثوليكية والرجوع الى الاربوبية وقد كان تنصيب جلاله الملك ضربة كبيرة عليكم جميعاً . فاخذتم تبذلون كل مرخص وغالب في مقاودكم وأكثروا مؤيد من الله والكنيسة . ومن عجب امرك انك نطلب الشهادة على صدق قول جلالتك ..» ولم يبلغ الى هنا حتى تعمت آذان المحاضرين من كلامه المتقطع — فالثالث او بابا الى المضمر وهو ينتقم وقال «بل من الفرائين استغراكم طلب الدليل على نسمة موجهة نحو اسلف بمحبل جسد الله بين يديه ..»
نبهه اقبل ما يقال فيها اهلاً مختلفة — ثم عذلتة ولو قاتلها جلاله الملك لان الحق فوق الملوك والاسافنة — ثم لا ادرى ما الذي يسوغ هذه النسمة ..» كيف يقال الى تآمرت على خلع هذا الملك .. فمع من تآمرت واين وكيف — وهل تكون الى امرة او التطاوط الى بين جماعة .. فمن هم رفقاء في النسمة ..؟ انا قول غير معقول .. لا انقول ذلك فراراً من العقاب لان العقاب لا يهدىي ..»

الفصل السادس والثلاثون

التصریح

فلم يصدر الملك عن جواهير بنصه فنال وقد حمل عينيه وانقلب حاجبيه « يا للعجب من هذه الواقعة كيف تذكر هنا الامر وقد سمعتك باذني هذه وانت بهذه بقرب انتقام هذه الدولة طالها هبون عليكم اخراج هذا الامر من بيدي .. . هل تذكر ذلك ؟ .. . وقد سمعة ابا مرتzin ايضاً .. . فهل من دليل اوضح من هذا ؟ .. .

وكان الاساقفة وهم اصحابهن الاقفال وبالدين الى التصديق لاصحاب منها ان اكثراهم يكرهون او يناس تحرية ضرورة وشدة في الحق ولا نقول . ناهيك بالتراث التي تساعد على ثبوت النسبة لان اهل حلية لطة كلهم يعرقون كره بيت غططة اجمدین اروبريلك وكل من يقاوم بقاوماً وخصوصاً الاساقفة ليروا تقدم يوانها . فلما سمعوا شهادة الملك فهموا وشهادة قسيس ما الى الحكم على ارباس وزد على ذلك اتهم كأن وكفهم الحكم عليه بدون محاكمة وكفهم اجهزمو على ذلك الاجتاع ليتفضوا بوشهي واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامه وجوهوا اصواته نحو او يناس ليسعوا قوله . فرأوا لا يزال على يائمه ورباطة جأشه . وقبل انت بشرع في الجواب اعتزضاً احد الاساقفة قائلاً « الى لاجيب من نسمة بعض رجال الموظ على تنصيب جلاله الملك وتنصيبه انا كان بالانتخاب على منتصف قبورين الدولة والكنيسة . والذين بدّعون الحق لابناء غططة او غيره من اعضاء عائلته في الملك اغام مختلطون . لان الملك في اسرانا الان الخاتمي كما لا يحيى على سعادتكم . ولا يجلس على هذا العرش الا الذي ينفعه هذا الجميع المقدس .. . فهل تذكرون ان جلاله الملك منتخب على هذه الصورة ؟ .. .

فلما سمع ارباس ذلك ادرك ائم بقاولون ابناءه فلم يبال وعوّل على الجبولان في الموضوع الآخر فنال . وقد وجه خطابه نحو ذلك الاسقف « ان هذا السؤال باضطرة الاسف خارج عن موضوع النهاية ومع ذلك فاني اجييك عليه .. . نعم ان هذه المسألة اكثير الملك اوريا خضوعاً للكنيسة . واساقفتها م الذين يصيرون الملك كما ذكرت . ولا انكر ان جلوس هذا الملك كان بالانتخاب هذا الجميع فاختيابه كان قانونياً وان كفت لا اعتقد ان الجميع توخي كل الفارق القانونية بتعل الصريحان من الملك المرحوم اليه ما

لا اخوض فيو الآن . ولتكن لا اخني عبكم اوها السادة اني ارى الكنيسة قد ثادت بصلتها
في هذه الملكة دون سائر المالك حتى تجاوزت حدودها — اقول ذلك وانا من اعضاء
الكنيسة ولا اظن احدا منكم يقول هنا التول ولو كان يعني لانه يغير مصلحته ...
وكان الاب مرلين لما مع ترياس او باس بالطبع في الانتخاب اشار الى الكاتب
ان بدون ذلك التول امامه لطالبه يو ... فعمل

اما الامثل الذي كان الكلام موجهآ الي فوجا جاب قائلآ « يظهر انك تذكر
فضل الكنيسة على الملكة وهل يعني عليك ان الكنيسة الكاثوليكية هي التي حافظت
النظام والهدن في هذه الفارة . وقد جاء اجدادكم الابرمان على اختلاف قبائلهم طاكثزم
وتذبون فتقليموا على الملكة الرومية ونشروا في مدنهما قبائل رحلا لا علم عدم ولا هدن
في جمعتهم الكنيسة الى احصاءها وعذبت اخلاقهم وجعلتهم امماً وبالك . وفي التي حافظت
لم العلم والحكمة وهي درهم في كل شؤونهم السياسية والادارية وكل شيء ولو لاما
ل كانت اوربا فوضي لا علم فيها ولا نظام ^(١) »

فيم اوربا في الجواب فدق الكاتب جرساً امامه اشارة الى الناس المكتوب
فسكتها والتى فرأوا الملك بهم ^٥ بالكلام فاصغوا . فقال الملك وهوجالس على عرشه
وصدره يتنفسه وشعر مرسل الى كندا من نعمت ناجه « لا حاجة هنا الى الخوض في مسائل
لا علاقة لها في الموضوع ... بكتفي ما قد سمعتنيه من كلامه الا ان من استهجان اعمال
الجمع في الانتخاب الملك وانكم لم تنتخبوني بطرق فاسدة ... فمن يصرح بذلك في مجلس
القضاء هل يستغرب اهتمامه بالمؤامرة »

فالذلت اوربا الى رودريك قائلآ « لا علاقة لها الملك بين انساني الانتخاب
او استهجانه وبين مؤامرة تزعجون اني عقدتها بعلمكم — تم ان اشك في العرق الثانية
التي اخذت في هذا الانتخاب ولكنني لم ابن عليها مؤامرة . او على الاقل ان الدليل في
سوق الى هذه الجلس اوس هو اعتقادكم الى فعلت شيئاً من ذلك ... »

فاعترضه الاب مرلين قائلآ « وكيف لا يعتقد جلالته ذلك وقد سمعه من فيك كما
سمعني انا ... يا للعجب ... » قال ذلك والذلت الى الملك وقال « يظهر ان امر
المجادلة طال والثانية صرحة واضحه ... »

^(١) كيزرو : تاريخ تحدن اوربا

الفصل السابع والثلاثون

- التعامل -

فالتقت الملك الى الاساقفة وقال «قد سمعت ما قالت هذا . فاما ان يكون الملك رودريك تنصب على خالطة بغير حق او ان اوباس هذا قد ليس ثوب الكهنوت بدون استحقاق ... » قال ذلك وقد أخذ الفضب منه مأخذًا عظيماً حتى نزل من عرشه ومشى وهو لا ينفك ثم عاد الى كرسيه وجلس بعده

فهن اوباس انه يعرض بغير بره من ربته الكهنوته فصاح له فقال «لا تظن هذا المدحيد بضعف عزتي في قول الحق لاني است أستنا هذه البدلة ولا أنت ملك بهذا الناج وإنما الاعمال بالآيات ومهما أردتم في من القاصص بذلك لا يقل شيئاً من اعتقادي . ولكنك زيد ذبك يا رودريك امام الديان العظيم لأنك سجنة وتعالى يعلم المحب الذي من أجله نقمت عليّ وستقني الى هذا الجميع — وانت تعلم وهذا الاب المفترم ايضاً يعلم المحب الذي تهمها من أجله حق مني الى هذا الموقف وما أنا قادرٌ موقفاً أرأي فيه مختاراً ولو لم يصنفي الناس فان الله نصيري وهو فاحسن الثلوب ... »

فلم اسمع الملك تعرضاً بمحدث فلورندا خاف ان يجرجع فصرخ بـ ووذكرا اسمها وحكايتها . وبظاهر الملك بالغضب ورثبه من مجلسه وصاح فـ « ويلاك ... أبهل هنا الكلام تخطيط ملك الاسنان ... » ثم التفت الى الجميع وقال لهم اذا كتم صابرین على اقوله فيها اني أخلع نفسي او هو مخلوع من سلطنته ... » قال ذلك وتشغل باصلاح منطقوه المذهبة

قال اوباس وهو لا يزال رابط الجأش « لا يأس ابداً الملك اذا انا حملت هذا التوب غير ان ذلك لا يصلك من الرحم الذي تعمدت الانفاس فيه ومن اجله سمعت توبيخ فـ سـاـكـ الحـقـ وـاهـلـ عـلـيـكـ فـأـرـدـتـ الـاتـنـامـ مـيـ ولكنـ اللهـ وـليـ التـقـةـ ... » فقاطعه رئيس الاساقفة قائلاً « ادعوك يا حضرته الميت وبرأيكم باسم الكنيسة ان تمسكت » فلم يسع اوباس غير الاذعان واستوى على الجلسة السكوت برقة والكل مطرقون وربما هم من بعض الكلام لا يسع

لله طنين . — وكان الاب مرتون في اثناء ذلك يجهل عنده في الاساقفة بمنصب ما يجدو في وجوهم فاذوقت عينه على عنان احدم اشار بمحاججه وشتمه اشاره الاستهجان وهو يوي الى او باس كأنه يقول « انظروا ما افخ هذا الرجل وما هن الجسارة التي ارتكبها في مثل هذا الموقف المقدس »

اما او باس فكان وإنما وقوف رجل بريء الساحة واسع الصدر يرسل بصره الى الاساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة ولكن يظهر من سكون جاؤه وما يقبل في وجهه من اهمية والانساط انه غير مبال بما قد يكون من عافية تلك الحاكمة لاعتقاده انه سبق لها زوراً ومتناً — على انه تذكر ما دار بينه وبين التولى قبيل ساع وما تواطأ عليه من امر الملك ونحو فرأى التهمة تصدق عليه من هذا الوجه ولكنه راجع ما صدر من اقواله في تلك الجلسة فلم يرفها ما امعن انكاره حق الملك على رودريك — وفيما هو يذكر في ذلك وقعت عينه على صورة كبيرة معلقة في بعض جدران الكنيسة تخل السيد المسيح وافتئ بين يدي ييلاطس للتحاكمة فيذكر قوله الصلب دفاعاً عن الحق فزاد استهلاكاً بعروزه

اما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه ولا رأى الجميع ساكناً خاف ان يعودوا الى البحث في ما وجوهه او باس من التهمة اليه فالغفت الى رئيس الاساقفة وقال وهو ينظر امدوه كمن لا سلطان ان يدير آراء الجميع كما يشاء « اند كنانا ما معناه وإذا رأيتم المسألة تحتاج الى نظر بعد كل ما هذا لكم من الادلة الصريمه فاني احل هذه الجلسة ونوجل البحث الى جلسة اخرى »

توقف الاب مرتون وقال بهيجته المعلومة ووجه خطابه الى رودريك « لا ينادر الى ذهن مولاي من سكوت موادهم انهم يشكون في نطق جلاله الملك او يخامر ادنى ريب من ثبوت التهمة على اخيها المتروبوليت بعد الشهادة الصريمه التي نطق بها مولاي ولم يذكرها هو بل هو ايدها بافرط منه من العبارات الصريمه التي تدل على غضبو من هؤلاء الحكومة الحاضرة ومن كان الديب فيها كأنه قال بصربيع العباره ان هذا الجميع قد خان البلاد بانخابر جلاله الملك » قال ذلك وهو يضع الكلام مضمماً ثم ينذرها من فهو كأنه ينذرها بغير اخبار على غير نظام فتتبع على التهاب والوجع والناس يقطتون اجثمانهم للاهـ يقع على عورتهم فهو ذيها

اما او باس فلما سمع قوله وما فيو من اثاره الخواطر عليه وجه خطابه الى رئيس

الاساقفة وقال « قد سمعت ما قاله الاب مرتون — ولا احسن انكم فهمتم » — وكما في بحث يتوعدون انكاري ذلك خوفاً من العقاب . كلاً . اني اشك في قانونية انتخاب هذا الملك كما قللت لكم ولو خبرت رهباً اخترت سواه — واما الداعوى التي ستدفعى من اجلها الى هنا فما هي في شيء من ذلك . . . ان رودريك هذا الذي تسمونه ملكاً انا جمعكم لها كفى وانه سي هذه المهمة لاني نصحت له ان يرجع عن فطيعة هـ بارتكابها . ولولا خوفي من تدليس هذا المكان المنسى بذكرها لكتبت النداع عنها — ولو فعلت ذلك وانصنموني لي Ashton رجم هذا الجاني بأيديكم . . . »

فضح الجميع وهاج غضب الملك وحاد ريادة التصرّح فظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يتول فانشق الاب مرتون من تلك الورطة يقولو بمحاطب كاتب الجلسة « يرى جلاله الملك ان اخانا المتروبوليت قد هرور في اقواله وخرج عن طوره الى الخطأ واذذر كاهنا لترط ما خافه من سوء العافية لم ينفع ما يقول . ولذلك فيجلالة الملك بأمر بافتتاح الجلسة حالاً وتأجيل المحاكمة الى جلسة اخرى . ولا يجوز بعد صدور هذا الامر ان ينه أحد في هذه الجلسة بغير الصلة الختامية . . . »

ونزل كلام الاب مرتون بردًا وسلامًا على رودريك ولم يمع الكاتب الا العمل بالاشارة لان للملك الحق بفتح الجلسة وافتلامها دون سواه . ولم يكتثر او ياس بذلك بعد ان قال ماقالة ولو بالطبع — ثم وقف رئيس الاساقفة قبلاً الصلة الختامية وانقضت الجلسة فخرجوا الى منازلهم الا او باس فانهم ساقوا تحت الحفظ الى خفر آخر واوصوا الخزراً ان يهدنطوا به

الفصل الثامن والثلاثون

الفونس ويعقوب

فلتركته وشانه ولنعد الى التوين وما كان من امر بعد ذهابه بامر الملك . فلقد خرج من بنزله ومعه يعقوب وسارا الى مقر المسرك في بناء كبير بضواحي طليطلة وحوالها الفرسان الذين جاءوا بامر الملك فاؤصلوه الى المسرك وعادوا

فَلَمَّا دَخَلَ الْتَوِينَ اسْتَقْبَلَهُ الْجِنْدُ بِالاحْتِرَامِ فَأَرْجَلَ وَمَشَ وَإِعْقُوبَ يَسِيرُ بَيْنَ بَدْرَيْوَةِ
وَلَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْحَذْمِ سَوَاءً وَقَدْ اسْتَغْرَبَ بِعِنْدِهِ مَنْظَرُهُ بِإِذْكُرَنَاهُ مِنْ أَهْلِهِ لِحِينَهُ وَإِنْوَابَةِ حَقِّ
وَصَلَطَ إِلَى غَرْفَةِ خَاصَّةٍ بِالنَّانِدِ الْكَوْرِ فَإِذَا هُوَ يَعْمَادُ وَاقِفًا هُنَاكَ وَيَدِهِ كِتَابٌ عَرَفَ
الْتَوِينَ مِنْ مَنْظَرِهِ الْخَارِجِيِّ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَكِ لَهُنْقٌ قَلِيلٌ لِنَرْطَنِ مَا غَاطَةَ الْكِتَابِ الْمَاضِيِّ
فَنَدَخَلَ وَلَمْ يَطْلَبْهُ حَقِّيْنَ جَلَسَ فِي ضَدِّ الْمَجْرَى فَاسْتَأْذَنَ الرَّسُولَ مِنْ يَعْقُوبَ بِالدُّخُولِ عَلَى
الْتَوِينَ فَأَسْتَأْذَنَ لَهُ فَنَالَ لِأَحَاجِةِ إِلَى دُخُولِهِ هَاتِ الْكِتَابَ مِنْهُ فَاخْتَدَهُ مِنْهُ وَجَاءَ بِهِ إِلَى
الْتَوِينَ وَهُوَ يَقُولُ لَنْ تَفَسِّرَ بِأَوْلَادِيْ . لَعْلَ فَيُوْءِي أَمْرًا بِالرَّجُوعِ إِلَى مَنْزِلِكَ
فَتَنَاهَى الْتَوِينُ عَنِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ فِنْهُ فَإِذَا هُوَ مِنَ الْمَلَكِ يَقُولُ فَيُوْءِيْ :

مِنْ رُودِرِيكِ مَلِكِ الْتَوِينِ إِلَى النَّانِدِ الْبَاسِلِ الْتَوِينِ

بِسِ الْأَمْرِ وَالْأَبْنِ وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ

أَمَا بَعْدَ فَنَدَقَ هِيقٌ وَكَتَبَ إِلَيْكَ بِالْذَهَابِ إِلَى كُونِيَّةِ . . . وَلَمْ يَعْنِ لَكَ الْمَدِينَةِ
الَّتِي تَرْزَلُ فِيهَا فَانْزَلَ مَدِينَةَ أَسْتِيجِيَّةَ (Astigia) مِنْ كُونِيَّةِ بِيَكَةِ وَأَقْمَ بِرْجَالِكَ فِي
أَحَدِ الْفَلَاعِ رِبَّا أَكْتَبَ إِلَيْكَ فِي الْجَهَةِ الَّتِي تَذَهَّبُ إِلَيْهَا — وَقَدْ أَرْسَلَتِ إِلَيْكَ مَعَ
هَذَا كِتَابًا تَدْفَعَهُ إِلَى كُونِيَّةِ بِيَكَةِ لِيَتَلَاقَكَ بِالْمَرْحَابِ وَيَدْكُ بِالْمَالِ عَدَدِ الْحَاجَةِ وَالسَّلَامِ
كَبِّ في فَصْرِ طَلِيلَةِ

فَلَمَّا فَرَغَ الْتَوِينُ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ أَمْرَ بِعَقُوبَ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنَ الرَّسُولِ بِالْكِتَابِ الْآخَرِ
فِيَاهُ وَوَدَخَلَ عَلَيْهِ وَاغْلَقَ الْبَابَ وَرَاهُ وَقَدْ لَمَّا الْكِتَابَ وَهُوَ يَنْدَسِ فِي وَجْهِهِ . فَلَمَّا
رَأَى مَا فِيهِ مِنَ الْأَنْتِيَادِ وَالْأَيْسِ أَرَادَ التَّقْبِيفَ عَنْهُ فَعَطَسَ عَطَسًا أَرْغَى طَرَازَكَ الْبَاهِ
فَاتَّهَ الْتَوِينَ وَفَنَارَهُ يَعْقُوبَ فَإِذَا هُوَ يَنْتَظِرُ إِلَيْهِ وَيَضْحِكُ وَهُزِّ رَأْسَهُ وَيَمْكُّ
ذَفَنَهُ بَأْغَلُو . فَاسْتَغْرَبَ الْتَوِينُ ذَلِكَ مِنْهُ وَكَادَ يَهْرُو لَوْمًا يَسْبِقُ إِلَى ذَهَنِهِ مَا آتَسَهُ مِنْ
احْتِرَامٍ عَمَّا أَوْيَسَ لَهُ وَاعْتَادَهُ عَلَى أَقْبَلِهِ . وَتَذَكَّرَ السَّرَّالِيُّ تَوْسِيَّةُ فِي سَرْرَوْتِهِ فَابْتَسَمَ لَهُ
وَقَالَ « مَا الَّذِي يَضْحِكُكَ يَا يَعْقُوبَ هِيَّنَا لِتَلَقَّكَ » قَالَ ذَلِكَ وَتَهَدَّ
فَيَهَدِ يَعْقُوبَ تَهَدَّأَ سِعَ لَهُ صَنِيرُ وَقَالَ لَهُ « بَلْ هِيَنَا لَكَ أَنْتَ كَيْفَ تَخْدِمُكَ الْمَعْوَدَ
عَلَى أَهْوَنِ سَبِيلِ »

فَزَوَّ الْتَوِينَ رَأْسَهُ وَقَالَ « تَبَّاً مَنْ الْمَعْوَدُ . . . دُعَى وَشَأْنِي . . . » قَالَ ذَلِكَ
وَهَهُنَّ وَهُوَ يَقُولُ « لَا يَلْقَى بِهَا الْأَسْتِنَارُ هَنَا وَخَنَّ مَا مُوْرُونَ بِالْذَهَابِ الْبَاهِلَةِ وَلَا بَدِيلٍ

قبل كل شيء من استدعا ، التواد وبالغthem الامر بالاستعداد .. فانصر الى قائد المجموعة واستناده اليه « .. »

وكان الجند الاسياني في عهد التوط موئلاً من فرق كل فرقة ألف جندي بمن قادها رئيس العسكرية (Propositus Ostis) (خمسة قائدان كل منها يرأس خمسة واسعه (Quingentenarus) وتنقسم الخمسة الى مئات اس قائد كل مائة (Centenarus) اي قائدمائة . وكل مائة تنقسم الى عدرات ام قائدتها (decanus) اي قائد العشرة () فالقائد العام يبلغ اوامر الى قائدى الخمسة وهذا يتولى ان تدير الجند فخرج بعقوب ثم عاد واخبر التونسي ان القاذفين قادمان ثم جاءوا وقد لبسوا السفر وشعرها مثل شعور سائر التوط مسترسل على اكتافها ودلائل الصحة بادية على وجهها وملامح الهم في ثيابها . فلما دخلوا على التونسي باحترام وهو يمرفأهونه خط كان ابن حياً ويجترمه من اجل ذلك . وقد سرّها تولي قيادة تلك الفرقة لما يعلمهون من سهولة اخلاقه وطيب عصبه . وكانوا من اهل الفورة على عصبية التوط لم يرضوا برودريك الا مع الجماعة فاذا خلوا تحدنا بما كان من تحول الفوذى المتصدر الروماني بعد تولي رودريك ولكنهم لم يكونوا يجرؤون على التصرّج بذلك بين يدي احد حق ولا التونسي نفسه لانه اصبح ملزم في ذلك فلما رأها التونسي تذكر انه شاهدها من قبل ولكنه استغرب تأهيلها للسفر قبل ان يصدر لها الامر بذلك فقال « ارا كما بلباس السفر .. »

الفصل التاسع والثلاثون

« وبما

فتكل احدها باسمه « وبما » وكان طوبى القامة شديد سواد العينين والشعر وقال « لقد وردت اليها الامر بذلك من جلالة الملك تعجلاً للرجل فالجند الان كانوا على أبهى السفر انتابه مهاج الى أمر من مولاي التونسي »

فـلما سمعه بدـكر اسـنة اـمـتـانـس بـو وـشـعـرـراـحةـ الـبـيـو وـقـالـ «ـ قـلـعـ منـ هـذـاـ المـصـكـرـ الـآنـ فـارـجـوـ أـنـ تـولـيـ تـدـيرـ الـجـبـدـ فـيـ قـيـامـ وـقـعـودـ إـلـىـ انـ نـيـلـعـ مـتـصـدـنـاـ فـاشـارـاـ بـاحـاـ، الرـأـسـ اـنـ «ـ مـنـعـلـ »ـ ثـمـ تـكـلمـ وـهـاـ وـكـانـتـ لـهـ جـسـارـةـ وـلـقـدـ عـلـىـ رـفـيـقـوـ وـقـالـ «ـ أـلـاـ يـتـهـنـاـ مـوـلـايـ عـنـ الجـهـةـ الـتـيـ خـنـ ذـاهـبـونـ فـيـهاـ فـالـ «ـ أـنـاـ ذـاهـبـونـ إـلـىـ اـسـيقـةـ عـلـىـ بـهـرـ السـعـيلـ فـيـ كـوـنـاتـةـ بـيـكـةـ قـلـ عـرـفـ الطـرـيقـ إـلـيـهاـ »

فـالـ اـعـرـفـهاـ جـيدـاـ فـانـ الطـارـبـقـ الـهـاـخـوـ الشـالـ وـالـغـربـ إـلـىـ مـرـبـةـ عـلـىـ بـهـرـ اـنـاسـ فـنـطـلـعـهـ وـسـيـرـ شـالـاـ شـرـقـيـاـ إـلـىـ قـرـطـلـةـ ثـمـ نـخـدـرـ شـالـاـ شـرـقـيـاـ إـلـىـ اـسـيقـةـ عـلـىـ بـهـرـ السـعـيلـ وـقـدـ عـرـفـتـ هـنـ الـمـدـيـنـةـ وـصـالـيـتـ فـيـ كـيـنـيـهـاـ وـاقـبـتـ فـيـ قـلـمـهـاـ وـعـرـبـتـ عـلـىـ جـسـرـهـاـ وـعـرـفـتـ دـيـورـهـاـ وـإـلـيـهـاـ »

فـالـ تـونـسـ «ـ بـورـكـ فـيـكـ .ـ لـنـدـ الـبـيـتـ الـأـمـرـيـكـيـ فـيـ تـدـيـرـهـنـ الـحـمـلـةـ فـيـ اـشـاءـ الـمـسـيرـ وـلـكـنـيـ اوـصـيـكـاـ باـمـرـهـهـنـيـ كـثـيرـاـ وـذـلـكـ اـنـيـ لاـ اـرـيدـ اـنـ يـمـدـيـ الـجـبـدـ فـيـ اـشـاءـ الـطـرـيقـ عـلـىـ أـحـدـ مـنـ الـنـلـاـجـوـنـ وـلـاـ يـأـخـذـلـ اـلـادـمـالـاـ اوـ زـرـعـاـ وـلـاـ يـمـوـئـاـ اـحـدـاـ فـيـ مـعـاـلـةـ .ـ فـاـذـاـ فـعـلـ اـحـدـ ذـلـكـ كـانـ جـراـوـهـ عـنـدـيـ الـجـبـدـ اوـ الـقـتـلـ وـاـذـاـ كـانـ مـنـ اـرـبـابـ الـرـتـبـ جـرـدـهـ مـنـ رـتـبـهـ وـاـمـلـاـكـوـ وـاهـنـهـ فـانـيـ اـرـيدـ اـنـ يـسـرـ هـذـاـ الـجـبـدـ بـكـلـ هـدـوـ وـسـكـنـةـ »

فـلـماـ سـعـ وـهـاـ ذـلـكـ ظـهـرـ الـاعـجـابـ فـيـ عـيـنـيـ الـبـرـانـيـنـ وـقـالـ «ـ بـورـكـ فـيـكـ وـفـيـ اـصـلـ اـنـتـ فـرـعـةـ لـنـدـ عـوـدـنـ الـمـرـحـومـ اـبـوـكـ بـلـلـ هـذـاـ الـمـدـلـ وـالـرـأـفـةـ فـلـماـ سـعـ قـوـلـهـ عـضـ عـلـىـ شـفـوـ وـاـطـرـقـ كـانـهـ يـقـولـ لـهـ «ـ لـيـسـ هـذـاـ وـقـتـ الـصـرـحـ »ـ ثـمـ اـنـمـ كـلـامـاـ فـائـلـاـ »ـ وـأـمـ الـكـيـنـةـ الـمـارـافـيـتـ هـنـ الـحـمـلـةـ اـنـ يـوـصـيـ الـجـبـدـ بـهـنـ الـوـصـاـيـاـ وـلـاـ يـخـفـ عـلـكـ اـنـ جـيـدـنـاـ اـكـثـرـ مـاـ يـمـسـيـنـ الـغـربـ مـشـأـةـ فـلـاـ تـعـبـواـ الـمـشـأـةـ بـالـمـدـيـرـ وـلـاـ تـحـلـوـمـ اـحـمـالـاـ ثـابـلـةـ — وـبـكـيـهـمـ مـاـ يـمـسـلـونـهـ مـنـ الـاـدـرـاعـ وـالـاـسـلـحـةـ مـنـ الـدـهـامـ وـالـخـرابـ (١)ـ »

فـلـماـ فـرـغـ الـتـونـسـ مـنـ كـلـامـهـ لـمـ يـزـدـ وـهـاـ عـلـىـ اـشـارـةـ الطـاعـةـ ثـمـ قـالـ «ـ أـلـاـ يـأـمـرـ مـوـلـايـ بـجـاهـيـهـ مـنـ الـاعـوـانـ وـالـمـالـيـ تـسـيـرـ فـيـ خـدـمـتـهـ الـخـصـوصـيـةـ فـارـادـ الـتـونـسـ اـنـ يـصـرـحـ لـهـ بـالـقـرـيفـ عـنـ الـمـالـيـ فـوـقـمـتـ عـيـنـهـ عـلـىـ يـعـنـوبـ فـرـأـهـ يـشـرـ الـبـيـوـ

اشارة خدية ان لا ينعمل فاتبه وقول «لا احتاج الا ان الى احد فان بي خادبي هذا وهو يدبر لي ما احتاج اليه وإذا احتجت الى سواه طلبت ..»
فخرج القائدان فرجون برفقة التونسي .اما هو فلما خلا يعتوب قال له «رأيتك شيرالي في انتهاء الكلام ..»

قال «خذت ان يسوق لسانك الى لفظ تزداد عليه وغنم بين يدي الاعداء فاخذتني بكل ما دار بينك وبين مولانا وذرستنا او باس لاري ما يكون ..» واصبح لي ان اتم ما كنت بدأته يوم من قبيل — اعلم يا مولاي انك موفق باذن الله لان الامر الذي كنت لا تستغني في الوصول اليه عن بذل الاموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه علوًّا ..»

قال «وماذا تعفي ..»

قال «اعني ان المشروع الذي اسمنته مع مولاي المتروبوليت لغير ذلك المدزو الحاكم قد اوتت الشروع فيه وتمهل عليك العمل يوم من ذاك الايام .هكذا فرقه من الجيد الا ان نخت امرك فقرها منك وحيبيها اليك ببذل المال ..» قال ذلك ونلحظ كأنه يتلذذ بطعام شهي

فقطع التونسي كلامه وقال «ومن اين لنا المال يا يعقوب .. ما اهورت ابداً الرأي فيه وما اصعب العمل يوم ..»

فوضع يعقوب كنه على صدره وحني رأسه واطبق جنبه ولمان حاله يقول «المال عدي وعلي احضاره»

—————

الفصل الاربعون

————— الخمسون —————

فذكر التونسي مثل ذلك الوعد بين يدي او باس في ذلك الصباح فنافت نسأة الى استطلاع سر هذا الرجل فقال «لند اذ كرني وعدك السابق ولا يخفى عليك اني شديد الميل الى معرفة حقيقة امرك ..»

فتتحول وجه يعقوب الى الجدب مع بعض الانفاس «وقال يا ذن لي مولاي بنا جول

ذلك الى وقت آخر . واما المال فاني سأين له سبيل الحصول عليه بعد وصولنا الى اسقاط
والامور مرهونة باوقاتها . طب ننسأ وقرعها وكن على يادن التي على قبض خلنتي وقدنارة
ظواهري لا اخلو من حسناوات نافعة . ولان لا بد لنا من الركوب لاني اسع فرع
الطابول اهناً بالسفر . . .

قال « الي » بالفرس فاركته وتول « انت امر الخدم وتدبر ما قد خذاج اليه من الاعمعنة
ونغوها واجعل انك تائب عني في كل ذلك ولا تدع احداً ياتي الي من الخدم فانا
احبجت الى شيء ففيصل في بواستانتك . . .

فخرج يعقوب واحضر فرساً من احسن افراس الحملة وعليه سرج ثمين وكان هو
بلباس القناد وقد زينة شبابه وجماله . وقبل الفروب اذن بالرجل فاقامت الحملة فربت
بطربتها قبل خروجهما من ضواحي طرابلس ثم تبع مطلعاً على طرابلس . فالذئب التونسي الى المذهبة
وهي على مرتفع ايفاً وقد بدث فيها الكبسة الكبيرة فوجه نظره الى قصر رودريك على
ضفاف الناج ولا وقعت هيبة على قصر فلورندا خلق قلبة خنوفاً سريراً وهاج بو الوجود
ونذكر ما كان من لقاوم اياماً في ذلك الصباح وما آلت اليه حالة في ذلك المساء .
ونظر الى السماء والغروب لتكلاف وتشابه شبهها بما يختلف على قليوه من حسب المقام
والشوق وخبل له ان الطبيعة تشاركة في ذلك الشعور . . . والمرء منظور على تطبيق
حياد الطبيعة على ما يوافق شعوره وتنسّرها بما يلام اعتقاداته واوهامه . ويفعل في
ان براهام مبشرة لها لا تأتي حركة الا تؤدي او شر وانها تتم ذلك عمداً بعناده
خصوصية . فانا امطرت السماء وهو مسافر توم اهنا فقل ذلك لعندها وإذا كان برجوالفيت
لزرع او نحوه قال انها تطرد خدمة الله فلا غرو اذا توم التونسي ان السماء تعيس
وتشغل غومها شعوراً بفارق حبيبي واعصب كثير الاوهام . . . هل التصديق لكل ما يطابق
احساسة من جهة حبيبه ولو كان ذلك خالقاً للنبأ ببس الطبيعة

ولم تفب الشمس حتى افللت الدنيا وتساقطت الامطار وهبت الرياح ولم يعد المدرر
يمكناً لهم . فامر التونسي في الترول هناك فصيحت المقام وفي جلتها خربة له نصوصها
حالاً وجاهه يعقوب فاستدعاء اليها ودخل هو معه . وكانت ليلة شافية قاسى فيها
التونسي من هول الوحنة والشوق مثل ما قاسى فلورندا في تلك الليلة من العذاب
والتونسي غافل عن حالمه لاعتقاده انها على موعد منه ليأتي لاغتصادها في ذلك الماء .
وقد وكل بذلك عنة او بأس

فـلـا دـنـا الـوقـتـ الـمـعـنـ لـأـنـتـادـ فـلـورـنـداـ نـفـورـهـاـ التـونـسـ خـارـجـهـ منـ قـصـرـ روـدـرـيكـ معـ اـجـلـاـ وـشـتـيـلاـ فيـ القـارـبـ الـمـنـزـلـ اوـبـاسـ وـنـوـمـ اـنـهاـ اـصـبـحـتـ فـيـ مـاـمـ هـنـاكـ رـيـاـ يـعـثـ بـهاـ الـبـوـ حـيـثـ يـكـونـ .ـ ثـمـ تـذـكـرـ بـقـةـ اـنـ اوـبـاسـ لـاـ يـعـلـمـ بـالـمـكـانـ الـذـيـ مـذـاهـبـونـ الـبـوـ فـاقـتـهـ لـلـسـبـبـ الـذـيـ مـنـ اـجـلـوـ غـيرـ الـمـلـكـ خـطـةـ مـصـرـ وـلـفـتـهـ اـلـىـ بـعـقـوبـ وـكـانـ جـالـسـ فـيـ بـعـضـ جـوـانـبـ الـخـيـبةـ وـقـدـ تـرـمـلـ بـقـاءـ كـيـفـ وـنـلـمـ وـنـجـعـ مـنـ شـفـةـ الـبـرـدـ وـالـرـاحـةـ هـمـ *ـ وـالـرـعـودـ تـنـصـفـ وـقـالـ لـاـ وـمـ يـعـاـذـرـ اـنـ يـعـلـمـ صـوـتـهـ لـمـلـوـ بـاـنـشـغـالـ الـآـذـانـ بـقـصـبـ الرـعـدـ عـنـ بـيـاعـ حـدـيـثـهاـ «ـ هـلـ عـلـمـ السـبـبـ الـذـيـ مـنـ اـجـلـوـ غـيرـ الـمـلـكـ خـطـةـ مـصـرـنـاـ »ـ .ـ .ـ .ـ فـرـقـ بـعـقـوبـ رـأـسـ وـقـالـ وـلـمـ يـعـنـيـ تـرـنـعـشـ مـنـ الـبـرـدـ «ـ اـظـنـيـ عـرـفـتـ .ـ .ـ .ـ اـشـيـاءـ اـخـرـيـ لـوـلـاـ الـبـرـدـ الشـدـيدـ لـكـتـ اـقـهـاـ عـلـيـكـ .ـ .ـ .ـ

قـالـ «ـ وـمـاـ ذـاـ عـرـفـتـ .ـ .ـ .ـ قـلـ لـيـ وـاـذـاـ كـتـ شـكـوـ الـبـرـدـ الـبـكـ بـنـدـحـ مـنـ الـخـرـ فـاـشـرـهـ قـيـدـشـكـ .ـ .ـ .ـ »ـ قـالـ ذـلـكـ وـلـاشـارـهـ خـرـجـ كـانـ فـيـ الـخـيـبةـ وـبـعـقـوبـ بـعـرـقـةـ ثـمـ فـالـ «ـ وـاعـلـيـ قـدـحـاـ فـاـشـرـهـ اـنـاـ فـانـ مـلـلـ هـذـاـ اللـيلـ لـاـ يـذـهـبـ وـحـشـتـ وـبـرـدـ الـاـ »ـ الـخـرـ .ـ .ـ .ـ

فـنـشـدـدـ بـعـقـوبـ وـوـقـفـ وـإـسـانـهـ تـكـلـكـ وـبـكـادـ بـسـعـ الـتـونـ صـوـتهاـ .ـ وـشـيـ حقـ اـمـخـرـ الـوعـاـ .ـ وـصـبـ مـنـ الـخـرـ فـيـ قـدـحـ مـنـ النـفـةـ كـانـ هـنـاكـ وـدـقـمـهـ الـتـونـ فـشـرـهـ وـتـنـاـولـ قـدـحـاـ آـخـرـ صـبـ »ـ فـيـ لـنـفـوـ وـشـرـبـ لـمـ صـبـ »ـ قـدـحـاـ آـخـرـ لـاـ الـتـونـ وـأـخـرـ لـنـفـوـ حقـ اـذـاـ دـبـتـ الـخـرـ فـيـ عـرـوـقـهـ فـاـذـهـبـتـ الـأـرـنـاعـشـ مـلـاـ النـدـحـ وـتـنـاـولـهـ وـوـقـفـ يـانـ يـدـيـ الـتـونـ وـرـفـعـ يـاهـ وـالـنـدـحـ فـهـاـ وـهـوـ يـنـظـرـ مـاـحـوـلـهـ كـاتـاـ يـعـاـذـرـ اـنـ بـرـاهـ أـحـدـ وـقـالـ «ـ اـشـرـبـ هـنـ الـكـاسـ تـذـكـارـاـ لـلـسـرـ الـذـيـ هـسـاـ وـرـجـوـ اـنـ يـفـجـعـ سـعـبـنـاـ فـيـوـ .ـ .ـ .ـ وـتـذـكـارـاـ لـلـامـيـةـ الـتـيـ فـيـ خـاطـرـ مـوـلـاـيـ الـتـونـ وـيـظـنـ بـعـقـوبـ غـامـلـاـ عـهـاـ .ـ وـإـنـ كـانـ لـاـ بـدـ لـهـ مـنـ اـنـ يـكـاشـفـ بـرـهـاـ .ـ اـذـ لـاـ غـنـيـ لـهـ عـنـ خـدـمـهـ فـيـ الـمـصـولـ عـلـيـهـ .ـ .ـ .ـ »ـ قـالـ ذـلـكـ وـشـرـبـ وـهـوـ بـيـتـمـ وـالـتـونـ يـنـظـرـ الـبـوـ وـقـدـ اـسـتـغـرـبـ تـنـيـصـةـ بـالـسـرـ الـآـخـرـ وـمـاـ هـوـ الـاـ سـرـ حـيـوـ فـلـورـنـداـ فـارـادـ اـنـ يـخـنـقـ هـلـةـ فـنـالـ «ـ وـإـيـ اـمـيـةـ تـعـيـ يـاـ بـعـقـوبـ .ـ .ـ .ـ

فـخـلـكـ بـعـقـوبـ وـقـالـ «ـ لـنـ لـعـبـ »ـ الـخـرـ فـيـ رـأـيـ فـاعـذـرـيـ اـذـ حـسـرـتـ جـمـاـبـ الـهـيـبـ وـنـظـلـتـ بـالـوـاقـعـ .ـ .ـ .ـ الـامـيـةـ يـاـ مـوـلـاـيـ فـيـ قـصـرـ روـدـرـيكـ وـهـيـ الـتـيـ جـعـلـتـ ذـلـكـ الـظـالـمـ اـنـ يـعـثـ بـكـ فـيـ هـكـ الـمـهـمـ وـلـكـ لـاـ بـدـ مـنـ الـاـتـقـامـ وـالـرـجـوـ بـالـصـرـ الـمـيـمـ .ـ .ـ .ـ قـالـ ذـلـكـ وـخـلـكـ وـهـوـ يـحـسـ لـيـهـ مـنـ آـنـارـ الـخـرـ وـكـانـ قـدـ ثـلـوثـ بـنـطـ لـسـافـطـ عـلـيـهـ

وهو يشرب التدرج الاخير . ثم خطا خطوة الى التويس وانهى نحن » وهو يقول « وقد توم رو دريك انه خدم غرفة بارسالنا الى استعنة وفاته انه يخدم غرضاً اذ لا بدّ لانا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذي نحن عازمون عليه »

فاسمعرب التويس قوله وضير من الاستعنة والالغاز وقل له « لند اصبرني يا يعقوب من اشاراتك والغازك لماذا لا نصرح في بما في نفسك ؟ »

فانقلب وجه يعقوب الى الانفاس وقال « قلت لمولاي ان موعدنا في ذلك قریب ان شاء الله وارجو أن لا يلح على في الامر فان الامتحان مفتر .. اصبر يا مولاي وسا طلعمك على كل شيء فربما واعلم ان رو دريك هو الذي عمل كشف هنا السر بارسالنا الى هذه المدينة

فندم التويس على الماحو وضير واصبح ليعقوب عنده منزلة رفيعة لما آنسه فيه من العزة والمحبة فاراد ان يصرف عنه ذلك الانفاس فقال له « ما رأيك في المهمة التي اخذناها رو دريك في قضائنا

قال « أظمها ثورة اشتاقت في بعض المدن من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا اخفي عن مولاي بعد ما تم اقداننا عليه ان أهل هذه البلاد في غاية الفتن من استبداد حكامهم وكانتوا يشكرون ضغط الرومان عليهم فلما جاءهم القوط توافدوا فيهم الجماة من تبر الرومان فلما هم تحت الدورين معًا وقد أصبعوا أرقاً . لا خزينة لهم ولا منزلة ولا عزارة ولا مال . فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثرة زمام وهياجم ^(١) وقد سهل هذا الامر عليهم خطأً ارتکبه ملوك القوط المتأخرین مع جماعة اليهود فاكروهم على نبذ ديانهم واعتداق الصرافية فاصبح اليهود عوناً عليهم

قطع التويس كلامه قائلاً « ولكن اليهود قد انقرضوا من اسبابنا الآن ولم يبق فيها يهودي كلاماً يهتف عليك

قال « أعلم ذلك يا مولاي واعلم أيضاً ان ملوك القوط قبل المرحوم والدك شددوا في اضطهاد اليهود وخرقون بين النذل أو النصرانية أو المهاجر فهاجر بعضهم وتتصدر اليهافون فاختفت اليهودية ولكنها لم تندثر . وهي امها اندثرت فاليهود لا يزالون ثم الفت عياء تو لفأً شديداً وهو يقول « أرانا خرجنا عن الموضوع قبل الاوان وخلاصة الامر

ان المهمة التي تمحن ذاهبون فيها بكن من امرها فاني شافن اخادها بدون ان
تخبره دينما او نرمي نيلاً ... طلب نسماً واصير حتى فضل انتظف فينكشف لك كل
شيء ... ثم تحوال الى مجلس الاول وهو يقول « وقد آن وقت الرقاد ... الا
يرغب مولاي في ذلك؟ »

فابعدرة انوس قاتلاً « وقبل الذهاب الى النوم استدعا كأساً آخر واشرب مثلياً
وهي خاتمة الحديث »
فصبع له قدحًا وشرب مثلاً وتوسدا في التوش بعد نصفه بالاطلاع على أسرار كثيرة
بعد وصوله الى استيقنة

الفصل الخامس والاربعون

الفلاحون

ناما تلك الليلة توما عيناً على اثر ما عاناه من النصب رغم ما ت safط من الصداع
وهبّ من الرياح . وافق يعنوب باكراً وخرج لاعداد ما يحتاج اليه التوش ولم تفرق
الشمس حتى كانوا على اهبة الرحيل فتوقفوا المخيم وركبوا على نظامهم والتوش ويعنوب
سأرمان على انفراد وهو صائمان وخصوصاً التوش فند كان يعني وبذلك الى طلبه
وكانت لا يزال بعضها ظاهراً وبعد هنيبة عبروا الجسر فوق نهر الناج وكان عمورم آخر
عهد التوش يرأى تلك المدينة لاتها توارث وراء الليل

سارت الحملة بازقلاها وإجهاها جوياً غرياً وقد صحا فهو واشرقت الشمس
بارسلت أشعتها على المسارتين والقباض والأودية والقلالي والتوش يعجب لما يقع بصرن
عليه من القباع الخصبة وفيها اصناف الاشجار والمارس ولكن استغرب خلو المزارع من
الناس ولم يكن يتوقع ان يرى فيها غير العبيد او من جرى مجرماً من الفلاحون والحرائر
وكان الاشراف والصحاب الشباع يعاملونهم معاملة الارقاء وهم يقيمون في المدن ويندر
من يقيم منهم في المدارس . وكانت اوربا في ذلك العصر مؤلة من المدن والضياع .
فالحدث مقر الحكم والاشراف اما الضياع فكانت عبارة عن المدارس يقيم فيها

الملائكة ويعملون في الأرض — وهم والإرض وما يسرح ففيها من الدواب والماشية ملك
للإشراف^(١)

وكان التونسي قلباً ينبع من المدن ولم يكن بهذه الالتفات الم الحال أو تلك الملائكة
فاما بعد ما دار بهه وبين اوبياس بشأن الملك وما عولج عليه من تحرير اولئك
الارقام والاعقاد عليهم في تحرير الملكة اصبح هذه الالتفات الى البلاد واهلاها . فاذ ام
يرون في ارض لا يظهر لها لها عناية في غرسها واستغفارها وقلما شاهدوا فيها أحداً من
الناس فلما تذكر ذلك المنظر لدرب الفت الى يعقوب وكان راكباً جوادها وراء جواد
التونس فلما رأى التونسي يلتفت الى ساق جواده حتى حاذاه ونظر اليه نظره مستعين . فقال
التونس بصوت منخفض « كثت أتوقع أن أرى المزارع مأهولة بالناس وقد قطعنا
مسافة طويلة في ارض عامة ولم اشاهد احداً » .

قال « ان الناس كثيرون ولكنكم تعودوا اذا رأيتم جنداً ماراً بهم ان يختلقوا من
وجوههم فراراً مما يكتلونهم من الاعمال الشاقة وما قد يطالعونه من المؤونة وغلوها .
ولم يخطر لهم ان يموروا بهم مثل سرير هذا لا ينبعضون لاحد منهم في شيء . والجند
اسره هنا اهدوا الآباء على امر مولاي » .

فتأثير التونسي لذلك القول وثقل له الخطأ الذي ترتكيه الحكومات الطالمة في
تكليف ربها فوق طاقتهم فنعود الخسارة عليها وعليهم
نفس التونسي وحملنا في الطريق بضعة ايام قطعوا في اثنائها سهولاً خصبة وجبالاً
فيها كثير من مناجم النفة والذهب وأودية يصول فيها الماء فرسقى القباض والبساتين
وارض الاندلس من احسن البلاد خصباً وعمراًانا ولما تحتاج الى من يعتمدتها بالغرس
ويظللها بالعدل ف dilation عاً كان فيه من المدن العاجمة . وكان اول مدينة كبرى مروا بها
من يدة قطعوا عبر اناس وساروا بضعة ايام اخرى الى فرطبة فعبروا ببرها ومارقا
الي استيق



الفصل الثاني والأربعون

استبة

وكانت استبة مدينة آهلة على الفضة اليسرى لم ينفخ حوطا سور مدين عليه الإبراج من صنع الرومان . ولا بد للقادم إليها من قرطبة أن يعبر على جسر فوق ذلك التهير فلما دنوا من المدينة في الشعيب يمعن التوين رسول بكتاب رودريك إلى حاكمها فعاد الرسول وعنه نفر من جند المدينة ويد كيروم أمر بتسليم القلعة الكبرى المشرفة على التهير من بينه والهر ينهم وبين المدينة . وفي قلعة كبيرة أنشأ بهبته لاقامة الجندي . فاحتلواها وسار التوين إلى غرفة فيها هي أحسن غرفها وأواسعها وما نافتها مطلة على التهير والمدينة وعلى ما ورائها وبين يديها من اليسارات والملاجع

صعد التوين إلى غرفته وكان يعنوب قد سقط إليها وأعاده له ما قد يحتاج إليه من لوازم الراحة وأمر بعض الخدم فاعذرنا طعاماً مائدة هو الذي فوضوه على مائدة في تلك الغرفة ودعاه إليها

وكان التوين منذ صعوده إلى الغرفة قد جلس إلى النافذة وخلال بدنمه خذل كر حبيبه وعنة ومحبته إلى تلك المدينة رغم ارادته وليس هناك ما يدعو إلى قدوته إلا سي رودريك في أيامه عن حبيبه . ثم نصور الفهد من ابعاده عنها وما قد يكون في عزم رودريك بشأن فلورندا فأشعر بذاته وأحسن كان ماه غاليا يتسلكب هذه . ثم تذكر الاحتياطات التي اتخذها لإنقاذ فلورندا من ذلك التصر فسكن روعة وفجأة هو في ذلك الموضع مع وطه اندام في الغرفة فالافتت فرأى يعنوب وإنقاذه وبدأ متناظرهان على صدره كأنه يسمع الصلاة . فلما وقع نظره عليه هرول يعنوب نحوه وهو يتسم ويقول « ألا يأمر مولاي بتناول الغداء »

فلم يغادر التوين عن الأنسام وقد اندرج صدره فوقه وأسرع إلى المائدة ولم يتكلم وبعنوب سائر في أئمه مجلس التوين وظل يعنوب وإنقاذه ووقف الخدم فأشار إليه التوين أن مجلس فابي وأعيتلر . فقال التوين « لم بعد يلقي في إن أعدك خادماً بعد ما علمته من علو هنلك وأسهلاً لك في نصرة الحق ... »

قال يعقوب « العنوايا مولاي المك لم تعلم على شيئاً بعد وما هي الا أموال سمعها فإذا رأيت معي عملاً كبيراً ورأيت بعد ذلك التي استحق مجالستك أو من اكتنك فعلت ... »

قال كر التونس وعند كشف السر بعد وصوله استجدة قلم يدها أن يذكر بذلك « لا يكون الجواب تسويناً فتجد حتى يكاشفه هو من ثلاثة نسو ولكنه قال له « المك الخيار يا يعقوب في ما تتعل .. ثم التي فهمت من بعض أقوالك المك حالم بالدورندا وحديها ... »

فشار يعقوب بالخداء رأى ان « نعم »

قال التونس « فارأيك بذاها وشانها وهي لا تعلم متمنا ولا عي يعلمه الا ترى ان تبعث اليهم بالخبر ليقدموا اليها وخف هنا بعيدين عن ذلك الطاغية ... »

قال « لا تقل بعيدين ... انظن رودريك أبعدك عن قصر وإغسل أمرك ... لا تعلم ان معظم رجال هذا الجيد عيون عليك برافقون حر كانك لعلم بغير بون باذيعك الى البلاط الملكي — وإذا هرمت الدولة وأخذت شوشهما كثرا فيها الجوايس وامددت اصحاب الوشاية وقصدت البوابات وأصبح الاخ عيناً على أخيه والاب على أبوه — يساعدكم على ذلك انها الملك في الترف وإنفصاله و عن سياسة رعيته مع ما يحول من اهل القليل يعني و عن المنظرين — فلا تلق بأحد ولا تأمن أحداً لا اذا رأيت له بیناتك منتفعة او كانت مصلحتك ومصلحتنا سواه ... حتى يعقوب هذا ... » قال ذلك وأشار بيمابتو الى صدره

فحب التونس لاسمعه ولم يكن قد اخبر شيئاً من شؤون الناس ولا اطلع على فضاد الطبيعة الانسانية فسكت وعاد الى الاكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب لا يزال واقفاً بين يديه

فلا يرضي التونس عن المائدة قال له يعقوب استرح يا مولاي الآآن طاذن لي بالنزول الى المدينة ثم أعود اليك قبل الفروب وفي اللند ننزل اليها معما لبرى أسماؤها وساحتها ... »

فأنبه التونس بذاته الى ان غداً يوم الاحد قال « واسمع النداس أيضاً ... »

قال يعقوب « لمحة يا سيدى ... وسبعين في الامر غداً ... هل يصح لي مولاي بالانصراف ... »

قال « انصرف وقل أصرافك ابعت اليه الفائد وبها لاختطافه فيامر الجيد ... »
 قال « سمعاً وطاعة » وخرج
 وعاد التونسي الى مجلسه بجانب النافع وهو لا ينتبه الى التذكرة
 يلتزمونها او يواس ورود ربيك حتى انتهى الى افقال يعنوب فايجهل نفسي للدنو موعد
 المكاشفة . ثم سمع وقع اقدام بالباب فتحول للنافع وبها فدخل الى القبة ووجهة مبسط
 اشارته الى ما يعلمه من الاحترام للتونس والقرفة عليه فرد التونسي الخيبة وسألة عن حال
 الجيد فقال « ائهم في نظام وسلام بدءون لقائك الباس بالرغم والظاهر »

قال « هل سمعت شيئاً عن احوال الاهالي هنا »
 قال « سمعنا ائهم مستكثرون لا يبدون حراكاً ولعلم اركينا الى السكينة على اثر
 ساعهم بقدومنا ... »
 قال « ارجو في كل حال ان تهربوا على هذه الاحوال وتواصلوا استغلال الاخبار
 ولي في فطلكم ودرائكم ما يضمن الراحة »
 ففهم وبها من غنة كلام التونسي وأشارتو انه فرغ ما يريد فهمه وتحول من القرفة
 والاخلاقيات التونسيين بغضون بعض قليل ثيابه وعوّل على النباء بتيبة ذلك اليوم في
 القرفة للاستراحة من متاعب السفر

الفصل الثالث والأربعون

— ٢٠ — يوم الاحد

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعنوب استبطأه التونسي وانشغل خاطره
 عليه وجلس الى النافع المطلة على البحر — ولا بد من بدرج من المدينة الى النافع من
 المزور على هذا البحر . ولم تمض برهة حتى رأى يعنوب فادياً وقد تأبط صرفة قطة التونسي
 قد جاءه بشيء من فكهة المدينة فصبر حتى وصل الى النافع واستيقظ دخولة عليه .
 فما بطل يعنوب ثم سمع خطواته وبعد قليل دخل وحي وبداء فارغنان

فقال التونسي « ما الذي حللة الينا من المدينة »

قال « لم أحمل منها شيئاً لانا ذاهبون اليها غداً »

قال «رأيك مثاً بطاً شيئاً وما هو؟»

فخشك يعنوب وقال «ذلك ليس شيئاً ...»

فاشيدت رغبة التونس في استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال «هل فيه ما يمنع اطلاقك عليه؟»

قال «إلى الصباح يا مولاي ولا بد من اطلاقك عليه»

وفي الصباح التالي هض التونس وفو شوق شديد الى معرفة ما في الصرة ولم يكن بهم من النراش حتى جاءه يعنوب بالجلباب ففصل وجهه وسرح شعره وليس ثوابها استعداداً للنزول الى المدينة وهو يظاهر بالصبر عن استطلاع ما في الصرة حتى يأتيها بها يعقوب من ثلاثة نسوة فلما فرغ التونس من كل شيء ولم يبق الا الخروج دخل يعقوب والصرة في بيته وافتدى سب الغرفة وراءه فوقف التونس وتناول مشاهدة ما فيها ففتحها يعنوب واستخرج منها شيئاً من لبيح اسود غواصية الكهنة وإذا ها ثوابها اسودان كل منها جلباب طوبل يغطي الرجل الى أسفل الثدي فتناول يعنوب احدى وبسطة وقدمه الى التونس وهو يقول «البس هذا الجلباب يا مولاي» فوضعه التونس على كتفيه والنف يرتفع كل اثوابه وليس يعنوب الجلباب الآخر والنف يوم مد بيته الى طرق ذلك الجلباب من فنا العنق فاستخرج منه شيئاً كالكتيب معلقاً من بعض جوانبه بالعلق من الوراء وارسل ما يبقى منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس والوجه جوهماً وفي غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعيدين وثقب لللمفاصي صبح يعنوب شيئاً اسود وقدم الى التونس فاصحرج الكتب من فنا عقوبة الدهمة اياده حتى صارت ملة وكان يعنوب يفعل ذلك والتونس صابر لوري ثباته هذه العملية فلما فرغ يعنوب من اللباس قال «هذا الذي أتيتك به من استحقه فائزعة الآن الى حين الحاجة» فاستغرب التونس عمله هذا وقال «ومتي خحتاج اليه»

قال «قرباً ان شاء الله .. لا تكن ليوجماً» قال ذلك وزرع جلبابه بالجلباب الا آخر عن التونس وطوى كلّاً منها على حدة وحمل احدهما تحت دراعه من جهة خضر وارضي الدراعة عليه حتى اختفى تحتها واتى بالجلباب الآخر «طلاه» وطلب الى التونس ان يكتبه تحت دراعه فتعلّم وهو لا يفهم الغرض من ذلك ثم قال يعنوب «علم بما الى الكتبة ..»

خرج يعقوب والتونس من القاعة وليها في الباب التينا يوما فوقف للقمة فقال التونسي « اني ذاهب الى الكيسة فاحظ ما عندك .. » فأشار يوما برأسه ويدعوه بالجمع والطاعة

مشي التونسي ويعتوب بتبعة وليس معه من الخدم والاعوان سواه حتى مرأى على المسرور دخالا باب المدينة وهو لا يتكلان لأن يعتوب لا يقدم على الكلام الا جواباً على خطاب جريماً على عادتهم في معاملة الملك . وكان التونسي غارقاً في الملاجئ لا ينتبه لوجوده لما اجذب خاطره من أمر قلورندا ورودريك وحدث يعقوب بذلك اللوب الاسود . ولم يكن من ذلك السابت حتى دخل الاسواق والناس يتساقرون فيها نحو الكيسة . وبعد هذه افضى بها المسرور الى ساحة كبيرة في وسط المدينة هي ملاقى الناس كيما كانت جهة مسيروم . ولم يكن التونسي يعرف الطريق الى الكيسة وإنما كان يتفاني خطوات يعقوب او اشاراته . وبعد أن فطعا تلك الساحة أطللا على باب فخيم تراجحت عنده الأقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال « هنا باب الشارع الاعظم وهذه هي الكيسة » وأشار به الى باب كبير يحيط به ذلك . ففجولاً نحوه دخلا مثل سائر الداخرين والناس لا يملعون من هو التونسي ولكنهم يهونون من استعمال شمعة وتوع لياموا الله من الاشراف والصحاب المذاهب

ففيها فروض الصلاة في تلك الكيسة وهو الا يزال صائمين . فلما انقضت الصلاة وخرج الناس خرجا والتونس لا يدرى الى أين يذهب فناخر حتى يعتوب بتبعة وما زلا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الأخرى . فاستغرب التونسي ذلك ولم يغادر عن الاستئتمام فالتفت الى يعقوب وقال له « الى أين نحن ذاهبان في هذه البرية » قال « انتا ذاهبا الى هذه الا كبة » وأشار الى تل فريب لا شيء من العماره فهو . وما لدنا أن وصلنا اليه حتى صعدنا الى قبب التونسي لا يفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب « انظر يا مولاي الى اصبهة بين يدينا .. وانظر الى سورها فانك ترى على بعض هذا السور برجاً عالياً .. »

وكان التونسي يرى ذلك البرج جيداً لأنها على مقربة من المدينة فقال « نعم » قال يعقوب « فإذا جئت هذا المكان في الليل ولا تخطب هذا البرج لرؤذه فوق السور وليس على السور برج سواه .. احظ ذلك .. والآن اتيهي .. » قال ذلك بال inadvert عن الليل الى الجهة الأخرى فإذا هو هناك يكتوف مثير وقف ياما و التونسي

إلى جانبو فقال له «رأيت هذا الكهف ...»

قال التونسي «نعم رأيته»

قال «فلنرجع إلى المدينة نتفقى ثانية التهار ثم نعود إلى هنا ...»

الفصل الرابع والأربعون

الدرس والسرداب

وكان التونسي يتحقق الأطلاع على شيء من السرقة فلم يزدد إلا حيرة واستغراباً واستحال الانتظار إلى المساء فقال «وأين تتفقى هذا التهار فانه طويل عدي» قال «سأجعله قصيراً جداً ...» ومشى فتشي التونسي في اتجاه حتى دخلوا المدينة والتونس ينظر إلى البرج وبالأملة . وما زالا سائرين في الأسواق حتى انهميا إلى درب شقيق اتصاله إلى باب صغير فقال يعقوب «انتظرني يا مولاي هنا ربيأ أعود» ودخل ثم عاد إلى أشار البو ودخل وعلم ما رأه من الأدوات المتزلية أن البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه أحداً . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيوت والتونس معاً وقد ملأ الانتظار وكاد الحق يخربجه عن جادة الصبر

أما يعقوب فإنه أقبل بباب المخرج ثم أجلس التونسي على مقاط وجنا إلى جانب وقال «سأتواعيك يا مولاي الناظراً غريبة لا بدّ لك من حنظها ...»

قال «ولماذا ...»

قال «إن ما مستعملة الآن من اللفاظ والإشارات إنما هو من تناوح السر وطراف العمل ...»

فاصفي التونسي وهو وقال «هات ما تريده ...»

قال : قل «شالوم عليكم» فقل لها التونسي ولسانه يتصرّ بالعربي وإنما على المخصوص بكرّها يعقوب عليه حتى حنظها ثم قال له قل «اوهل موعد» فقل لها وكرّها حتى تعلّمها . ثم هرّض يعقوب وأسكن التونسي به و قال له «قف يا مولاي» فوق فحطا يعقوب أباًه بفتح خطوات على شرق غير ما لوف بين الناس وقال «اخطف يا سيدتي مثل هك المخطولة» ففعل وكرّها حتى أتتها . ثم علمه إشارات بغيرها يدري أو أصالة

وغير ذلك والتونس كالبيغا، يعلم الانفاظ وينطو المخطوات ويجري الاشارات وهو لا يفهم لها معنى

قضيا بقية اليوم في نحو ذلك فلما غربت الشمس خرجا والتونس لا يزداد إلا استغراماً وقد نسي كل مشاغلنا بنالورندا وارباس في اثناء ذلك الاستغراب . وما زال حتى خرجا من باب المدينة وكانت ليلة صافية لكنها شديدة البرد . فصبرا على بردها حتى بلغا الى الاكمة وصعدا اليها وانتهيا الى سور ثم عرسا في ما حوطا فلم يجدوا أحداً لان الناس ياً وون في الليل الى منازلهم داخل السور . فنزل يعقوب نحو الكهف والتونس ينبعه حتى وقنا بباب ولم يريا داخله غير الظلة المذهبة . فدخل يعقوب وبث ييد التونس فشيء به يضع خطوطات والتونس يتلمس ويتحقق كأنه يهلي على الشوك وها صائمان . ثم وقف يعقوب وقال للتونس « أخرج جلبابك » فأخرجها وساعده يعقوب على لبسه . فلما ايس الجبلان اصحابها سواداً في سواد ومشيا خطوطات اخرى ويعقوب ينور التونس ثم وقف يعقوب بذاته فشعر التونس بصدمة وقوته تختلف أن يكون عليهما بأس من ذلك . ثم أحسن ان يعقوب الخى نحو الارض وما لبث أن سمع خرشة كأن يعقوب يجت ما ناملو في الارض ثم ترك يعقوب بد التونس فظل التونس واقفاً وقف الصنم لا يدرى كيف يتجه لاشتداد الظلام

وكان يعقوب قد حل بـ بد التونس لتفتح يداه لرفع سحر ثليل . فمضت بعض دقائق والتونس وافغ لا يهجره ثم سمع صوت اندلاع الحبر وأحسن بشيم بارد خرج من مقلعه وإذا يعقوب يقول له بصوت مختلف « اتعني يا مولاي في هك البوحة على ميل » ونزل ونبع التونس وزلا سبع درجات فانهيا الى سرداد يسع الانسان وانهدا فندقاً ويعقوب يقود التونس وهو بـ لمسان . وشعر التونس كأنها يسوان في دائرة ثم سارا في خط مستقيم مع اخدار خفيف والظلام ينكأ . وبعد هنمية وقف يعقوب وقال لـ لـ التونس « امكك هذا يا مولاي ولا تغير مكانك ربنا أعود إليك » وتركه وهي لا يسمع خطواته وقع « فأحسن » التونس بوحده غريبة وغضي على غبار يعقوب دقائق حسها التونس ساعات حتى مل « الانتظار وحدة نسمة أن ينطوا في الارض ولكن تذكر وصيحتها اياه بالبقاء هناك فوقت ولكن الانسان رغاب في استطلاع للحياة ولو عرض بنسو للخطر على انه نسي الجهة التي كانا سائرين فيها ومهلاً بينه الى ما حوله فلم تلمس شيئاً فتوم انه في خلاء واسع . وفيما هو في هذا الارتفاع آنس نوراً خفيناً عن بعد ورأى ذلك التور

يقترب منه حتى ترين حاملة فاذا هو رجل يجلباب اسود مثل جلبابه نظرة يعقوب فناده
يا سو فلم يسمع ردًا فحسب سكونة استرًا ثم رأى وراء ذلك الدب شجاع آخر في مثل لباسه
وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب فلم التونس انه اقترب من المكان المنصود
ولم يك يذكر بالامر حتى اسرع يعقوب اليه وأمسك به فنظر التونس في وجهه
على نور المصباح فرأى لحيته قد ازدادت اعرضاً وقدارة وازداد وجهه غرابة بما تولاه
من الاضطراب فخاف التونس أن يكون عليها يأس في ذلك المكان . ولكن سلم قيادة
الي يعقوب فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يختار
التونس ما بين يديه . فنظر في الارض فرأى فيها حفرًا جمة يحيى المدشى السنوط فيها
حق على الور تكيف في الفلام . وأدرك السبب الذي حمل يعقوب على استخراج ذلك
الدور . فحيى مدشى المدشى والثاني في ضع دقائق ثم اعطاهما المصباح وعاد الفلام كما كان
فصالح التونس « لا » بغير انتقام فضخته يعقوب على يده أن يشك ويسأله بأذنه « وصلنا »

الفصل الخامس والأربعون

الجلسة الخامسة

وكان التونس قد خافت أنفاسه من الفناء المسلط على وجهه فرقعة وتنفس
الصعداء ثم أرضاه فإذا يعقوب قد وقف وهى في اذنه أن ينفل مثيل فعلوه بعد انتقام
الباب وبهرا رأى فلا يختلف . ثم فرع بما قرعاً متواياً سبع مرات على اسلوب خاص
ولست برهه ثم طرفة ثانية ثلاثة مرات بشق آخر فانفتح الباب عن دهليز قصير
 فهو نور ضعيف والكل من جاهي الباب رجل ينزل جلبابها وبين سيف مسلول
والسينان متبايناً كالتوس فوق عدبة الباب . فاجعل التونس ونظامه ضع يعقوب
قول « شلوم عليهم » فناها هو أبهأ ودخلوا والسيافان لا يضرّ كان كأنها صفار
فحيى يعقوب في ذلك الدهليز المديدة الخاصة الذي عملها لأن التونس في ذلك النهار فشي
التونس شيئاً وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه حتى وصل إلى باب مغلق فرقعة بشق
خاص خمس قرعات فانفتح الباب وانطلاع النور بما فاجعل التونس ولكنه تذكر

ووصية يعنوب فثبتت جنانه وسع صوًّا بخطبة بلسان لم يفهمه وسع يعنوب بتول له «أوهول موعد» فذلتها هو أيضًا ومدتها في تلك الفطفة والموس يحسب نفسه صاعدا عن سلم ثم انتفع لها باب آخر وحال انتفاحه أحىن التوبيه ببابه ذاته خارج منه تحالفة رائحة الانفاس فشر بالذفة ونبي ما كان يشعر به من البرد في السرير ودخلوا الياب فاشترقا منها على قاعة كبيرة في وسطها شبه مائة عليها سراج مفتوح، وبجانب درج كبير وحول الجدران متعدد عليها أثبات سود بهل جلبابه وجدهم منتفع بهل نقاده وأمام كل منهم سيف مسلول وفرزنه لمع بنور السراج الفسيف . فارتعب لذلك المنظر له كل وظن نسمة في حلم مزعج إذ لم يخطر له أن يرى مثل ذلك المظفر في حياته ولا الدخول مثل هذه الدخلة

على أنه افتدى إلى جابه فإذا يعنوب قد متن بخطوات كان قد عمله أيامها . فشيء بذلك حول المائة والسراج مررتهن وقبلها الدرج وهو عباره عن لذافتة غليظة من جلد . ثم مدتها إلى كربيلين في صدر القاعة فاضي بينهما فتحلا علىها وأمامها سيدتان مسلولان

فافتدى التوبيه إلى ما حوله فلم ير إلا أشباحاً سوداء، بشكل واحد وقباءة واحدة وندم طويلاً على تلك الصورة عذاته إن يكون عليه خطفهم تذكر ثناه يعنوب فاطمان الله ولبس ساكنًا بالمحبب سكوت برقة لم يهض أحد الحصور عن كربيله وتقدم إلى المائة وتناول الدرج وفتخه بين يدي المصباح فرأى التوبيه على كتباه لا يفهمها . ولما أخذ الرجل بالزيارة وقف الجميع والتلوبيه في جماليهم حتى إذا أتى قراءته قبل الدرج ورجع إلى مكانه وجلس في مجلس الآفون لا ينطق أحد بكلمة

ثم تكلم الرجل بذلك اللسان كلامًا ملوك بلا أجياله عليه بعض الحضور ثم تكلم يعقوب باللسان النومي قائلاً «يسمح حضره الرئيس بعقد جلسة خصوصية بمفردها هو ومن شاه المدولة بامرِه ..»

فوقف الرجل إلا أول وبيك سيف صغير بإشارته وأشاره خصوصية فوق الجميع ثم انفرد منهم ثلاثة وقابوا بازائهم وتقديم اعنوب والتوبيه حتى وفقاً معهم ثم تحول الرئيس إلى باب وراءه ففتحه ودخل وتنعم الآفون إلى دهليز مظلم انتهوا منه إلى باب فتحه بين ودخل إلى حجرة مظلمة ووقف بيدهما وتكلم بحسامه من بين الجماعة رجل بشعة مهدبة مرتکبة في طلاق من البرونز فتناولها من فرج الرجل وأغفل الياب وراءه . فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع في بعض حواري المكان

الفصل السادس والأربعون

كشف السر

ونظر التونسي في ذلك المكان فاذا هو تجنة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها اسود وفي ارضها صندوق كالبابوت الكبير فوقه درج صغير وحول البابوت بساط جلسوا على بابو البابوت في وعلهم فنادير التونسي من ذلك المفتر المرهف وخفق قلبا طول ما شاهد من الغرائب في تلك الليلة وقد نفذ صبره لمشاهدة الشياخ سود لا يرى لهم وجها ولا يدرى من هم فلما جلسوا تكلم بعضهم بالتوطدية وقال « هل يظن الرئيس ان الطعام قد نفخ ... »

قال « أنت أدرى هنا بفتحوا لأنك موقد نار »
فنال بعنوب « ارجوان يكون قد نفخ ولكنك بحتاج الى ادم كبير لان الطعام لا ادم لا يبو كل ... »

قال « الادم كبير ومنه في هذا الصندوق ما يطأطئ يو طعام العالم باسره فضلا عن امثاله ما يجعل الى المطبخ عبد الحاجة ... »

فلم يفهم التونسي مغزى ذلك الرمز ولم يقالك عن التكلم فنال « اما وقد خلونا في هذا المكان ونحن بضعة فارجو يكون الكلام صريحا ... »

فنهض الرئيس ولم يحب اما بعنوب فاته جهدا متصتا على ركبتيه والذئب الى التونسي وقال « الصريح ان المادة التي تفصلك لانتم مشروعك اهنا هي عذراوة في عشرات من أمثال هذا الصندوق جمعت فيها منذ اعوام ولكنها لا تبذل الا عبد الحاجة ... » قال ذلك وأواما الى الرئيس فاستخرج من جيبه منهاجا فتح البابوت به وحالما رفع الغطاء ابرق ما فتحه اصر زاهيا . فنظر الى التونسي فاذا هو تفود ذهبية خالصة ثم أقبله الرئيس طاءا لفتح الى جهة

فاندهش التونسي لنظر ذلك الذهب وادرك انه بين جماعة ذوي اقتدار واحد أن يستطلع حقائقهم فنال « أراك تبالغون في الشمار ونحن اهنا اجهمعنا للتداول في هذا الامر المهم فمن أنت ... »

فألفت الرئيس أبو وقال «لا تطبع في استطلاع شيء غير الذي تراه وإنك عرفت شيئاً لم يعرف أحد من الذينرأيتم في المخرب الأخرى ومم يجتمعون معنا منذ أعوام وفهم من يبذل ماله وروحه في سبيل ذلك الفرض ...»

فتكم عند ذلك يعتوب وقال «يكفي مولاي ما قد شاهد ولا يشك أن في إسبانيا الوفاً من أشبال هؤلاء المظلومين وعندم الاموال المختزنة في الصناديق يذلون أنفسهم في خدمتهن فضلاً عن أموالهم ...»

فلا سمع للتونس قوله «المظلومين» أتى به ابن يدي جمعية سرية تتواءل على قلب الحكومة وتقذر ما كان يسمعه من كلامهم المبهم فخطر له أن يكونوا «يهوداً» ولكنها بعلم أن اليهود قد امتهوا من تلك الماكنة أما بالعنف أو القتل أو اعتداء الصرانية^(١) فقال ليعتوب «قد فهمت الأمر» فالراوي ان تصاح وانت أعلم الناس بعريق وقصد وإلدي من قلبي ...»

فعند ذلك انت يعتوب إلى الرئيس وقال «يدني لي ان أكشف كلّاً منك يا سر الآخر أعلم يا حضرت الرئيس ان الرجل الذي جئكم به اليهود هو نصیرنا الوجود في هذه الديار وإذا قاتل لكم هو هان عليكم مكاشنة بامرنا ... انه التونسي بن المرحوم غيطنة سلك إسبانيا وهذا يكفي»

ولم يتم كلامه حتى أبعده الرئيس قائلاً «العلة على عزم والآن ناماً ...»

قال «نعم هو نصیر المظلومين وقد عوّل على السعي في إنقاذنا من هنا الطالية للأعداء الذي يحيى نسمة ملكاً — ولما يعوده المال وهو عدتنا ...» فاسمح لي بعد هذا التصریح أن انتهاء بمحنة الأمر ...» قال ذلك وحوّل خطابه إلى التونسي قائلاً «أعلم ايهما الملك — أخاطبك بالملك لأننا لا نعرف ملكاً على إسبانيا سواك — أعلم انك في جماعة إسرائيلية وكل الذينرأيتم في هذه الجلسة يهود لا يزالون على دين آباءهم وأجدادهم ينوسون عن الوف من أهل هذا الدين منتشرين في أنحاء المملكة الإسبانية يظاهرون وبالصرانية فيحضر ون النساء في الكداش وينتارون القرابان ويتقومن بسائر التراث المسيحي رياه وهم بالحقيقة يهود يصلون في خلوتهم سراً — وقد كان منه في الكيسة في صلاح هذا اليوم مئات هؤلء رأسياً يهدون أمم الآيات ويتلون

الصلوات تظاهر أعنها . وربما سعماً يدعون بـ « هر رودر بلک » ومـ « دون قنبله » . وقد صبروا على هذا الظلم وكأنهم يحيطُ أعنيماً وهم يجتمعون المال ويجتزوه لاغتنام مثل هذه الفرصة للهروب من تحت هذا التبرّحى اذا كانوا يبلغون بهم على بدء الدك المارحى، استبدلاً أهل المطامع بهذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المصب هل أنت هو صاحب الشرح فتجوان تكون الجة على يدك ..

فلا يسع التونسي قوله الغبي له كثير من الأسرار التي ما يرجي بود الاطلاع عليها منه خاطب عمه او ياس بهذا الدلأن . فما كنني بما رأه وسمعه واجل استطلاع ما يجيء من القوافل الى فرصة أخرى ولبث صامتاً يراجمع ما مرّ يوم من المبيعات فإذا انه ينقصه أن يعرف وجنه اولئك الناس وخصوصاً بعد ان عرفه باسمه وكان يعتنيوب قد ادرك غرضه فقال له « ولا يطبع مولاي الان بالاطلاع على ما وراء ذلك »

فقطع التونسي كلامه وقال « لا اطلب الاطلاع على شيء سوى معرفة هؤلاء الافالغار الذين انا في حضرتهم وخصوصاً بعد ان عرفوني »

قال « كلاً يا مولاي ان ذلك مسع عدم حق فيها « لهم — وقد اخذني هذا النسخه وفوقه من ان يوح احد بأمر حقي من اخواهم — فانت الان بعد ان اطاعته على هذه الاسرار المهمة نسي اذا خرجت من هذا المكان كأنك لم تدخله لانك لم تزوجه الا شخص فلا ينك اهتم احد من الناس وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند أو الكهنة او العمال او المزارعين وكلهم في عداد المسلمين وبكم يكفيك ان تعرف واحداً منهم وهو أنا .. . »

فأعقب التونسي بهذا الفرب من الاختباط وعلم ان يعقوب « بودي » وتنكر ما قال يطلبية من الساهيل في اداء التزويش الديني من الصوات وغلوها وان عمه او ياس كان يساعد على ذلك وختار له خواتر كثيرة بشأن علاقة يعقوب بواله وعزم على استطلاع سر هذا الامر فيها بعد . ثم اعراض مباري افكاره دبيب توالت اصبعاته فوق رأسه فاندعل التونسي والثالث نحو السنف فايندره يعقوب قائلاً « لا تستغرب يا مولاي ما نسمعه لان فوننا شارع من شوارع المدينة والناس ؛ وون عابو ليل همار وايس في أهل استفحة من اعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا اعنها دع الجماعة » فازدا ، التونسي استفراها لما عاية في تلك الليلة من طرق الخفظ وأسواب الدهاه ، وقبل في نسمه « ان قوماً هذا مسلح دعائهم وتفاههم وصرهم جلسوون ان يبالوا عيدهم » .

الفصل السابع والاربعون

٥٠ طارق جديـد

وفيما التونسي يذكر في ذلك سمع فرعاً يهدىً يشيد أن يكون على الباب الذي ينتهي إليه المرداب ولكنها رأى عدد الطرقات وكثينة ضربها بخليان عا فعلاً يعقوب لما جاءه يوم ما لبث أن رأى الرئيس ويعقوب وما زال الجرمدين معه قد أضطربوا وأصفعوا لامعاءه أن يعتذر ذلك الطريق خلاف أن يكون وراء اضطرابهم ما يدعوه إلى الفراق ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطاع ذلك في هؤلئين وجاههم . ثم سمع فرعاً نائباً على الباب الآخر بكتيبة أخرى ولم يدرغ القارع من الفرع حتى تهطل انتصارات رفاقه إلى الحركة وسمع الرئيس يقول «لند جانا رسول» غير جديـد عـمـاءـهـ أنـ يـكـونـ فـادـمـاـ منـ اـخـوانـاـنـاـ فـيـ الدـامـ اوـ مـصـرـ اوـ مـنـ اـفـرـيقـيـةـ ..»

فامتنع التونسي تبؤ الرئيس عن الرجل بغير د ساعده فرعة الباب وأدرك من وراء قوله أن تلك الجمعية علاقات واسعة في الشام ومصر وغيرها فلم يتأمل ذلك أن قال «كيف عرفت الرجل من غير د ساعده عن بعد وهل تلك الجمعية من أعضاء في تلك البلاد»

قال «عرفته من قواعد موضوعة لهذا الفرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية وأنا سـوـالـكـ عـنـ حـمـةـ الـجـمـعـيـةـ فـاـنـ هـاـ أـعـضـاءـ فـيـ اـخـاءـ بـعـيـنـ أـرـسـلـيـمـ للـجـعـثـ عـنـ طـرـيـقـ تـحـلـصـ هـاـ مـنـ هـاـ الرـقـ ..» وـسـكـتـ هـيـهـةـ ثـمـ قـالـ «وـمـنـ هـوـلـاهـ الـأـعـضـاءـ اـنـاسـ قـدـ تـصـدـرـاـ فـيـ مـيـالـدـ الـدـولـ وـتـشـلـيـ مـنـاصـبـهـاـ وـمـنـمـ بـعـدـ عـلـ الخـدـمـ وـيـقـاسـيـ مـرـاـرـةـ النـذـلـ وـالـذـنـاءـ فـيـ وـيـهـيـ أـدـفـ أـعـالـ الـخـدـمـ وـهـوـلـهـ مـنـ مـصـافـ الـخـدـمـ يـكـونـ مـنـ أـمـ أـعـضـاءـ هـذـهـ الـجـمـعـيـةـ وـمـنـ أـكـثـرـ بـذـلـاـ فـيـ مـيـلـهـ وـإـنـاـ يـتـزـيـاـ بـرـيـ الخـدـمـ تـنـيـذـاـ لـفـرـضـ يـمـودـ عـلـ الطـافـةـ بـالـخـيـرـ ..»

وكان التونسي وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضي ^٤ بصيرته فادرك الحال أن خادمة يعقوب من بعض كبار هذه الطائفة وأم أعضاء هذه الجمعية . ولكنه ما زال مياله إلى استطلاع علاقته بأبيه وهو لاتهياً كانا عارفين بسر ما ظهر له من كلام أو باس — فاجل ذلك إلى فرصة أخرى ولبث ينتظر دخول الرسول النازم . ولم تخفي برءة ولم

سکوت اسمون حدی الحركات في القاعة الكبرى حتى سمعوا فارعاً يقرع باب تلك
الighbre الدوداء ترحاً خصوصاً فنهض بعنوب وفتح الباب فدخل منه رجل طوبى النابة
عليه ذلك الجلباب الاسود . وحال ذخوله وجهة خوا الرئيس وكلة بالعبرانية كلاماً
لم يفهمه التونسي فاجاب الرئيس وتحاطباً برهة بذلك اللغة والتونس لا يفهم ولكنها
استغربت توجيه القadam كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقاً في مظهر الرئيس وبين
سائر الجالسين لاهم بلياس واحد ولو ن واحد فنوم في ذلك سرّاً لم يبالك عن
الاهتمام عما من يعقوب في أثناء خطاطبة الرئيس والرسول بالعبرانية . فقال يعقوب « لو
أعمدت النظر في ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تيزه عن سائر الأعضاء ولا تظاهر
هذا العلامة إلا عند النامل وفي هذه الجمعية علامة لكل من أصحاب المناصب فيها
كالكاتب والخازن وغيرها . غير أن هذه العلامات ضعيفة حتى لا يراها غير النامل »
فندس التونسي في كتف الرئيس فرأى عليها عدنة سوداء يجاص العنق ونظر
إلى أكتاف سائر الرفاق فرأى على كتف يعقوب عدنة تشبه عدنة الرئيس ولكنها بشكل
آخر فراراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته ففتح الرئيس يتكلّم بالتوطية بخطاب القadam
فاثلاً « لقد صرتني قدومك الليلة لسماع حديث رحيلك وعدتنا من جهة ساعتها ويهمنا
ساعده ايها ونحن في سهر المخلوق وما فينا إلا عنزة الجمعية فمن أين أنت قادم الآن ... »
وكان الرجل قد جس في جلة الجالسين حول النابت فقال « أني قادم من
جهة وخبرني طوبى لا يسع الوقت تفصيـة ولكنني أجعل لكم منه ما يهمكم ويهمنـا ولو
كثفت لكم وجهي لرأيتم البشر ظاهراً فهو اذ يظهر لي ان زمان أسرنا وذلـاً قد انقضـى
أو قارب الانقضـاء ... »

فما قال ذلك ظهر الانقسام في حركات الجالسين وأصفوا وقد تعاولـا باعـانـهم
إلى المتكلـم وقال الرئيس « يشرك الله بالغير ... عـسى أن يكون قد انقضـى زمانـاً
كـانـقاـماـسـرـاـجـادـادـناـ فيـ بـاـيـلـ مـنـذـ بـضـعـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ »



الفصل الثامن والأربعون

حديث ذو شجوب

فتال الرسول وقد وجه خطابه إلى الرئيس «لا يخفى على حضرة الرئيس الذي متين
منذ أعوام في مدنه على شامل ، إفريقية (في مراكش) وهي وما يليها تابعة لهذا الطاغية
صاحب طليطلة الآن مع أن حقها أن تكون تابعة لملكية الزوم الشرقيه لأنها جزء
من إفريقية ولكن الزوم نقص ضل سلطانهم عن إفريقية بما أتاه العرب من التشوّه .
تفتحوا كل محاصل إفريقية تقرباً للأسيسيه وما يليها فائهم لم يتوجهوا فالتجأ صاحبها
إلى اسبانيا وصارت مدنه ولادته من ولاياتها كما نعلمون ... »

فقطط الرئيس كلامه قائلاً «يظهر أن أبناء اسماعيل قد افلحوا في دينهم الجديد ... »
فاجاب الرجل « نعم يا مولاي » . ولم يتمم الرئيس معنى هذا السؤال ولا من م
بنو اسماعيل ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لأجل الاستئهام فسكت . وإنما الرجل قاله ألم
كلامه قائلاً « إن أبناء عمداً هؤلاء قد قطعوا العام باسمه ومدوا سلطانهم على العراق
والشام وإفريقية وفارس وخراسان إلى أقصى المتصور ... » فازداد الرئيس استغراباً
لقوله « أبناء عمداً » ولم يبال ذلك أن الفتى خوب عنoub . فادرك يعقوب مراده قبل أن يتكلّم
فتال له « إن العرب الذين قاتلوا بالدين الجديد هم أبناء اسماعيل بن ابراهيم واليهود
أبناء أخيه اسحق فهم بهذا الاعتبار أبناء عمداً ... »

فحول الرئيس نحو الشكل لاستدام الخبر فإذا هو يتول للرئيس « وقد سافرت في
أسناري للتجارة وخدمة الجمعة إلى الشام ومصر وخلطت بالناس ورأيت كثريين من
أحوالنا اليهود الذين امتعاضوا الخص من هذا النزل بالخروج من هذه البلاد وهم
الآن في إفريقية ومصر والشام في راحه وسكنه لا ينبعون من أحد في دينهم . يصلون
كيف شاءوا ومتى شاءوا ويعاطلون أعلام وتجارتهم بامان وسلامة . وليس ذلك شأن
اليهود الغرباء . فقط هل هو شأن كل السكان من كل الطوائف لأن اليهود كانوا
يغضبون أياً في تلك البلاد تحت نير الزوم ^(١) يذوقون العذاب الواناً كما كنا

نذوقه تحته منذ بضعة قرون قبل ان اجبرونا على الضرائب أو المهاجرة أو القتل واضطربنا الى الترار أو المظاهر بالضرائب كما نعلمون^(١) واما اخواننا في مملكة الروم فكانوا ارحم حالاً منا ويع ذلك فائهم لم يصرروا على ذلك الفيم وكثيراً ما كانوا يتذكرون بالنصارى ويتذمرون الحكومة فلما جاء ابناء اساعيل لفتح بلادهم كانوا من اعنفهم على ذلك وقد احسنوا صنعاً لانهم تحررنا من رق الروم واستبدادهم وامتهنوا على ارواحهم فاجعلهم وختت هدم الفراتب وهم في نعيم^(٢)

قال الرئيس « وكيف ذلك ألم يخرجوا من سلطان الى سلطان ومن ضربة الى ضربة . ألم يحكم العرب فيهم سيفهم او نوذهم . ألم يشرعوا عليهم الفراتب »

قال « على يا مولاي . ان العرب تخلوا تلك البلاد بالسيف او بالصلح وصارت تحت سلطانهم ولكنهم بالحقيقة فلما يعطون شيئاً من امورها حتى انهم لا يتذمرون في المدن ولا يخاطرون بالرعايا الا نادر اوفي اوقات معينة ولا غرض وقوفة ... »

فقطعت النوس كلامه وقال « وكيف يكون ذلك ماين يذمرون وكيف يحكمون البلاد وهم لا يتذمرون فيها ... »

قال « لا أملك على استغراك ذلك لانه غير مأمول في ما نعرفه في هذه البلاد حيث يدخل المحکام في كل حركة من حركات الناس بل هم بدون الرعايا عيدهم - وأما هوؤلاء العرب فائهم بعد ان فخروا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج تزلي في ضواحيها وبنائها لانهم مددنا لا يتم فيها مواعيدهم كالتيروان في افريقيا والمعطاط في مصر والبصرة والكونفه في العراق وتركوا اهل البلاد الاصليون على ما كانوا عليه في ايام الروم او الفرس كل منهم على دينه واعقاده يتعاطى عمله ولا بهمة الا ما يتحقق عليه من الخراج او الجزية كل عام . وهي ضرائب زهيدة لا تنسى بما كان الروم يموتون رعاياهم من امثالها - وكان الناس عند اول النفع اهداً عيدهم ممثلاً بالنظر لظلم بعض عمال بي امية : ومهما عامل في العراق امة يحتاج شديد الوطأة على اهل البلاد يطالهم بالخراج الكبير لحاجة اليه في الحروب ولكن الملك الاكبر الذي يسمونه الخليفة يتم في دمشق الدام وكثيراً ما يبعث الى عالياته بمودعا الى الرفق . ومع كل ذلك فات الرعايا من اليهود او النصارى ارقى حالاً تحت سلطان العرب ما

(١) روبيج (٢) تاريخ السعدن الاسلامي ج ١

تحت سواه وخصوصاً إذا عاد العرب إلى ما كان عليه خلقاً ولهذا أهل من العدل والرفق والمساوة — ولو لاها لم يسهل عليهم التفع حتى أمند سلطائهم على معظم العالم المعور في الدرق «

فقال الرئيس « يا جهذا لو أنتم بأنون البنا فيستولون على هذه البلاد لأنتم إذا كانوا أخف وطأة من بطارة الرثوم فبالاوي ان يكونوا افضل لنا من حكومة التوط .. .»

فاعتبره الرجل الرحالة قائلاً « لا يحق لنا أن نشك من حكم التوط على الإجمال فأن بعضهم كان كثير الرفق بنا وخصوصاً غبطة الملك السابق فإنه كان عازماً على تغير رفاقتنا وأطلاق حرية الدين لنا ^(١) .. ولكن المذلة عاجلتنا أو مر علينا العطاغية رودريلك وهو من أظلمهم جيماً فبحـة الله .. .»

الفصل التاسع والاربعون

ـ يوليـان ـ

فأثنى الرئيس لوجود ابن غبطة بينهم وأعجب بما قاله الرحالة من أطراء أبيه فقال « لئن نظمت بالصواب وفي كل حال فإننا وددنا لوان هؤلاء العرب بأنفسنا وإنماها .. ولا ننظم بأنفسنا صعوبة كبيرة في فتحها إذا ما من طائفة من أهلها لا يشك من هيبة الحكومة »

فقال الرحالة « إن هذا الأمر الذي تستهون به إنتم جلوس هنا قد سيء فهو إخواتكم هناك وإنما في جندهم وكثيراً ما حرضاً هؤلاء العرب على ذلك وحبينا لهم هذه البلاد وربماً لهم مهولة فتحها عليهم ومهم هاتين .. ولكن يظهر لهم اخشى أن يحصلوا عليها ..

فأبى ذره الرئيس بالبقاء قائلاً « هل تعني ما تقول حقيقة؟ »

قال « نعم يا مولاي وهو الخبر الذي جئت من أجله وكنت عازماً على ما تشتركم به فأخبرجنا الحديث عنه — قلت لكم أن سبتة (في موريانيا) كانت في جملة ولايات الرومان فلما فتح العرب أفرغت سبتة أصبحت موريانيا منفردة عن مملكة الروم فأخذوا

صاحها الى اسياها ليكون في كف دولة نصرانية وقادتها فرحة سخة على بحر الرفاق (بوغاز جل طارق) ولما خرجت اماني اسياها الى موريانيا كان حاكها رجل اسمه بوليان ظاهرت بالصراية وعدهت الى تجاري اذيفل بها وإنما ارتعش في البلاد واعود الى سبعة وفي نفس ما تعلمون من الوظف لطائفي لما تناهيه من التفك والعنف تحت نير الوطوفاتي في اقي انتقم لها من بوليان هنا انتقاماً ليس هذا عمل ذكره وكتب مع ذلك من المترعين له يدق في ويسارني في اموره وإنما أظهر له الود واختتم الفرس لبيل يعني وما هي الا ان احب الى العرب فتح هذه البلاد . ولكنني اعلم ان الدليل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبعة لوطوعها على بحر الرفاق وهو اقرب سل العرب الى هذه البلاد وكانت عامل العرب على افرقة في الاعوام الاخيرة رجالاً منهم اسمه موسي ابن نصیر وهو شجاع ذو همة . فبعث رجاله حتى فتحوا طيبة واقاموا فيها وحاصرها سبعة من البر وبوليان ممتنع فيها صابر على ولاد الوطوف مع علوان عرين لا يجد به ثناً ولكن لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك . لاسباب لا تخواونها . . .

وكان النونس لما ذكر اسم بوليان خنق ثالبه لعلو أنه والد جيبتو فلورندا واصبح يسمع لهما يسمع شيئاً يتعلّق بها . فلما وصل الرجل الى قوله « ان بوليان لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لاسباب لا تخواونها » ادرك ان اعم تلك الاسباب وجود فلورندا في بلاط رودريك كأنها هرن عند عل طاعة والدها له . وتدبر حاله مع فلورندا ولها خرجت من حوزة رودريك فهب بدنه كأنه رُش بالنار ولكن صبر ثناهه ليس ببعض المحدث وكان الرئيس قد اجاب الرجل قائلاً « لا تخوب تلك الاسباب . . . ثم ماذا . . . »

فقال الرجل وكتب أنا في اثناء ذلك الحصار في قصر بوليان اجالسة كثيراً وهو يرکن الىه وينزلي منه لخدائي وسمعة تجاري لملا يهنج الى مال او موئله في اثناء الحصار وإنما اكتدرته رهبة في ذلك الترب كما يتعلّمون . فاصبحت منذ أيام وإنما في متزلي اذا برسول بوليان يدعوني الى عاجلاً فمضيت حتى اذا دخلت قصر واشرفت على باب غرفه رأيت شاباً خارجاً منها يظاهر من قيافته أنه قادم من سريلاند وعلمت من شكل لباسه انه من اهل طاپطة واحدة من خدم الملك . فمر الرجل بي ولم يكلني فصررت حتى دخلت الغرفة وكتب ادخلها دائماً بلا استثنان . فرأيته بوليان جالساً على كرسى يجلس تائلاً نطل على البحر الكبير وبيه شيء؟ قد قبض عليه وهو منتفق في المواجه . فلما

سبع خطواتي بهض بفتحة ورعن المي" بما كان يبيه وقد أخذ الفضب منه ما أخذناه عظيمًا وهو يقول «أفرأً هذا يا فلان وأعتبر شفائي وتعافي ما كتبني المصيبة التي اصابتي من أول عهد شبابي حق هارب باقبح منها من جعل أنت تعلم أنني أنا مي عذاب الموت في سبيل الممانعة على ولاه» فاللتفطمت ما زاده فإذا هو قطعه من قلبي أطبقها مقطوعة من قيس أو رداء وعليها كتابة حمراء كاتبها كتب بالدم . ولما قرأها أشعر بدفي استغراً ولكن قلبي كاد يطعن سروراً على ان في ذلك الكتاب حلاً للشكك الذي نحن فيه .

وكان التوين في اثناء ذلك بغية الاضطراب وكان سائر الساعدين في غاية الاصحاء لما يتوسمونه من الخبر الجديد فقال الرجل «فقرأت الكتاب فإذا في وعيه :

«والدي العزيز

«سلت أبتك الى رجل يسي نسبة ملائكة وهو وحش كاسر لا يرعى ذماماً ولا حرمة ولا عرضًا ولو المعاية الامامية الذهبت فربة بديه وفستو . أكتب اليك هذا على قطعة من شوبي وإنها هائنة على وجهي لا ادرى اين اخي من بين هذا القائم الخائن ولا ادرى متى التي ينك — فاجراه من اراد بانتك سو». وحامل هذا الكتاب — اذا استطاع الوصول به اليك — انبأك هائنة بما قد يشكل عليك فيه «كتبة فلورندا»

الفصل الخامسون

الاغراء

فلا تسل عن التوين بإضطرابه وختنانه فليو ولو لا ذلك اللئام لافتضح أمره لاستغراً به قوطاً «انها هائنة على وجهها» وقد كان يطلبها في ما من عبد عم عظم عليه الامر ولكن كظم على عياله وصبر نسبة لساع بثة الحديث وكان يهتوب مشعرًا بالبغنة لانه كان معلمًا على شيء من علافيه بنورندا

أما الرجل فإنه ام حديثاً فائلاً «فلما فرغت من قراءة الكتاب اظهرت الفيله وقالت له «الى متى البقاء على ولاه، رجل لا يرعى ذماماً ولا يحيط حرمة ولا يلقي عرضًا ؟»

انت تعرّض نفسك للخطر وتصير صير الابطال في الدفاع عن معلماتي وهو يفعل هذا العمل مع ابنته » وكان بوليان قد استولت على السويداء منذ اعوام على اثر مصوبية اثنائه وشنق على حبلها فجعلت اسفله وإيجي عيشه حتى قال « لا بد لي ان اقتفي من هذا المكان وأسلم هذه البلاد هؤلاء العرب فانهم اجتنب منه الجنيل » ولا يكفي ذلك بل انا محظي على فتح اسياها الى طليطلة حتى يصوّروا مقتل رودريك فاشي غليلي ». فسرني عزمه على ذلك وهو الفرض الذي طالما تبيّنه ومحبته فهو فجعلت اقوى عزيمته وأهون عليه الامر حتى قالت « وإذا أحببت فاني أهون عليك في مخابر العرب وأجعل تصايمك على سهل الخدمة لك وظم وليس عن ضعف أو جنون » فرضي بي بذلك وخرجت لخابر موسى بن نصر امير العرب فسر روح بوليان . فعرض عليه بوليان عبر بحر الرقاد الى المدورة الاخرى وفتح الاندلس على ان يكون هو معلم بعلطم على عورات التوطن^(١) فرضي موسى ولم امثالك عند حمایي ذلك عن القديم الکم هنا الكبير فما قولكم ؟ ..

فلم يلعن الرجل الى هذا القول استوات الدعوه على الجميع وخصوصاً التونسي فانه وقع بين هامليون عامل الغرام لنورتها وقد انشغل خاطرها بذاتها بعد ان علم ايتها ليمت في يوم عدو . وعامل الأساس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لاماخرج من سلطان التوطن على الاملاقي . وادرك يتعجب ما قد يختبر بحال التونسي من هذا التبول وخاف ان يكون لذلك ثير على رأيه في مقاومة رودريك . ثم تذكر مسألة فلورتها وما في نفس التونسي على رودريك بذاتها فعلم انه لا يمكن ان يصنفه معلمًا وخصوصاً بعد ان سمع شكاية فلورتها لايها . على انه احب ان يثبت المؤمن في عزمه فحال وقد وجه خطابه الى الرئيس « ان كبير الذي جاءنا به اخونا هذا من الاهمية يمكن عظيم ولا نظن العرب الا فاتحون هذه البلاد وخصوصاً لان بوليان مهم يدخلهم على الطريق وطبعاً نحن تكون عوناً لهم ايضاً لانا نخدم مصالحتنا ولا يغير ذلك شيئاً من غرضنا الاول في استئصال الحكم بعد مولانا الملك (وأشار الى التونسي) لانا قد سمعنا الان ان العرب يستيقنون البلاد

(١) وفي التاريخ ان بوليان وصلت خبر ابتدء هذا قبل ذلك بستة وعشرين سنة قاسم للعرب وخار موسى بن نصر ب شأن فتح الاندلس وهو شابر الخليفة الوليد حق ثغر الراي على الفتح في تلك السنة (٤٩٣)

على ما في عليه ولا نظيرهم اذا علمنا نصراً ملائكة هذا لهم لأن يسلوا الى الاحكام ويكثروا بالخروج وال مجرية والميطرة الخارجية

وكان النون يسمع ذلك وقد همة المخربان وأكشن خير فلورندا غالب على خاطره وأصبح شديد الرغبة في الخروج من ذلك الجميع للبحث عنها . على أنه اراد قبل الاتصاف أن يستوثق من الامر الذي جاء من أجله على أن يجعل كلامه جواباً على كلام يعقوب فقال « عن صاحبي يعقوب ان غرضي من هذه القبة هي رودريل بيرد رفقي في السلطة . وللحقيقة ان الغرض الاول هو اتخاذ هذه البلاد من استبداده ، واعلاق سراج اليهود الذين اجرموا على المصراوية ظلماً . ثم التي أريد ان يعلم هنا الطاغية ان على الباقي تدور الدوائر فإذا حدث ذلك فلا يهمني بعد من ذلك »

فقال الرجل « أوَكَدْ ملولي الملك ان المسلمين اذا قبضوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت ولا اظنه يستغدون عن ملولي الملك في حكمه هذه البلاد بعد فتحها فقد ولدوا على طبعة رجالاً بربيراً اسمه طارق^(١) مع ان البربر لم يذعنوا لسلطانهم اذعاً تاماً حتى الآن — يفعل العرب ذلك لئلا عددم بالظر المosome للبلاد التي فتحوها ليطردون الى الاستسلام بغير العرب في ضبط الاحكام — فهل يعزمون على حكمية اصحابها خوبهم ملائكة . وعلى كل حال فاما لا نأول جوداً في اخناعهم بذلك ... »

فلم يسمع النون قوله اهلاً خاطره من قبيل الملك وتجمعت هواجمة على فلورندا وود سرعة ارفضاص الجلسة فالتفت الى الرئيس وقال « هل من كلام يابني علينا ما تأذنون باصرافنا »

فوقف الرئيس ووقف الجميع فقال الرئيس « اذا شئت الاتصاف فالامر فهو أمرك ولكننا نقدم اليك ان نعتقد صدق عبوديتنا في خدمتك وان اليهود في كل هذه البلاد يضجون أموالهم وانفسهم في مصلحتك وعدوك الله في ذلك يبتنا ويبنك »

فشكراً النون وقال « قد ذكرت لكم غرضي من استصاراتكم والله وفي التوفيق ... » ثم تحرك يعقوب نحو الباب وأشار الى النون فيبيعة وخرج من تلك الحجرة الى الغرفة الكبيرة وفيها المئاد حول المضبة كما تقدم . فشيء مشبة خاصة وخرج من باب الى باب حتى أتاهما الى السرداد ومنه الى الكف . فلما اطلأ على الخلاء رأيا الغر قد

(١) ابن خالikan ج ٢

لاح فعل التونسي انهم قضوا طول ذلك الليل هاك وأحسن بيرد الخلاء . ثم تزغا التوبين الا مودين وخرجوا من الكهف يلحسان المدينة وكان يابها قد فتح قدرلها وسارا يقطعنها نحو الجسر والتونس لا يتكلم لما تراكم في خفيتو من الامور الجديدة في ذلك الليل . واصبح لا يدرى كيف يعامل يعقوب بعد ان عرف انه من اعيان اليهود لكنه ظل راغباً في استطلاع بنيته سره على انه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من المرداب اذا سقطت السيم اليارد على اثر سهره الطويل فاصبح لا ينفع بمنا في شيء ولكن صورة فلوراندا لم تزح من امام خفيتو وما سمعة من اقوالها الى والدها لم تغب عن سمعه

وصل النبلاء والتونس لا يزال ماكناً ويعقوب يراقب حركانو وسكناؤه وكان قد ادرك شيئاً ما يحول في خاطره ولم يبدأ ان يجادله في شيء غير الاستئهام عما يربث من طعام او خمور . وصعدا الى غرفة التونس فاعاد له يعقوب كل ما يجاج اليه وهذا له الفراش فنام ونام يعقوب أيضاً

فلتركتها نائرين يجوار استخفة ولذهاب بالفاراري ، الى افريقيا (وهي بلاد البربر المدبر عنها اليوم بشارلي افريقيا وفيها برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) ولبحث عن احوال العرب هناك الى فتح الاندلس

الفصل الخامسون

بعد فتوح الاسلام

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ خلفه ابنه الوليد بن عبد الملك . وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشر بن سنتها قضى معظمها في محاربة مناظريه عليها وكثيراً ما خاف خروجها من يديه ولكنها كان ذات سياسة ودهاء وقد نصر المجاجع بن يوسف ادعي عمال المسلمين واشدهم وطأة خلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خاله ابنه الوليد وقد نجا من المناظرين فالنصرف منه الى توسيع المملكة الاسلامية فبعث

قبيبة بن سلم خوا الشرق لفتح ما وراء البير فأوغل في بلاد الترك حتى ادرك حدود الصين . وبعث أخاه مسلمة بن عبد الملك شلالاً لغزو بلاد الروم ففتح عوربة وهرقلة وقونية وغيرها . وأتى نذموسى بن نمير إلى أفريقية فولاء أيامها وأمر أن يتم فتحها وكانت أفريقية قد فتحت في صدر الأسلام والختلف بصر وإهل شأبها بعددها وملتهة المدبر إليها . وأهل أفريقية الأصليون قبائل البربر لهم السنة خاصة وعنوان خاصه ومثلهم عديمة جدًا وبلا دم كثيرة الماشية طارق . وكانوا لما اشتعل الامريون عن أفريقية بأنفسهم أيام عبد الملك قد افتتحوا القرنة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فهربوا وشقوا عصا الطاعة . فبعث إليهم عبد الملك حسان بن العان مخارجه وأخضعهم ونشر الإسلام فيهم . ولكنهم كانوا أئلاماً شداداً فاليوم أن عادوا إلى الاضطراب . فلما تولى الوليد بالغة انهم في انقسام فيها بهم فرأى أن يقتضي ذلك الترصة لتأييد سلطاته هناك وتبهق فتح تلك البلاد فبعث موسى بن نمير وهو عربي لحي وكان قائدًا بالبلاد حمن الاعتداد في الإسلام فنزل الفيروان ثم تبع البربر إلى بلاد السوس الادنى وهم ينرون من بين يديه حتى إذا يسمعوا من النصر جاؤوا إليه مسناً مدينون وبنشروا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم أنساً من رجاله يسيطرون أحوافهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الإسلام

وكان في جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد وكان شجاعاً قد اعتنق الإسلام وأظهر غيره عليه ورغبة في تأييده . فلما انتصروا فتوح موسى في أفريقية ولهم مولاه طارقاً على طيبة وإعلاماً وترك عدد ٢٠٠٠ فارس من البربر من أسلحتها وحسن إسلامهم ورجع موسى إلى أفريقية ولم يبق في تلك البلاد غير خاضع المسلمين الأ مدينة سبعة وهي فرضة داخلة في البر الشرفة على بحر الرقاق المحي الآن يopian جبل طارق وكان حاكماً سبعة الكوينت يopian المنقدم ذكره . وبقول مؤرخو العرب أنه مازال ثابتاً على ولايته لروبريك (الذربي) حتى أسامه رودريك إلى أيديه ففتح عليهم وحرض العرب على فتح إسبانيا . وبذكر مؤرخو الأفريقيون ذلك بسبب وبقولون أنه أعاد العرب على فتحها لانهم من أقارب غيطشة وقد فعل ذلك انتقاماً من رودريك لاخذلهم الملك منه فاختبرنا رواية العرب كما رأيت

وكان جماعة البربر في المغرب يهدون الاوثان لا بعض من خالط الروم على شواطيء البحر فلهم اعتنقوا النصرانية ومفلانل . وكان لكل قبيلة اصنام وعبادات

وكنت يذيرون شوؤها ويتوالون الاصحام بين اهلها ويملون المذاكل التي تقع فيهم كما كان يفعل الكهان عند العرب في الجاهلية . غير ان الكاهن يعني عند الراية « ماريوط » فما ذكرت اليه للاستشارة في حرب اوسلم ويجملون اليه اهليها من الماشية او الخطة او الرقيق الاسود او الایض

وكان الفخار وغيره من الروم والقوط يسطرون على قبائل البربر فيحنطون الاطفال بالفلان ويجملونهم الى الافاق يغيرون بهم كما كانوا يغيرون بغلان البوض من اهل اسپانيا وغيرها والغالب ان يكون هؤلاء من اسرى الحرب . وكان يبع الامر شائعاً في تلك العصور . واشهر رواية المقرب خصوصاً برکوب الخيل

الفصل الثاني والخمسون

طارق بن زياد

وكان في جملة قبائل البربر قبيلة الصدف ومها طارق بن زياد ولذلك قيل له الصدي (١) وقد نشأ طارق في الجبال وعاش عشة البدو وتدين بالوثنية مثل سائر اهله ورفاقه . وقد شبّ فوي البنية شديد البطش شجاعاً وكان منذ نعومة اظفاره شهراماً بين رفاقه بالفروسية والذلة . وكان من جملة عدراته غلام ایض اللون بخلاف سائر الراية ونمطه وجهه مختلف عن نمطه وجوههم — فالراية ضخامة الدنهاء عراض الوجه فصار الانوف مسود اللعمور شداد المسنة . وهذا الفلام ایض الوجه اشقر اللعن ازرق العيون ولكن بالنظر الى معيشة البداوة في البراري وركوب الخيل والفرز اشهر لونه فليلاً وضفت اعضائه كلها فاصبح غليظ العنق والذراعين واسع الصدر خدين الكتف كثيف الشعر وكانت يسمونه (يدر) اشارة الى صياغة وجهه دون سائر الرفاق . وكان الراية يمحونة لختة روحه وبساليه لسابق اعتقاده ان الشجاعة خصت بالسم وان

(١) ابن الأثير ج ٢

البيض ضعاف جناد

شب طارق وهو يرى هذا الغلام في بيت أبيه وعلم أنه ليس أخاه لأن ماربوط قفيتهم كفحة التي زباد وأوصاه برعايه والاعتناء بتربيته لانه نوم فهو المثير فناصحيه وتخابيأ . وكان طارق لا يهابه لاعيش الا اذا كان بدر معه وكان بدر يحب بطريق ويهبه كثيراً ويمدّه نسمة أخاه ولا يغطيان الا بالآخرة وهي معروفةان بذلك عدد سائر قبيلة الصدق

ولما جاءه موسى بن نصرير الى افريلية وصار عاملأ عليها كان في جملة من الخدم من الموالي طارق بن زياد وبارأي شجاعته وحسن اسلامه رفاه حتى جعله نائدا حاملا طبلة كاتقدم . وكان بدر رفيق طارق في كل احواله ولكنه لصغر سنه لم يلتهي موسى له على أنه ظهر في الوفان التي شهدتها بسالة الابطال الحديكون لانه لم يكن يهاب الموت وخصوصا اذا كان مع اخيه طارق

لما عرض بوليان على موسى فتح الاندلس على ان يكون هو عونا له في ذلك بعث موسى الى الجليلة الوليد يمتازنة فاذن له على ان يخوضها بالسرايا « ولا يغير بال المسلمين في بحر شديد الا هؤول »^(١) فرأى موسى ان يعبر ذلك برجال من الموالي (المسلمين غير العرب)^(٢) يرملن لدعها ولم ير خيرا من طارق بوليه قيادة تلك الحملة فأعاد معهآلاف من الموالي والبربر وفيهم بعض العرب وسلم قيادتهم الى طارق وامر ان يعبر بهم بحر الرقاق الى الاندلس

فعبر في مدن أعد لها لم يولي جيلا على شاطئ ذلك البحر سري بعد ذلك باسم طارق (جبل طارق) الى اليوم . ولم يلق طارق مثلك في استلاك الجبل ثم يلقيه ان رودريك صاحب طليطلة يتأهله للجيء اليه في جند عظيم فكتب طارق الى موسى فاما مائة بمائة ألف بربرى فصار جناد انتي عشر الفا وفيهم بوليان صاحب سبعة يدخلهم على عورات البلاد ويختمس لهم الاخبار وبيث في اهل البلاد ان العرب

(١) ابن البارج ج ٢ وذكر هناك ان ذلك كان سنة ٩١ وان موسى ارسل طرينا فنزا جزيرة سرطت باسمه ثم ارسل طارقا

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

جاوا الاندلس ليس لنجد النجح ولا نهان وإنما يريدون ان يلأوا ايديهم من الغنائم وينحرجوها . وحسب الى الاميان ان يهبط لهم العذاب على رودريك حتى يتخلصوا منه وبعدها الاحكام لمن يريدون من ملوكهم الاصلين . وما زال طارق راحقاً يجهض على هذه الصورة حتى اتى وادي لكتة (قرب قادس) وهناك التقى جند مجند رودريك ^(١) على ما هو مدون في كتب التاريخ

ووادي لكتة او وادي لبنة وسموه الافرج جوادي وهي (Guadalete) في جنوب الاندلس ما بين استحق وجعل طارق يصب في خليج قادس - على ضفاف هذا الهر التقى جيش طارق مجيش رودريك في اوائل سنة ٩٢ هـ وهناك بصرت الواقعه التي قضت على جند التوط وابتدا النجح للمسلين على يد طارق بن زياد البربرى كما شهادني

الفصل الثالث والخمسون

رودريك او باس

كان المسلمين على ما ذكرنا من تفظيم وهموضهم للنجح والتوفيق خادم لهم رودريك في بلاطه على نحو ما قدمناه من اشتغاله بالترف والرخاء . وقد تركاه وهو يكاد يندرق غيظاً من او باس لامتنراح فلورتنا من بين يديه بعد ان كادت تكون فريسته . فطلب محاكمة في مجلس الاساقفة فلما رأى منه ما كاد ينفع امره اسرع الى افلال الجلسة بمحاجة تاجيل النظر في همة او باس الى جلسة اخرى كا تقدم - وهو لا ينوي المود الى ذلك ولانا الحذر ذرعة للتجبر على او باس في السجن ربها يبحث عن فلورغا

فلم انقضت الجلسة عاد رودريك الى قصره والاب مرزين الى جانبي يطلب في مكان من تغليم على او باس بارغام انزو . وملك مع اقتناعه بغلبه او باس عليه في تلك الجلسة صدق ما تزلف به مرزين اليه من الاطنان وحسب نفسه مخططاً بمحكمه على

تمه بالضعف وافشى بنوزه المليين . وكانت نبي ما كان من الصوابع التي ازطاها او ياس على رأسي في اثناء الحاكمة . وعي عاً كان من سلطان عرشه لم يدرك الا مر باقتفال الجلسة والاساقفة الحاضرون راغبون في تبرئه حفظاً لكرامة مذاهبه — ولكن الانسان لا يهملا كوك في حب الناس يصل اهتمامه الى الاقتراح بانضمام عائلة ورأياً وقرابة . ويتوي في هذا الاعتقاد كلما ضعف عهده واظلمت اصواته . لأن حب الذات يدعونا الى الاعتقاد بأننا أهلى الناس عزوة واصواتهم رأياً واصحهم مذهب . بل هو يوهمنا ان كل ما هو لنا خير ما لسوانا . فاصح كل مما يعتقد ان اية احسن من اياته سائر الناس او امرأة خير من نساء العالمين . واذا كان مولانا كلامه ابلغ ما كتبه العلماء ونظمه احسن ما اطبله الشعراء والملايين من دون بحث افكاره — الا اذا كان من اهل الرأي السديد والبصرة الفادة فان حكمه يقترب من الحقيقة بقدر ما اوفي من تلك الملايين . ولكن يدرك ان قدر افلاطون قدرها ثاماً . وخصوصاً اذا منها من يائنا ويدفع اعدائنا بغير رغبة في ارضائنا لا لاستهانة فيها — واكثر الناس تعرضاً لهذه الاخطرالملوك وغيرهم من اهل المناصب الرفيعة فان الناس يسايرون الى استعطافهم بالشلائق والدح الكاذب الشك لمنع او تقييدها لفرض كائنين لنا من أمر زردين ورودريلك

فوصل رودريلك الى النصر وهو متقد بنظرة ذئب او ياس وانه يستوجه اضعاف تلك القمة فقول على استيقائه في الحسن ربها يدرك وسيلة لاستطلاع خبر ما يورثنا ثم ينتقم منه . ولم يجعل في قوله للايجاب اليه في البحث عنها . واول شيء يائنه الله بث العيون والارصاد في ضواحي حلبيطة وفي الطرق المتشعبة منها . ووعدم بالملكافاة : الكسرى اذا قبضوا عليها وعلى من عساه ان يكون معها

اما او ياس فإنه ذهب الى حجه وهو من شرط الصدر لاعتراضه ببراءة ساحته وسلامة طوبه ونبالة مقصده وخصوصاً بعد ان اتيح له كشف أعمال رودريلك للجميع ولو تليجاً . وهو مع ذلك لا يرجو غدر الجميع على رودريلك وانما يواجه الانتصار للحق واجاهة صوت الفسق والجحود — شأن الذين ينتظرون في سلك الرهبة رغبة عن ملاذ هذا العالم . فهو لاء اذا أخلصوا الية في تقبلهم لم يكن في الناس أقدر منهم على نصر الحق لاستغاثتهم عن الشهارة او الترقى ولا حتى احرام سائر اجياد هذا العالم الثانية وهم اذَا تعلق نوراً بها —

وقد كان أباس من أمثال هؤلاء ولم يكن معه في ارجاع الملك لابن أخيه إلا من قبيل نصرة الحق

أقام أباس في مجده الموقت بضعة أيام وهو لا يزال في أيامه الأولى لولا اشتغال خاطر بفلورندا لانه لا يعلم ابنه هي ولا ابن ذمهما أجيلا وشانيلا . ولكن رجع من قرائين مختلفتين لم ينفعوا في قضية رودريلك . وكان اثنين بهمالة ذيتك الشابين وظفرتهما وصدق نيتها في خدمته بعلمه عن البال على فلورندا على الله كان شديد الرغبة في معرفة مفترها وبصدر أمرها . وكان من الجهة الأخرى يذكر في التوبيخ وفي الميسة التي اندلع رودريلك فيها وما قد يتصور من أذى يدو إذا علم بعموه في انتقام فلورندا وطلب الملك لنفسه ولكن لا يطلي باعوه على نصرة الخليفة لم يكن يخفف بأيّاً على أهلهما . فهو يعتقد أن الحق علو ولا يعلى عليه وإن على البالهي تدور الدوار ولذلك فإنه كان يتوقع وقوع رودريلك في شرّ

أعمال وقد صرخ بذلك غيرة مرة حتى بين يدي رودريلك نفسه

والإنسان العاقل إذا تدبر مصدر الحياة الدنيا مع ما ينتورها من الاختصار برى الرجوع إلى غير الخليفة شرّاً من الجحون . لأن الخليفة هي الفالية وهي وحدتها التي تتحقق . وإن كما في الواقع لا تكاد يخطو خطوة إلا والروم فائدتنا — اعتذر بذلك في كل ما تتعامل به من العلاقات الأدبية في نظام الهيئة الاجتماعية فإنك ترى أساس تلك العلاقة اعتبارات وقحة لا وجود لها في الطبيعة وإنما هي ماصورة وهم الإنسان منصافاً إلى ذلك بالضعف البشري وقد حاول إثباته صوتاً مصلحته في ما تدعوه إليه عن اهتمام وهذا أيضاً من قبيل الوجه



الفصل الرابع والخمسون

ـ شريش وكرومها ـ

شريش (Xeres) مدينة في جنوب إسبانيا تابعة لولاية قادس في الطريق إليها ويلان أشبيلية . وبها وبين مدينة قادس ١٧ ميلاً وهي واقعة بالقرب من نهر صغير يسمى وادي لينة (guadalete) والهير المذكور ينشأ من جبال ولاية قادس في الشمال ويمر نحو الجنوب والغرب فترك مدينة شريش التي يحيط بها ويعبر حتى يصل إلى البحر الأطلسي يمتد في خليج بالقرب من مدينة قادس . ومدينة شريش واقعة في وسط من الأرض بين جبلين يكتنفهما من الشرق والغرب . وبها وبين بحيرة الهر كثيرون من المغارس وخصوصاً الكرم . لأن هذه المدينة مشهورة بكرمها وشهرها المعروفة باسمها (خرشري) الشائعة في أوروبا وهي ثانية إنتاجها ويعتاد عليها على موائفها . ومعظم ما يصدر إلى العالم من خرشري الجيد ي مصدر من كروم ضواحي هذه المدينة وكروم شريش تلاً مسافة كبيرة من ضواحيها إلى الهر وما وراءه على أكاك مسطحة أو مائلة . وبين الكروم يivot المزارعين وبها أبنية غريبة الشكل هي عبارة عن غرف كبيرة قائمة على صخوف من الأساطرين الدقيقة . والغرف عالية السقف في جدرانها متعدد عدده يتخالها أطواره وفي مستودعات ينتزن الكرامون خمور فاما تهديمه بحرر الأعوام

ويحيار مدينة شريش بما بلي وادي لينة سهل ساء الماري « شخص شريش »^(١) الذي فيه طارق البربري ورودريك التوطي فهو كانت القرية الفاسية بفتح الاندلس وفتح العرب بيتها ومحضolasها . وهان عليم اللعن بعد ذلك حتى طبعوا بأوروبا كلها وكانت في غاية الاضطراب والتضليل فلو ظلوا سارين لما لئوا من إصداروهم او يقف في سبيل نبالم ولائهم أحلى المسوير ففلا ينفع الترصة منهم في صيف سنة ٧١١ للبلاد ^(٢) اي بعد المواثق التي ذكرناها في طليطلة بضعة أشهر كانت مغارس الكرم في شريش وضواحيها وعلى جانبها وادي لينة قد تخرجت اعماها

(١) نفح الطيب ج ١ (٢) في اواخر الصنعة الثانية من هذه الرواية ٧١١ صرابجا ٢١

واخذ بعض النلاجرون في قطافها والبعض الآخر في دعامة ما نقل حمله من الدوالي لكبر العناقيد . واشتعل آخرون في اعداد المعاصر وآخرون في نقل بعض ما اختزنته من خمور العام الماضي لاحتزان خمر هذا العام

ويشتعل في كل ذلك عائلات من اهل البلاد الاصليين او من قصبة عليهم بالاسرى بعض المربوب فاصبحوا في مهاف العبيد وفهم من كان بين فرسان اهل الوجهة^(١) وقد صبروا على مرض الذل وهو غير ثقيل على اهل ذلك الزمان لانه كان جارياً على الجميع . على ان ذلك لم يكن يمنع تذمر اولئك النلاجرون من تلك الحال طالما كانوا من صاحب تاج طاولة الله . على ان الرأي العام لم يكن راضياً عن رودريك لاسياب نقدم ذكر بعضها

وكانوا من الجهة الاخرى قد سمعوا بازول العرب بلادم عدد بحر المجاز (بوغار جيل طارق) ولم يكتنوا بتوسل ولا عانوا عليه كثیر امية . وكان في جملة هؤلاء الكرامون شيخ طاعن في السن فقضى حياته في الاسفار بما ينهاه وما يقاومها من العدوة الجنوية بافرقة حتى وصل الى مصر والشام وشاهد بعض احوال العرب في اوائل ظهور الاسلام فكانوا اذا ذكروا العرب بين يديه يتول « لا ينجزونا من هذا الملك الا هؤلاء » فلما قيل لهم عبروا البحر قال « لقد قرب الفرج »

الفصل الخامس والخمسون

وكان شيئاً المذكور في اواخر بوليو من ذلك العام (سنة ٧١١) الموافق رمضان سنة ٩٦ هـ^(٢) جالساً في كرمه وحوله اولاده واحفاده يشتعل النساء منهم باعداد الطعام واصطناع الالبان والمجبن والولاد يشتعلون في علف الماشية او اصطناع السلال تحمل العرب عدد قطافه ولا حدث لهم الا تقدير موسم ذلك العام من العنب والتمر . وما لهم في تقديره فائقة كبرى لانه ليس ملكهم اذ لم يكن للنلاجرون وغورم ان ينتظروا عناراً او يلكلعوا

(١) دوزي ج ١ (٢) التقويم العام لسنة الاف عام

بياناً وإنما الملك والسيادة لطبقة الدرداء، وأكثرون من الرومانيون والتوظي والملحقون حصه قليلة من الناج . ولكن الإنسان ميال للبحث عن المجهول ولذلك فقد اشتغل الشيخ بأولاده معظم ذلك الدهار في تدبر غلة تلك المنة حتى احتمم الجداول بينه وبين أهدم وانشغلوا بذلك حما حولهم . وكانت جالسون في ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأنفسها خربة يشكل العريش وأجرعوا الماء تحتها ببناء ينف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء ويستظل بظلها أهل تلك العزبة وبأفهم غير الشيخ ولراحته وأخذاه ونساء المروجيون منهم أقبل المسأه وهم في ذلك وقد رفع من كان غالياً في أيام الدهار في اصلاح الدالية أو تسيدها أو تنظيف المستودعات أو اصطناع السلال أو نقل النضبان اليابسة لاجل الإبقاء — فربما جاء الرجل وعلى رأسه ملة وعلى كتفه حزمه وتحت يبطو جرة وفي جيبه صرة وفي يده رغيف وفي فهو آنفة بغير ورآءه صبية هذا ينعد خروفها وذلك يسوق حماراً وذلك يجعل عقلاً قطعاً قبل تمام النفح وهو حوضة قليلة وقد منعه أبوه عن ذلك فخرياً العنتود في جبيه وبحمل يأكله اختلاساً وأخوه يجانبه بهده الشكوى إلى أبيه إذا لم يطعمه بعضة فهرع هنا إلى والدته بعينه^٤ في ثنيا يراهمها وفي زعموا أن ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان كأنما هو رابطة كسرى انورشوان — تلك عيضة المذاجة الفطرية أن ينفات المرأة من ثمار ما يفرشه وبالبيان ما يرعاه لا مطبع له إلا أن يجمع من ذلك ما يمكن أهله بقية العام للكساء والطعام — هناك الزيارات السليمية والفالوب الطاهر . هناك الأخلاص وصدق اللثة — إذا سمعت أحدهم يقول لك انه مشناق لرؤيك فهو يعني بذلك حقيقة ولا ينقول على سبيل العادة التي أساسها التدليس والتلبيق . والسعادة الحقيقة (إذا صع وجودها) فاما تكون في تلك المنازل الحقيقة بين تلك المفارس التي تتجدد او تراها في كل عام وتتجدد فالوب اهلاها معها — ليس هناك ضفاعة ولا حند ولا طبع ولا ثيبة ولا رباء . لفترة حاجيات الانسان وسوولة تليها . لأن المرأة اذا قلت مطالبة وهان عليه اكتسابها فلما يدخل قلبة حسد او حقد او غيرها من الرذائل . لأن الحسد والحسد والرباء والسبحة التي يجلها اليها الشعيب اذا اكثرت مطالبة وغير عن الحصول عليها يجيئ ويعدو — ولذلك كانت الرذائل من جملة ادران المدنية على ان النلاح الساذج اما يكون سعيداً في ظل الامن والعدالة . والا فهو من ائمس خلق الله لان الظلم ينافي على سعادته قضاه . ميرياً اذ يسلية يتبع ذلك السعادة وهو

غلاة ارضه - فكيف اذا لم يكن هو صاحب الارض كما كان شأن فلاحي اسپانيا في الاجيال الوسطى . فلا بلام شيخنا المشار الى اذاته استبدال حكومه بغيرها ولو كان غيرها

غريت الخميس وهي ترسل اشعة ذهبية لشرح الصدر ويطالع اهل المدن لرؤيتها وقلما يتحقق لم ذلك . ولو اراد الملائكون لرأوها كل ليلة ولكنهم في شاغل عنها وعن سواها من مناظر السماء باعداد العظا . والاجماع تحدث سف المترزل او تحت بعض الاشجار . فلما غابت الخميس اجتمع افراد تلك العائلة ومبعدون بالعشرات وفيهم الاطفال والاحداث والشبان والشابات . واصغرهم سنًا اكترم فرحا

وكان اعظمهم اهتماماً بذلك الدليل لانه لم يكن «يدأ لله بال إلا» بعد ان برى اولاده وأخلاقه تحت ذلك العريش في آخر النهار . وخصوصاً بعد ان جند امير تلك الناحية بعض بامر رودريك ليكونوا له عوناً في محاربة العرب الفاديون عليهم من جهة الغرب فلما خان الشيخ ان الاجماع تكامل نهرس في اولاده فاذا احدى بناته نادى لها ناتي فلما استبطأها نادى امرأة قائلة « ابن ماري »

ففتحت الوالدة الجوز وكانت تحسبها مع اخواتها واخوانها ولم تكن بهن برافقه رجوع احد لاعيادها في ذلك على زوجها — فلما سمعته بمالها عجبها بفتحت وصاحت « الم نأت بعد »

قال « كلاماً ... ابن تركموها »

قالت « تركها في المستودع الكبير فوق الراية تفصل بعض الدنان والبرابل وتنقل بعض الجرار الملاينة الى جانب آخر ومعها اخوها بطرس ... » قالت ذلك والفتنت الى ما حوطها ونادت « بطرس » فجاءه الفلام مسرعاً فابعدرتها قائلة « ابن تركت ماري » قال « تركها في المستودع الكبير ... ألم نأت بعد ؟ »

قالت « لا »

ولم تم الجوز قطعاً وتب بطرس من العريش واسرع نحو ذلك التل وهو يقول « أعود بها بعد قليل » وانسح حركة على تلك العجلة شهوره يانه يختلي ، برجوعه وجد دون اخوه

وكان النهر في اخر أيامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة مو gere الا

على اهل الكروم فاذهب يمدون بهمها واعنهم مخففة لا يمدون بعود ولا جر . ولبث الشيخ واهله ينتظرون رجوع بطرس على مثل المجر وهم يمدون خطواه وينذرون الامكنته التي تزّ بها ويجزرون وصولة الى كل منها حتى قدروا انة وصل فاذا هو لم يرجع بعد فانشغل خاطرم صبر والتمهم حتى طال غيابه ولم يعد الى الدار يستطيع ان عبر اماكنه التي تزّ بها ويتوجه الى الماء الذي يحيط بالدار فلما عاد الى الدار فوجدها مفتوحة لا يرى فيها اى اثر ولم تكن المسافة بين العريش وذلك المستودع تزيد على مائة مترا شرقا من جهة الهر وللمستودع مشرف على ضفاف الهر وعلى معظم كروم تلك الناحية

الفصل السادس والخمسون

— وادي ليته —

وصل الشيخ الى المستودع وصعد على السلم الى بايو وهو يلبي من الشعب فاذا باب مغلق وليس عنده احد فدققة دقات كثيرة فلم يسمع جوابا . فقام في الباب وركبته افتادوا فرأى انه موصدة من الخارج على جاري عادتو فترجم عنه ان مارية خرجت منه واقفلته . فوقف في اهل التلم لم يستريح والنفت الى ما حوله فاطلب على مدينة شريش الى ضفاف الهر من جهة وعلى كروها من جهة اخرى والقلام يعني بعض . على انه رأى انوارا على ضفة الهر من تلك الجهة عرف من تبعها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة . ولم يكن يبعد في تلك الجهات انسانا غير اللالحين وعلمه الجنوول وملا ينددون نارا على تلك الصورة . فانشغل خاطرم وهي ضياع ابته ووقف هيبة ينظر الى تلك النيران ويرى اطلاقا في عبرى الهر تلالاً كأنها مصايبج موقة تحت الماء واشعها يهز باهتزاز امواجه . ولولا تلك الاطلاق لم يعرف ان تلك النيران على ضفاف الهر

وعاد الشيخ بفتنه الى وجданو فذكر ابته وضياعها فخطر له ان تكون قد عادت الى البيت او لعل اخاهما عازر عليها في رجوعه . ثم ما لبث ان سمع حركة ركض ومرusherة انسا يزرون بين الدوال الي فالقصت فسمع صوت امرأة وبها بعض اولاده فعلم اهله جاءوا لاستطلاع خبر مارية فكان اول صوت سمعه منهم صوت امرأة

وهي تقول « ابن ماربة » فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدهنه وزاد انتفاح بالو و قال
« ابن بطرس .. هل عاد اليكم »

وكانت الجوز قد وصلت الى أستان السلم فاجابت وهي تندى بدعها الى شخص قدمها
نمتخرج شوكة أصابعها في أناها جربها « عاد بطرس ولم يهدعا »

نزل الشيخ عن السلم حق الذي بامرأته ومعها بضعة من أولاده فقال لهم « يظهر
لي ان ماربة فقدت في أثناء رجوعها من هنا فلتفرق ويسير كل منا في طريق حتى
تدقق في البيت فمن وجدها هنا فليوجهها بالدار حتى يكتفى عن البحث . ولكن
العلامة فيما يهداه اللحظة « يا مار بطرس » ألم أنا فإذا أبصأت بالرجوع فلا تقلوا
لنبيي » فارادت امرأته ان تختفي منه عن السبب فلم يصرخ لجاج كلامها واخذدر غدو المهر
وهو يذهب بين الكروم من تل الى تل يعثر تارة بالعليق وطوراً بالمجمار وهو يطلع نحو
الهر عادة ان يختلي « الجهة لا ينبع الدلال والكلام وكان اذا توارى المهر عن عينيه وراء
بعض الدوالى العالية او وراء الشلال خاف ان يصرخ عن الجهة فبعد المسافة عليه .
على ان المهر قلما كان يغيب عن بصري . فلما قرب من المهر رأى التور على ضفتين ثم سمع
ججعة عرف ابها اصوات الجبال وكان قد سمع مثلها في أثناء اسفاره ولا يبعد لها ميلان
في اسبانيا . فلما سمع الججعة نسم رائحة العرب وادرك انه على متربة منهم وتنذكر ما سمعه
عن زرطم عدو الاندلس فتحقق انه يجانب معسكره ولكنه استبعد مهولة وصومط الى
ذلك المكان

وبعد هذين وصل الى اكبة وقف عندها وترى في ما بين يديه فاذاهو مطل على « هيل »
كبير ينبع الى المهر وعلى الضفة البعيدة خيام تحملها اليران . ورأى على الضفة التالية في
طرف المهل ناراً وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبرون لوهما لشدة الظلام . فلقيت برقة يذكر
في ماربة وضياعها حتى هي بالرجوع للبحث عنها في مكان آخر . ثم حدثنا نصبا بالترول
الي تلك الخيمة واستطلاع خبر هو لاء النوم قبل رجوعه ولم يخف بأساساً ملته في أناها .
اسفاره في افريقية والشام من حمل العرب ورقهم بأهل البلاد التي ينبعونها وكان قد
تعلم بعض الانماط العربية مع غرابة تلك اللغة عنه وبعدها عن لغته . وكانت المئون
قد عملت الشجاعة ورباطة الجأش . فنزل من الاكبة وسار ياتسع تلك الخيمة وهو
يحب لانزداتها هناك مع كلية الخيام على الضفة الأخرى فتبارد الى ذهنه حالاً ان
النوم وصلوا الى المهر في ذلك المساء واخذلا في عوره فاظلت الدنيا قبل انتقام

العبور فاجملوا العمل الى الغد

سار الدبيخ حتى دنا من الحوية فطرق أدنه صوت ارتدت لها فراشة بقية واستهراً
 - سبع ماربة داخل الحوية تتكلم وصوتها مختلف عن البكاء، فلم بعد يحالك عن الوثوب
 نحو الحوية وهو لا يهاب أحداً ولا يعي شيئاً من فرط ما هاج من عياظه خوفاً على ابنه.
 فاقرب من النار فإذا هو بباب الحوية وقد اعترضه رجل وأوقف هناك وقد تلاه سيناً
 ورهاً ورم بالنيق علوي وهو ينول بالعربيه « من انت » فلهم الشیخ مراده فأجا به
 بكلمات مقطعة أنه يريد الدخول إلى الحوية . فاستهل الرجل ربها دخل ثم عاد وأشار
 إليه فدخل الشیخ ولحیته ترتعش في وجهه وكان على شفتيه خدو وياض شعره نجوى الصحة
 والنشاط في عينيه شأن أمثاله من أهل التز و اللامون

الفصل السابع والخمسون

بدر و يولان

و حالما دخل الشیخ أجال بصره في اطراف الحوية للبحث عن ابنه فاذ هو في
 جالسة في بعض جوانبها على الأرض وحالما وقع بصرها على ابنها مع ضعف نور الصباح
 هناك وثبتت بخنو وهي تصوّح « أي اي » فاستقبلها الشیخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناه
 من البهجة والفرح . ونظر إلى صدر الحوية فإذا هناك رجل كبير الحامة عليوة العافية والتجهيز
 نعرف انه من البرير ويجانيو رجل بلباس التوط لم يهدق بو الا قليلاً حتى عرف
 انه يولان صاحب مبنية فلم يستغرب ذلك لانه كان قد سمع باتفاقه مع المسلمين على
 التوط وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة فلما رأه تخنق الامر وابن ان العرب غالون
 لا محالة

مررت كل هذه الحيلات في ذهن الشیخ في لحظة وهو معانق ابنه يخفف عنها ويعص
 صاحب سنته ينول له بلغة الاسبان « أعل هن التهاد ابنك »
 قال « نعم يا مولاي »

قال « لا خوف عليها فانها في امان على كل حال . ولا نظن غير ذلك غير شيئاً من
 عزمها في شأنها . فقد كان الا وبرعايا على ارجاعها اليك آمنة سالمة واما بكاؤها الذي

نراه فاما هو من خوفها . وقد ظلت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكم رودريك . فان يدل هذا الفعل الشنيع سجن سلطانه من بدبو ان شاء الله » قال ذلك فانقضت سجنية اللحال فلم يدرك احد محب ذلك الانتباش . على انه امطرد الكلام فائلاً « لما سبب محبها اليها فان بعض رجال الامير خرج في اصيل هذا اليوم لاجها فرأها في الطريق فجاءها وهو مجدها من قبيل السبابا فلما علم الامير بذلك انكر على وقد كانوا في جدار عيف بهذا الشأن الى سادة دخولك »

ولم يتم بوليان كلامه حتى وتب الى وسط الخيبة شاب بلياس العرب وعلى رأسه عامة صغيرة ولكن سجنية غير سجنية العرب ولا البرارة وهو في متنه العبر شدق المصح من عنقه وجبيه ونظر الى بوليان وهو يقول « اراك احرمني من غيمتي رغبة في مرضاة ابناء جلدتك ..

فأجا به طارق وهو يتمس وقال « لا تجعل يا بدر فاك منصوب كبيراً من القذام فاننا في اول الطريق وغداً نلتقي بجند طليطلة فانهية من الغيبة او السبابا فلن ذلك . اما الان فما نحن في حرب ولا يمكننا ان نعد هكذا النهاية سعيدة . وهذا ابوها شيخ قد طعن في السن وقد رأيت ما كان من هشو عليها قبل ياق بها ان تنفس عيشها بلا حق - والاسلام انا بادعو الى الرفق والعدل . أما السبابا التي تؤخذ بالحرب فهي حلال لاصحاحها . ومن كان في مثل بسالك وجهادك بمذهب أحسن القذام واجل السبابا .. ثم التفت طارق الى الشيخ وقال له « انصرف ايهما الشیخ الى متراك وانت في امان حتى تبلغ اليو . واعلم انا لم نقدم هذه البلاد الا رحمة باهلها وان ديننا يا امننا بالرفق والاحسان فكن على يقون انت وكل اهل الاندلس ان من يكشف عن حربينا فهو في ذمتنا ولا خوف عليه . واما الذين يصررون على مناوئتنا فلاداؤهم الا السيف .. ثم نادي « يا غلام » فدخل رجل يبرر من اهوان طارق فقال له « اصحاب الشیخ واياها حق يصلوا الي ما منها ..

فهم الشیخ بثنييل يد طارق فمعه وطيب خاطره وصرفة . فخرج وهو يبني على ما لاقاه من طارق وقال في ناسه « يدل ذلك يالك الامير الرعية ولا يلهم بالعنف او الظلم ..

اما بدر فانه سكت احتراماً لطارق وفي ناسه حزارة على بوليان لاعتقاده انه هو الذي سمع من غيمته ولكنه كظم ما في ناسه وخرج من الخيمة اخذه لم ياطفو

الفصل الثامن والخمسون

فافورندا

تركا فافورندا وحالها والرجال اجيلا وشانيلا هائين على وجوهم في ضواحي طليطلة . وكان الذهب في ذلك كما علت من ساق الرؤبة ان اجيلا وشانيلا كانا في انتظار فافورندا بعد اسئلتها في تلك الليلة ذاتية المراعي . فلما تيسر لها الاحداث من بين يدي رودريك بعد ان بقى اوس كاتنام اسرعها الى النافذة وحملت ما استطاعت حمله من الديباس وباتوقة صغيرة للسباحة العجوز كانت كبيرة الاستعداد يكرامها محبها بين اتواها والنفت بالقواء وحالها العجوز تساعدها في النافذة . فلما اقترب الاستعداد بقدر الامكان اطلت العجوز ونادت وكان الرجال على اهبة العمل ففصلنا التجربة وتساعدوا على ازال فافورندا سالمة ثم العجوز وما يلي من الامتعة الفرورية ونزلوا جميعاً من الحديدة والرماح بهم والرعد شفف وهم في داخل من المخوف عن كل ذلك حق نزلوا الى القارب وكانت فافورندا توقع ان ترى التونس فهو لانه هو الذي كتب لها ان تزوره اليه . فلما رأت القارب خالي اندفع بالما واصغرت ان تسأل عن خصايتها خالها بالامر فالحدث العجوز الى الرجال وقالت « وابن الامير التونسي » .

فنال شانيلا « لم يأت معنا يا سيدتي »

قالت « وابن هو »

خفاف شانيلا ان يكون في قوله ما يبي « فافورندا لعلها يبيها وبين التونسي من الحب المتبادل . لأن الرجال كانوا قد ادر كانوا سر المجهة التي اندفعها لها او بابا وان كان هو يمسها آلة تصاهي يستخدمها في نهل خرؤو واما يكن التونسي يوم ان احداً مطلع على ما يبيها وبين فافورندا - ذلك شأن العيون حقيقة كانوا - يحب الشاب فتاتوه تحبه ويطول بينها زعن الترداد وهو يحسبان الناس في غلطة عندها وقد يكون بعض الناس مطلعون على كل جملة وكل كلمة ما يدور بينها وأعلم الناس بذلك خدم المنازل فهم يهونونك انهم يستغلون في اعداد الطعام او تهديد ادوات المائدة فذاتهم استرق ما يدور بينك وبين اخواتك

او جلساًتك من الاحاديث السريّة وغيرها بتناخرهن بناقلها الى المبالغة في اعلى ما يتصوّر وعما لهم
خواصِحُ صاحب ذلك الحديث . فان كانوا يجهونه جهلاً سهلاً توهّمات — وإنْفَلَ مَا يجههم فهو
الكرم . ولا ، فانهم يجهلون الحسنة سهلاً — أما ايجيلا وشاتيللا فلم يكونا من طبقات الخدم
وانما كانوا من الاسرى كالمقدم وقد اطاعوا معاين التوبي وفلورندا من الحب المتبادل
وعلا ما كانا يسعّانو من احاديث الحادم ان رودريك ايضًا يجههم . فلما طلب الهراء
او باس ان يذهبها بهذه الجهة ادر كـالمرء وادسما على العمل وهو شديد النزوة على مصلحة
التوبي لانها يذكرها ان رودريك واهل بالاطو وكانا قد رأيا التوبي خارجًا مع الفرسان
بطلب الملك فادر كـا انه سائر بجهة

فلما رأى شاتيللا ما كان من اضطراب فلورندا سويّ الماء عن التوبي وهو ليس
معهم خاف ان يكون في الجواب ما يزعجها والوقت لا يساعد للتهييد فاشغل بالتجذيف
مع اخيو لغوبيل القارب الى جهة بيري البر و كان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح
على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها « نظلي في منزل المتروبوليت
لانه هو امرنا ان نذهب بك الى هناك »

فسكن روعها ولكنها ما زالت مشغولة بالمخاطر اذ لم تكن شوّق ان يكل التوبي
انقادها الى سواه مع ما يظهور لها من الاستسلام في حيرها فاحسست في داخلها بذهاب بارجه
شكٌّ وصبرت تنهار بثناها تلقي بعيدها وتعانه او تشكّلها نفسه — والعذاب احدى تلك بين
الذئوب يزيدها حرارة وتجاذبها

سار بهم القارب و بمطلبون شدة قربة من بيت او باس لانهم كانوا على موعد
من الذئاب البو و معهم فلورندا

قطال لهم المسير في الهر طباجه و اضطربوا و مناقمة الرياح لم ففلاً عن شدة
الظلام وكانت فلورندا كلها خافت خطرًا استجررت بالله و اخرجت الاقونة و قبلتها
في رفاح خاطرها و يطعنن بالما — تلك من ثمار الانيان وليس افضل منه و مبللة انعرية
الانسان — وهي هرّع من الاول قبل نزولهم البر فلما نزلوا تناوروا في ماذا يجب ان
ينعملوه فقال ايجيلا وكان اسرع خاطرًا و اكثر اقدامًا من اخيو « ارى ان تكونوا هنا
واذذهب انا الى بيت المتروبوليت ثم اعود بن يحملونك الاصحاح » فاستصوّب الجميع
رأيه فلحسن حق اشرف على المنازل فرأى حوله فرسانًا من جند الملك فادر كـا فاجمل و تراجع
و قد انشغل بالله في سبب وجود ذلك الجيد هناك . ثم مالبث ان رأى بعضهم يخاطب

او باس فتربيص في بعض المختبات ليسعى ما يدور بهنها فنهم من خلال الحديث
ان الملك يبعث بالقبض عليه . فلم يخامر خوف على او اس لفرط اعتقاده باقتياره —
والناس شدیدو الاعتقاد باقتدار قسمهم وعليلهم وايمائهم . فكل ثلثيذ يعتقد ان استاذ
امير الامانة وان قسيمة اقدس الكتبة وان اباه اقدر الاباء . حق يكاد يكون قادرًا
على كل شيء . ولو لم يكن في هؤلاء من المؤاهب ما يدعوه الى ذلك الاعتقاد . فكيف
ما او باس وهو على ما وصفناه من الهمية والجلال والتعظل . فلم يخامر ذهن اجيلا خوف
عليه فقط ولكنها اوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده ان سبب ذلك القبض ينصل بقرارها
فهذا توارى الركب عنده تحول خلو النصر على امل ان يخاطب بعض الخدم فشيء وهو
يسترق المخجل استرافقا وبحسب الدخول سهلاً بعد ذهاب المدرس فاذا هو ينكوكه
اخرى قد احدثها بالنصر واستقدموا النسوة لخارج الذين فهو حق على الفوضاء
و بالغوا في التحرير والتذيب

فلا رأى أجيلا ذلك أيفن بالخطر الذي أصبح هو معرضاً له هناك وبها يهدد فلورندا من الأخطار الجميسية إذا اطلع الملك على مقرها . فهربوا أجلا مسرعاً ولم يعد له شاغل سوى فلورندا وخصوصاً لما تصور متى لها عند التوقيع باس وكيف جعلتها الاحوال أمينة حبها فعول على بذلك كل ما في وسعه ووضع أخبه في سيل إنقاذهما وسجانيها إلى آخر نسبة من الحياة

الفصل التاسع والخمسون

الكتاب

وكانت فلورندا جالمة على الأرض وفي هجرها صرخة قد انكأّت عليها بكتورياها
الفناء فأشدّد المطر البرد والريح . وكان النعيم قد أخذ منها ما أخذَ عقلياً ناهيك بأمرِ يهاتك
الأولى، من الانفعالات التفيسة وما فائسته من الأحوال وما ماحفظته من النفيحة — كل ذلك
غابَ على قواها حتى مالت إلى العباس وخصوصاً بعد أن ظلت نسراً محبتاً من حبائل
ذلك الرجل الشرير فاستندت رأسها على كتفها وأغمضت جذنيها فنامت . ولما رأيَها

بر بارة ذاته اجازت لنفسها الارتفاع بهبة . أما شاهيلًا فإنه ظل ساهرًا فلما وفدت استبهلا
أخاه وحسب لثيابه الف حساب وربما لامه لا يطأه ومخادرته أيام عرضة للهباء والبرد
وتوهم أنه لذهب هو في تلك الليلة لكن أقدر منه على إثباتها ولما حل العشاء ما قد يفهم
عن الأبطال من الأضرار — على أنه بالistik ان رأى عائداً وحده فذعر لأنفراده فإذا
هو يقول « هل بناس يعاصي يخرج من هذه القواطي الليلة لاني لا احس بالملك الا وهو
بيت علينا العيون والارصاد من صباح الغد »
فافتقت قلورتها من رقادها مذعورة وصاحت « وبلاه وإلى ابن نذهب ...
نفي يا مخلصي ... ابن التونس »

قال « ليس في المترزل أحد يأسديني ... »

قالت « ولا اوس ... هل رأيت التونس هناك ... »
قال « ان التونس لم يكن هناك يا مولاتي ... »

فذعرت وقالت « ابن هو اذا ... يا ملي ... ابن التونس ... وكيف عرفت
انه ليس هناك ... »

قال « لاني رأيت او بآس وهو مموق بين يدي الجيد الملوكى الى قصر الملك ... ثم
رأيت الجيد دخلوا بيته واخرجوه كل من كان فيه من الخدم ولم اسمع ذكرًا لم يبني
التونس بهم فلم يعلم لا يزال في منزله ... »
فقطع شاهيلًا كلام أخيه وقال « ان سيدى التونس لم يرجع الى قصره قبل
خروجنا منه »

قالت « يا ابن ... كان قبل خروجكم ... »

قال « كان قد ذهب بهبة بأمر مخصوص من الملك ... » فذكرت للحال ما سمعته
من رودريك في تلك الليلة عن ايماد التونس وكانت تحسبه يقول ذلك على
سيول التهديد فايقنت عند ذلك صدق قوله ولكنها لا تدرى هل ابعك او حبسه فاعادت
السؤال قائلة « هل انت واثق بذلك وهل تعلم الى اين ... ? »

قال « اني واثق بخروجه من قصره وحوله الخضر الملوكى وما الى ابن ذهب فلا
اعلم ولكن الغالب انه سار في جهة الى بعض البلاد ... »

فعاد اجيلا وقطع كلام أخيه فقال « اظنه ارسل في قيادة حملة الى بعض البلاد
لأخذ ثورة او مخابرة بعض الكوتنة بما يهدى كبيرا في هذه الايام ... ولا يأس عليه

بادن الله وهي استقر بها المدام وأمنا العيون والإرصاد بعثنا عن مكانه وبذلك كل ما يأكل إلى راحتك وراحوا فاما صيغة وإراحتنا .. وإن لا بد لها من مقداره هذه الجهات حالاً .. والقرار من الظلم فضيلة .. ولذلك البحث في مصدرنا إلى وقت آخر — دعونا نرجع إلى النارب ونسير مع غيري المهر حتى خرج من حدود هذه المدينة وإلهما وحراسها في شاغل عنا بالإمطار والرائع . فإذا صرنا في مأمن نجح في الذي فعلنا .. » قال ذلك وندم إلى فلورندا يريد مساعدتها في الدuros فهمست وتحولت إلى النارب وقد عادت إليها مخافتها وتعنتها خالتها وهي تحمل صرة الباب وهي هناك صدوق نعاون الرجال على حمل وزلا في النارب وإخدا في التذيف . وكان التوهد خفًّا وساعدم غيري المهر حتى خرجوا من ضواحي المدينة وأصبحوا في مكان لا يرون فيه أبداً ولا يسمون صوتاً غير نونق الفنادع وكان قدمى معظم الليل فأولوا بال النارب إلى متعاف ورأى ثلة تداروا بهما من الرياح . وقال أجلاً عند ذلك لفلورندا « نحن الآن في مأمن يا سيدتي فإذا شئت الرقاد إلى الصباح لا يأس عليك وكذلك الحاله وإنما نحن فاننا نقاوب المحراسة ربنا يطلع الدهار ونبعد في الجهة التي نسير بها .. »

نامت فلورندا بيته ذلك الليل نوماً ، ضئلاً ، وتركت عليها المبوم فتذكرت حبيبها ومصيري وكيف كان رودر يك سبيباً في تدمير شبلها . وتذكرت والدها ومقدار ثعلوبها منذ حداثتها وماذا عن ان يكون من غضي اذا بلغة خيرها وكم يكون فدلاً وخيبة امله مع صبره على رودريك وأغضاثه عن تعديه على الملك . تحدثها عنها ان تuko امرها اليه وتسجعها على الانتقام طـا . فلما أصبحت تناوات قطعة من شمع كثبت عليها الكتاب الذي تقدم نصه واستدعت أجلاً فونق بين يديها فدقت الكتاب اليه والدع يترفق في عينها من شدة نأثرها وهي تكتب الكتاب . وقالت « لند رأيت من شهامتك وشهامة أخيك هذا ما يوجب مروري وإشتاقني كثيراً وقد وعدتني بالبحث عن النوس وإطلب إليك فوق ذلك ان توصل هذا الكتاب الى اي . هل تعرف من هو .. »

قال « نعم يا سيدتي انه الكونت يولان صاحب سيدة »

قالت « هو يعني هل تسير إليه بهذا الكتاب .. »

فشار يديه ورآ وهو عينه أنا بتعل ذلك من كل قلوب ثم قال « ولكنني أرى يا مولاني

فول كل شيء ان تساعد لازالك في مكان امن اعرف الطريق الى ادا انا عدت
بابواب البك ..

فالنافس فلورندا الى خالتها وقالت « ما رأيك يا خالة ؟ .. ابن تظنين مقامنا
اقرب الى الامن والسلامة ..

وكانت العجوز مطرفة بفالغت في الاطراق ولم تخسب . فاعادت السؤال عليها
فرفعت رأسها وفي وجهها ملاعع البدر وقالت « اهلاً بي هاريت على طريقة لا ترون خبرها
لنا منها في هذه الاحوال ..

قالت فلورندا « وما هي ..

قالت « لا يهمني دلائكم ان في هذه الارض دبوراً ينبع فيها الرهبان عن العالم
بعد الله تعالى وتكون هذه الدبور غالباً في البراري او في الجبال وبهذا لا يدخلها
الناس الا نادراً فالرهبان يتعلمون عن العالم برسمه فإذا أتيتنا في احد هذه الدبور
كان ذلك استرخانا ربيعاً يتوجه امرنا ..

الفصل ستون

دير الجبل

فقدم أجيلاً وكانت تذكر امرأً ذا بال وقال « لقد اذكرني كلام حضرتها
دبوراً للنساء العذاري فالانقام فيها او لم لو لاتي لاها تكون بين عذاري منها .. »
فاطلعت العجوز كلامه وقالت « صدقتك يا أجيلاً ولم اكن جاهلة وجود هذه
الدبور ولكنني لم اتم كلامي بعد أما دبور العذاري فهي موقنة في ولنارندا ولكنها
لا زلتني عن احد كما معنا فابن يتم واقاتنا معهن محظوظة .. » قالت ذلك وصبرت
لحظة وفي ملاعع وجهها اهداهم ساق الكلام ثم قالت « في اسبانيا نوع من الدبور
جامع الرهبان والراهبات مما في دير واحد بدون اختلاط . وذلك ان بعض
الارامل من النساء يرغبن بعد موتهن زوجهن في الانفصال عن العالم والبعدين عن في دبور
خاصة بين وقد يكون معهن بعض العذاري . ولكن فهين بالفن في التشك والرقة عن
العالم حتى يقعن في دبور لا يخرجون منها على الاطلاق . ويميل هذه الدبور كثير في هذه البلاد

ولا أظلكم تجاهلون وجودها . ولكنني أعرف دلائلين هكذا الجبال (جبال طيبة طبلة) منفرداً بعضه للرعيان والبعض الآخر للراهبات وكل حادثة منها في قسم من الدبirs لا علاقة لها مع الطائفة الأخرى ولا مع سائر العالم إلا نادراً . ولا ينفي الراهبات والرهبان معاً إلا في الكنيسة في أوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبة أن الراهبة لا يمكنها خطابة أحد من الناس حتى رئيس الدبر أو وكيله إلا بحضور راهبدين آخرين ^(١) وهذا التدقيق نافع في معن المخطورات — فاري إذا استحسنـتـ فـلـورـنـداـ ان تذهبـ إـلـىـ ذـلـكـ الدـبـرـ فـلـمـ أناـ وـهـيـ فـيـ قـسـمـ الـرـاهـبـاتـ وـأـنـتـ وـاخـوكـ تـقـيـانـ بـيـ قـسـ الرـجـالـ — تـقـيمـ هـذـاـكـ أـخـيـافـ لـهـيـ ماـ يـكـونـ ..

فـلـلتـنـسـتـ فـلـورـنـداـ وـفـدـ أـشـرـقـ وـجـهـاـ وـقـالـتـ «ـبـورـكـ فـيـكـ يـاخـالـةـ لـهـ نـطـلـتـ بـالـصـوـابـ هـلـ بـنـاـ إـلـىـ ذـلـكـ الدـبـرـ ..»ـ هـلـ هـوـ بـعـدـ مـنـ هـنـاـ ..»ـ
قـالـتـ «ـلـاـ أـظـلـهـ يـبـدـ إـلـاـ بـوـمـاـ وـبـعـضـ الـيـوـمـ وـطـرـبـتـاـ الـيـوـغـرـ عـلـىـ مـعـارـفـ

عـلـىـ خـلـقـكـ فـلـتـنـسـتـ «ـهـلـ تـعـرـفـنـ الطـرـيقـ بـنـسـكـ»ـ

قـالـتـ «ـأـظـلـيـ أـعـرـفـةـ وـقـدـ مـرـرـتـ بـذـلـكـ الدـبـرـ مـنـ بـعـدـ بـعـضـ اـعـوـامـ سـرـرـاـ بـهـاـ عـلـىـ خـلـقـ اللهـ ..»ـ

فـلـلتـنـسـتـ فـلـورـنـداـ «ـأـرـىـ يـاـ خـالـةـ قـبـلـ كـلـ شـيـ،ـ اـنـ اـبـعـثـ اـجـبـلـاـ بـالـكـتـابـ إـلـىـ اـيـنـاـذـاـ عـادـ مـنـ بـعـدـ جـاءـنـاـ إـلـىـ ذـلـكـ الدـبـرـ ..»ـ

قـالـتـ «ـلـكـ الـأـمـرـ فـاغـلـيـ مـاـ نـدـائـنـ»ـ

فـلـلتـنـسـتـ فـلـورـنـداـ إـلـىـ اـجـبـلـاـ وـقـالـتـ «ـسـرـ بـحـرـامـةـ الـمـوـلـوـ وـبـقـ رـجـمـتـ نـعـالـ إـلـىـ دـبـرـ الجـبـلـ الـذـيـ سـمعـتـ خـدـرـ وـإـذـاـ اـسـطـعـمـتـ مـعـرـفـةـ خـرـ الـأـمـرـ بـرـ الـتـوـنـ فـانـكـ اـعـذـلـ مـنـ اـنـ اوـصـيـكـ بـالـذـيـ يـنـفـيـ اـنـ تـفـعـلـةـ

فـانـشـرـحـ صـدـرـ اـجـبـلـاـ طـنـاـ الـأـطـرـاءـ وـأـنـجـنـيـ بـيـنـ يـدـهـاـ وـوـدـعـهـ وـأـنـطـلـقـ اـمـاـمـ لـخـرـجـواـ مـنـ الـتـارـيـخـ وـجـلـ كـلـ مـنـهـمـ مـاـ يـسـتـطـعـ حـلـةـ وـأـوـشـلـاـ بـيـنـ الـتـلـالـ وـالـجـبـلـ خـوـ الـجـبـلـ وـدـلـيـلـ الـجـبـرـ وـهـيـ تـسـوـرـ اـمـاـمـ كـمـاـهـاـ تـلـمـيـزـ مـيـلـاـ تـنـهـبـ الـوـكـلـ بـوـمـ ..

قـطـعـواـ عـدـ سـاحـاتـ لـمـ يـنـقـطـوـ فـيـ اـنـتـهـاـ بـعـاـبـرـ وـلـ قـاعـدـ وـأـكـثـرـ الـتـلـالـ الـيـ قـطـعـوـهـ

جريدة الأماكن على جوانب الأودية من شجر مائتى ميل فلما ارتفع بـ
الإنسان وكانت الامطار قد اغرقتها في الليل الماضي وارسلت السبيل فيها - فلما صاح
المجوف في ذلك الصباح واشرقت الشمس حدث بعض الدفع - على ان وعورة الطريق
اعدهم وخصوصاً قلورندا وهي لم تعمد هذه الماشق تاهوك بما في قلها من اواقع الحب
وما يهاديه من المواجه والاشواق

قضوا معظم النهار في المسير وبانوا شانتيلا حارسهم وعوهم في كل ما يهداجمون
اليه من العلام وبحرو ومشوا معظم اليوم التالي ولا حدث لهم الا تكرار ما فات حتى
اذا مالت الشمس نحو الاصل وصلوا الى سبع جبل اطلقا منه على بناء شامي
اشبه بالحصون منه بالديور وظهر لهم لاول وهلة انه على قمة ذلك الجبل فلما شاهدته
الجبور صاحت « هذا هو ... قد وصلنا ولكن لا بد لنا من الصعود »

قالت قلورندا « فلتصعد ... » ولما تأذن لها مبشرة وهرولت اليه - فعلمت ذلك
لدة رغبها في الوصول والاستراحة بإرسال شانتيلا لـ: « طلاع الاخبار من طبلة عن
مصير المؤمن وعن حال اوباس ورأي رودريك في فرارها وبحرو ذلك ». وهرولت
الجبور وشانتيلا بين يديها حتى وصلوا الى الدبر فإذا هي في ساحة في منع ذلك الجبل .
وهو بناء قدم المهد غريب الشكل حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة وربما زادت
مساحة ذلك الدبر على ثلاثة قصبات او اربع وشكله مربع مستقابل طوله نحو خمسين
قدم وسور عظيم الارتفاع ليس فيه من المدافن سوى شارق مستطيل في اعلاه وباب
واحد في بعض جوانب الباب صغير جداً بالنظر الى هول ذلك المور براء الناظر
كالنقطة في الصنعة . وفي أعلى سور ثغر ذلك الباب برج حصين كأنه قلعة وهو
مرقب بقى حارس الباب ^(١)

وقلت قلورندا وحالها وشانتيلا وهم يائون من التعب ويعانون من ظاهر ذلك الدبر
فلما استراحوا قال شانتيلا هل تأذن مولاني بان افرج الياب واستاذن في التزول «
قالت « افعل »

فتقدم شانتيلا حتى وقف بباب فرحاً هو صنع بالحديد تصويناً متهباً وقد استبدل
على بستانه ذلك الحديد من خمامه قرم الماساير التي كانت بارزة فوق سطح الياب

ولا يزد علو الباب على قامة الانسان الا قليلا فتنرس في جوانبه لعله يرى حلته بدقة فلم يجد شيئا ثم وقع بصم على حمل مرسل من ثقب في أعلى الباب نحو الخارج فامستك وشهق فسمع جرسا يدق في الداخل فعلم انه قد اصاب المفع وصبر بعد الدق هدوء فرأى رأسا اطول من نافذة صغيرة في البرج المذكور وقد جللة شعر ناصع اليافع حتى لم يظهر من وجها الا انف بارز وعينان تلألآن في غورين فوقهما حاجبان بارزان وفوق الحاجبين جبين اصبحت لفوطه كالمايازيم او الاخاذيد اطلل الشيخ رأسه ولبس برقه لا يتكلم فلم يصرخ شاهيلا على مكتوبه علموا ما الم بالدورتنا من التعب فصاح فو « أما من ماوى عندكم للتربيه ولو الى حين »

وما اتم شاهيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واخفي و لم يجد جوابا . ولم يمض برقه حتى سمعوا « خربشة » وراء الباب توسموا منها قرب الفرج - وطال زدن الخربشة ثم سمعوا صريرآ فندانوا الى الباب يتوعون فتحة فادا هو لا يزال متقدلا فابثوا ينتظرون فعادت الخربشة ثم سمعوا الصرير ولم يتضح شيء فحملوا الاختصار وخافوا ان يكون وراء ذلك ما يوجب المخوف وخاصة فلورتنا فادها كانت واثقة وبصرها ثابت في ذلك الباب

اما العجوز فقد كانت هالمة على حجر وقد ذابت هبناها على اثر التعب من سير ذلك اليوم حتى كادت تقام فإذا بصرت عزيف امتلأت انباءها فنظرت فرأت الباب ينبعج بشائل كان فاتحة بغير ثلاثة كبيرة . فخللت فلورتنا في مكابها وقدم شاهيلا نحو الباب فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان في ابطاط احواله وهو رداء اشبه شيء بالعبادة يستر بدنه الى الركبة وساقاه عاريان وقد ماء حافتان وقد اصبح احصانها كالعمال لطولي ما مر بها من مصادمة الاختمار والاحتكاك بغير انجذار - خرج الشيخ الراهب وبشك عكار اعنف الطرف قبض على هتفتو بانامل كأنها عظام عارية وقد تصلبت مفاصلها وبدأت من قنة الكتف حتى اصبح يسط تلك الكتف مستحيلا وكأنها خلقت للتبخر على ذلك العكار وما زالت قافية عليو حتى تصلبت وهي منتبطة وكانت تلك العباءة قصبة الاكمام وقد ظهر كوع الراهب وانظم جلد وخشون حتى تصدية اذا نظرت اليه كأنه اخوص القدم - وكان الشيخ فدي عز و هو يدبب على اخصوصه وكوعه



الفصل الثاني والستون

الرئيس

اطل الشيخ عليها وظل فائضاً بالباب فاسرع الجميع الى طوطم شاتيلا فاذا
ترع قبعته عن رأسه وهم يهد ذلك الشيخ قديماً وفعل ذلك فلورندا وحالها
قال الراهن الشيخ « ما الذي جاءكم الى هذا المكان » وفي غنة صوته
خشونة البرية

قال شاتيلا « جئنا نائبين البركة من صاحب هذا الدبر فهل من مانع .. »
قال « كلام ولكن هذا الدبر قيام قسم الرهبان وقسم للراهبات فايها تريدان .. »
قال « كما ننتهيون »
قال « وعلى كل حال فان ذلك راجع الى رأي الرئيس العام »

ثم تحول نحو الداخل وأشار اليهم انت ببعدهم . فدخلوا في ائن فإذا بالباب
يحيط به دهاليز قصور فيه بابان آخران مصنوعان بالمدبر مثلثة . وادتها من الدهاليز
إلى فناء واسع سقنه النية الزرقاء . ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الابواب تدقق ونظروا
إلى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدبر هائلة الارتفاع وهم في باحة مرصنة بالحجارة
الصلبة او لعلها من صخر الجبل تندووا وأحمدت فلورندا كأنها في سجن حسبي

فيشي هم الراهن بعض خطوات نحو اليسار فائضاً الى باب بلي الجدار الذي
دخلوا منه فتحة وادخلهم فيه فإذا في غرفة تمحيطها الى عنة غرف . فأشعار الراهن
إلى الغرفة وقال « هناك دار الاختياف أقيموا فيها ربما اخابيل حضرة الرئيس واخرين بأمركم
فالذى يأمر بوصاير » قال ذلك تحول ببرد المخروج فسمعوا جرساً يدق ورأوا
الراهن حلاماً مع دق المجرس الذى العكار من بين ورسم اشارة الصليب ثم صاح بديوه
على هدره ووقف وقف الاختارم فتعل الجميع مثل فعله وهم لم يدركوا الغرض —
على ان الراهن ما ليث ان الفت اليهم وهو يقول « لا سبيل لها الى مخاطبة الرئيس الا ان
لان الصلاة قد آن وقها وتزل الجميع الى الكنيسة وانا ذاهب ايضاً وبعد الصلاة نرى
ما يكون »

فَلَا سَمِعْتُ فَلُورِنْدَا ذِكْرَ الصَّلَاةِ اشْرَحْ صَدْرَهَا وَنَذَكِرْتُ مَا كَانَ مِنْ عِلْمِهَا
الْحَارَةِ مِنْ بَضْعَةِ أَيَّامٍ وَكَيْفَ اغْنَدَهَا اللَّهُ بِهَا . فَنَقْدَمْتُ إِلَى الرَّاهِبِ وَهِيَ تَخَاطِبُ بِهَا
الْعَذْبَ وَصَوْبَهَا الرَّحِيمَ « لَا يَدْوِغُ لَا حَضُورُ الْفَدَاسِ وَلَا قَاعُ الصَّلَاةِ يَا سَيِّدِي . . . »
فَالْأَنْ « الصَّلَاةُ لَا تَجْبَ عَنْ مُوْهِبِي وَالْكَبِيسَةُ لَا تَنْأَلْ أَبْوَابَهَا عَلَى أَمْدِي . . . »
فَهُنْشَى الرَّاهِبُ اِمَامِهِمْ وَمَمْ يَتَبَعُونَهُ فِي وَسْطِ تَلْكَ الْبَاحَةِ حَقَّ اِنْهِيَّا فِي صَدْرِهَا إِلَى
بَابِ كَبِيرٍ وَقَبْلِ الْوَصْوَلِ إِلَيْهِ اِشْتَهَى رَائِحَةَ الْبَخُورِ فَعَلَمْتُ إِنَّهَا بَابُ الْكَبِيسَةِ . فَنَادَهُمْ
وَدَخَلُوا مِنْهُ فِي أَثْرِ الرَّاهِبِ فَأَطْلَلُوا عَلَى مَذَاجِهِ فِي صَدْرِهِ . وَقَدْ قَسَّمُنَّ الْكَبِيسَةَ إِلَى
شَطَرَيْنِ شَطَرَ لِلرَّاهِبَاتِ وَشَطَرَ لِلرَّهَبَانِ . فَهَدَمَ الرَّاهِبُ إِلَى مَكَانٍ وَقَنَعَنِي نَبِيُّ الْإِسْلَامِ
الْفَدَاسِ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَخَشَّعًا فَلُورِنْدَا — فَكَمْ قَرْعَتْ صَدْرَهَا وَكَمْ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى
الْمَيْدِ الْمَسِيحِ أَنْ يَهْبِي خَطِيبَهَا مِنَ الْمَالِكِ وَيَعْرِيَ إِلَيْهَا سَلَامًا
فَلَا انْفَضَتْ الصَّلَاةُ قَارِفَسْ» الْجَمِيعُ فَتَرَجَّمُ الرَّاهِبَاتِ مِنْ بَابِ وَالْرَّهَبَانِ مِنْ بَابِ أَخْرِ
وَعَادَ الرَّاهِبُ الْبَعْزُ بَلُورِنْدَا وَصَاحِبُهَا غَوْ دَارُ الْأَخْبَارِ . وَلَمَّا وَمَ خَارِجُونَ إِنَّ
فَلُورِنْدَا اسْتَقْرَجَتْ مِنْ جَوْبِهَا نَذَارًا وَضَعْنَاءَ بَيْنَ يَدِي الْإِبْرَوْنَةِ الَّتِي كَانَتْ تَصْلِي اِمَامَهَا وَرَأَى
الْقَدْ أَصْنَرَ لَامِعًا فَاسْتَدَلَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَخْبَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَزْرَوَةِ وَرَبَّا تَبَرَّعَ إِلَيْهِ
كَثِيرًا لِصَدْوقِ الدَّبِيرِ فَرَاقْتُمُ الْأَهْلَ دَارُ الْأَخْبَارِ وَهَرُولَ رَاجِمًا وَهُوَ يَتَوَكَّلُ عَلَى عَصَمِ
حَقِّ إِلَى الرَّئِسِ وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ قَدْوَمِ هُؤُلَاءِ الْفَرَبَاءِ إِلَى أَنْ قَالَ « وَبَلَغَهُ
مِنْ قِبَلِهِمْ وَطَبْعَةُ لَسَائِمِ اِنْهِ مِنْ أَهْلِ طَالِبَةِ وَبَوْدَ ذَلِكَ مَا رَأَيْتَ مِنْ كَرْمِهِ فَهُلْ
تَاذِنُ لَمِّنْ بِالْجَنِيِّ إِلَيْكَ . »

فَقَالَ الرَّئِسُ « بَلْ أَرَى أَنَّ أَذْعَبَ إِنَّا لِهِمْ »

فَقَالَ ذَلِكَ وَبِهِضْ وَعَلَيْهِ رَدَاءُ يَسِيطُ إِبْرَاهِيمَ كَكَةَ أَرْقَنَ حَالَأَنْ مِنْ رَدَاءِ الرَّاهِبِ الْبَوَابِ
وَهُوَ عَبَارَةُ عَنْ عِبَادَةِ اطْلُولِ فَلِيلَا مِنْ ذَلِكَ وَقَدْ شَنَطَقَ عَلَيْهَا جَبَلُ وَاحِدَنِي تَعْلَمَ مِنْ
خَشْبِ وَعَلَى رَأْسِهِ شَبَّةُ سُودَا . وَكَانَ الرَّئِسُ كَهْلًا بَادِنَا رَبِيعَ النَّافِمَةِ حِنْنَ الْطَّلَمَةِ
صَحِيفَ الْجَسْمِ نَبْرُ الْبَهْرَةِ وَكَانَ كَثِيرًا المَطَالِمَةِ وَالْبَحْثِ فَصِيفَ اللَّسَانِ — ذَلِكَ مَا رَفَاهَ
إِلَى درَجَةِ الرَّثَانَةِ وَهُوَ كَهْلٌ وَنَحْتُ حَكِيْوُ عَشَرَاتِ مِنَ الرَّهَبَانِ مَعْظَمَهُمْ شَوْخٌ مِثْلُ رَاهِبِهَا
الْبَعْزُ . وَالْأَرْنَقَا . فِي رَتِبِ الْكَهْنَوْتِ يَقْلُبُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهِ وَخَدْوَمَا فِي الرَّهَبَانِ أَذْ
لَا تَأْثِرُهُنَّكَ لِدَالَةِ الْفَرَابَةِ أَوْ تَفَوَّذُ الْعَصِيرَةِ وَالْكَلْمَوَادَةِ فِي الْأَغْرِيَابِ وَالْأَعْتَالِ لَا يَنْهَاشُونَ
بَارِثٌ وَلَا يَصْنِعُهُ وَكُلُّ مِنْهُمْ نَصِيفَةُ مِنْ أَجْنَهَا وَدَسِيْرِ وَأَفْنِدارِ . فَإِذَا أَرْقَنَ رَاهِبَ إِلَى

الرثانية او نحوها مع صفر سو كان ذلك دليلاً على امتهانه عن رفاقه في ما يوصله الى تلك الرتبة . ويغلب في هذه الاحوال ان يكون السائق محسوداً او مكرورها . اما رئيس دير الجبل فذلك كان في الفد من ذلك بالنظر لما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم المخلق بدلليل الله لما سئل عن عبيه اولئك الضيوف البو تبرع ان يذهب هو اليهم يتضمنه مجاهدة ونطلاها

وكانت فلورندا مذهادة من الكيسة جالة على مقعد في احدى غرف الصياغة وقد هاجت انجذابها وتنهى ذهابها للتذكر في التوين فاستقرت في المواجه والجوار الى جانبها صامتة لا تكلم وقد غالب عليها العاس لزوم النعم وشاتيلا ظل واقفاً بالباب ينتظر رجوع الراهن وكانت الشمس قد أشرفت على الغروب . ولغيب الشمس في المجال هيبة ورهبة وخصوصاً حيث يقل الناس

الفصل الثالث والستون

٢٥٠ حديث حديث

فلم تمض برهة حتى اقبل الرئيس وبيك رق^{*} كان يطالع فهو ما كللة الراهن . فلما حلقة شاتيلا تأدب في وقوته وحالما وقع نظاره عليه توسم فيه رجلاً يعرفه او انه يشبه رجلاً يعرفه . على انه لم يكن يستطع اعمال التذكر في تلك القرصنة الضيقه . فلما دنا الرئيس من دار الاختيارات اشار شاتيلا الى فلورندا اباه أنت وتقديم هو حق جداً بين يديه وتناول اناملة فقيها الرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك الهدى الباطل . ولما دنانير الباب خرجت فلورندا لامتنابه وجيئت وقبلت يده[†] وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل النساء لم يعن نظاره فيها على جاري العادة في من يهادبها دب من الرعبان . على انه مالبث ان جلست بين يديه حتى تذكر انه رآها قبل الان فقال لها « العمل هذه المديدة والدقتك »

قالت « كلاماً بامولاي بل هي خالي .. » قالت ذلك واستعادت باش من تلك الاسئلة وخافت ان يسألها عن اسمها ونسبها ولا مندوحة لها عن الجواب الصريح لانها



علي تمازو على أنها لم تصرح له بكل شيء وإنما قالت له «خن من طليطلة وقد سرجننا للخلص من أناس أرادوا اغتيالنا فلم نجد فرجاً في غير النرار» فقال الرئيس «ولماذا لم تبلغوا إلى جلاله الملك فإنه الموكل بمصر المقاطلين . . .» فلم تدرك فلورندا بذا تجربة وأدرك الرئيس تلبيتها فتوص شهاداً أحباً إن يقف على حقائقه فقال «يظهر أن الملك أيفاً من جملة ما تخافونه . . .» تحدثت العجوز للبيهاب وقالت «نعم . . . ولماذا الكفان . . . بل كل خوفنا من الملك نعم . . .»

فيحدثت فلورندا لهذا الصربي وكثيراً أهلانت لاعتقادها على سر الاعتراف وهو متدس لا يباح به . وسلط الرئيس لفتها تحول وجهة أمثلتها إليها فقال «ومن هو الرجل الذي جاء معك؟ . . .؟»

قالت فلورندا «هومن اتباع بعض أهلاً»

فأبايس الرئيس وقال «إيس هومن اتباع الآباء التونسي . . .»

فلا سمعت فلورندا ذكر التونسي بعنة تصاعد الدم إلى وجهها حتى كادت تختنق وتلطم لسانها والتقت إلى خالتها كأنها تتوقع مخرجًا من عندها فإذا بالجوز تقول «على يا مولاي أنه من خدم الآباء التونسي بن غيططة ملك الآباء السابق . . . وهل عرفة؟»

تقول وجهاً الرئيس من الآباء اسم إلى الآباء ضد حالاً ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال «نعم أعرف غيططة وأعرف أولاده وكل أهله ومن من كهنة أسبانيا لا يعرف آباء المتروبوليت أو باس ومن لم يستند من عظامه أو قدريته أو حكمته أو درايته — ذلك الرجل الذي لا أظن الزمان يجود بهلو ولكن»

فلا سمعت فلورندا أطراها، أو باس أهلاها إن الرجل مبال إلى حرب الملك السابق فلا خوف منها على سرها وأكثروا لحظتهم أنه يجادل أن يكتشفيها بما في ضميره للنبي الذي خاتمه هي في مكتشفيه لولا الاعتراف فعوّلت على استبعاد حقيقة رأي الرجل وهي في مأمن على ما تقوله في ظل سر الاعتراف فقالت «لا تدرى أين هو أو باس إلا»

قال «كلاً . . . وأين هو»

قالت «أنت سوق إلى الجن منذ يومين»

قال « ومن ساقه .. ومن يتعجب أن يخاطب بدل ذلك .. ».
 قالت « ساقه الملك رودريك - بعث إلى بيرو بكوكبة من النرسان أخرجوه من
 فراثة .. ».

فوقت الرئيس مذعوراً واظهرت على وجهه امارات النصب وقال « ساقه إلى الجن ا
 أ مثل او باس الجن .. فبح الله الجحول ... كيف تغراى على من ينافر النقيل وكيف
 خاططيه بغدر الاخترام والتبجيل ... ».

فتحتام فلوراندا عدذلك ان الرئيس من مرادي او باس واملونات غنمها الى
 استجادة او مشورته في أمر التونس وأكملها استعانت فاطرقت فنتاولت خالها الحديث
 عنها وقالت « والتونس .. هل تعرفنا .. ».

قال « كيف لا وقد عرفنا منذ طلوبه وكثيراً ما كنا نتنفس .. في طليطلة أيام
 المهاجم والإعداد على عهد المرحوم أبيه ».

فوقت العبور ونظرت إلى الرئيس نظر المترس وقالت « أما وقد برح الخد .. فالخبرك
 ان الفتاة التي تراها بين يديك هي خطيبة التونس .. فراراً ملك طليطلة ان يحررها
 بالقنة فنذفها في مهنة الى أقصى بلاد الاسبان .. فلما رأت عزم موقفه مراءه خرجت من
 قصره فراراً ثم علمت ان رودريك الذي التقى عليه اوربا لانه ساعد على إنقاذها من
 بين مخاليق .. هنئ واقعة الحال كما هي وانت وشانك .. ».

الفصل الرابع والستون

— مهنة جديدة —

فيدرس الرئيس في فلوراندا وقال « اليمت هك بنت يوليان حاكم سبتة .. خطيبة
 التونس اني اول الشاهدين على خطيبها وقد كان اهلها يخدتون خطيبتها الى التونس
 وها طنلان لم يحصلها او اوربا ولعله ذلك الخد فكيف يتغير رودريك على جلو .. ».
 فلما سمعت العجوز كلامه نذكرت اهها كانت تراه يتزدد الى قصر طليطلة على
 عهد غريبطة بلباس غير هنا اللباس فقلت « المست الا بسر جبوس ».

قال «انا سرجوس وكنت كائناً اتردد على طاولة طاولة بال匕ابة عن هذا الدبر فلما رأيت الدسائين انماضت ضد المرحوم في عاشة ولم اجد سبلاً الى نصرة اقمت في هذا الدبر حتى توليت رئاسته . ولو اطاعني او ياس لافتنا هنا معاً في امن وسلام ..» ثم افت الرئيس الى فلورندا وقال لها «كوني مطاعنة يا ابيتي ان سرك محافظ بشر عينة واعلي اني نصیركم ونصر او ياس في كل شيء .. ساختكم كم قلت له دع طاولة وتعال الى هذا الدبر نعبد الله فيه ونبعد عن دسائين العالم وشروع اهل المطاعم وعدنا من المؤونة والاموال ما يكفيها طول العمر فاني الابقاء هناك . واظنه بي لرعاية اباء اخيو وخصوصاً التونس ..» ثم اطرق وهو رأسه وقال «فأواس في العين الآن ..»

قالت فلورندا «علينا انهم ساقوا الى العين ولا ندرى سبب ام فالوه وكان به عزماً بعد تزولنا في هذا الدبر ان نبعث هذا الشاب الى طاولة رئيس الاحوال ويعودلينا ..»

فقطع الرئيس كلامها قائلة «لا .. لا يصلح هذا لذلك لأنهم يعرفونه ويعرفون انه من اتباع الامير التونسي او المتروبوليت او ياس وربما قضوا عليه وسموه او قتلوه . دعني بذلك التي فقد اصبح الحيث في هذا الامر من واجباتي .. كونوا براحة فدائماً تicker الاخبار صاغرة» قال ذلك ونهض وهو يقول «وقد آن لكم ان تستريحوا من عنا الصفر واعلموا ان الدبر بن فهو طوع اشارتكم لاننا جميعاً صناعة الملك غريبطة ونحن وقف على خدمة ابوه وكل من يلوذ به فهل تقيمون في شعار الدبر الخص بالراهبات وبهي خادمكم شانتيلا في هذا النسم ام تفضلون البقاء ، بما في هذه الدار ولا تدخل اليها احداً سلطكم» ففهمت فلورندا وقد احست بحمل ثقل زرل عن عاتقها وشكرت الله لانه استجاب صلواتها وملئت آمالها بقرب النرج فائت على الرئيس سرجوس وقبالت يده واستشارت خالتها في الاقامة فقالت «أرى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشانتيلا معنا حتى نرى ما يكون ..»

قال الرئيس «ذلك لكم ..» ثم خرج وكانت الليل قد سدل ثانية واورد الزهبان برواماً في بعض جوانب تلك الباحة للاء دفاع او الاستمارة وكان شانتيلا قد اخبط بالزهبان وتم يسألونها عن احواله ولا يسمعون منه جواباً ملبيداً . فلما خرج الرئيس من دار الاضيف سكت الغوغاء وتداخلت زهبان باعداد الطعام وبعث الرئيس الى

قيم الدبر وامن ان بعد الالاخيرات ما يحتاجون اليه من الطعام وسائر لوازم الراحة
صعد الرئيس الى غرفته وهو في امر هام من قبيل او باب لانه كان مجده ومهمنه
ويغادر عليه مثل كل معارف او باب لما علمت من تنقله ورثاثه واباوه . فعاد يذكر
في سبيل الى انقاذه . ثم تذكر انه ليس على يديه من خاتمة حاله فعول على ان يقول
البحث عن ذلك بنفسه . وكان سرجيوس لم يذهب هذا العام الى طليطلة في عيد الميلاد
لحضور النساء الاعظم وهيئته الملك لشاغل خصوصية افتضت خلاه — ولم تكن
هي لتنقضي ذلك لو لم يكن هو والا الى الابتعاد عن الملك وحاشيته لما في نفسو من
النوبة الحبيطة فقد كان حاضراً في الجميع الذي دبر استبداله برودر ياك ولم يكن استبداله
من رأيه ولكنهم غاروا على رأيه بالاكثرية . ثم اصبح يهاف الناظر بما يعتقد انه لا يزال
غافب الملك ولم يكن يحمل مشاهدة ما يغادر اعتقاده فجعل قدوة على طليطلة نادراً
فلا اقبل عيد الميلاد الاخير تعامل بما يبعث عن القドوم . فلم ير شيئاً ما حدث لواباس ولو
كان هناك رهباً شهد محاسنه وسمع جهتها وان كان حضوره لا يمنع او باباً شيئاً لانه لا يستطيع
النيل على حزب الملك وملاكيه

خطر سرجيوس ان يذهب الى طليطلة بشهوته فيعذر للملك عن تخله في العيد
ولكنا خاف ان يهبه او يشك في سبب قدوته واول من يهبه شكوكه الاب مرلين
فانه لا يهتم عن مثل ذلك . فرأى تاجيل الزياره الى يوم رأس السنة فذهب لمعايدة
الملك عن العيدين ولا يكون ثمة ما يدعوه الى ذلك في سبب ذلك القدوم — ولكنه
لم يكن يصر عن استقلاله حال او باب طول هذه المدة فعول على ارسال راهب
يستطيع ذلك من حاشية الملك من غير ان يشاهد او باب او يسمع كلامه — فذهب
سرجيوس معظم الليل في امثال هذه المواجه

الفصل الخامس والستون

غرفة الرئيس

فلا اصبح بهت الى فلورندا وكانت قد بانت تلك الليلة في راحة على اثر ما فاصنته
من تعب البدن واضطراب العواطف وخصوصاً بعد ما آتته من الرئيس سرجيوس

ما آنسة من الشعور بها والغم على مساعدتها — وادافت في الصباح على صوت الخبر فنهضت وأخذت بهم بالذهاب الى الكنيسة وفيها هي في ذلك سميت وقع افدام بجانب غرفتها خالفاً ما تعلمه من وقع خطوات شاهلاً . ثم سمعت تزعج الباب فنهضت خالها وفتحته فرأى راهباً لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال ان « حضره الرئيس يدعوكاً اليه .. »

فغضبت والراهب يسر امامها فلورندا تقول في نفسها « لم تخض ايام ثانية بعد ... أظن الرئيس غير عزمه عن مساعدتي »

ومشي بها الراهب طول تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات صعدوا عليها الى سجدة طرق الراهب بابها ودخل قبل ان يؤذن له بالدخول ثم عاد ودعا فلورندا وطالها فدخلها فاذا ها في غرفة بسطة الفرش حصبة التربص في جدرانها اصناف من صور القديسين مختلفة الاشكال والاقدار وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصوري رومية نقل ام حادث الاخجل مثل ولادة المسيح في بيت لحم وعاده في بحر وصلبه وصعوده الى السماء . فلما اطلت فلورندا على الغرفة الشرح صدرها تلك المناظر وتأثرت لهااناً ثرثراً عظيماً لما فطرت عليه من الفتوى والورع وقد زادتها المصائب تسكناً بحمل الدين — فخفقت عدد مخومها تلك الغرفة ملأ خدمها عدد دخول الكنيسة لخف الرئيس لاستقبالها ودعها للجلوس فلم تدرك قبيل الجلوس من تقبيل ايقونة المسيح المصلوب كانت قرينة من موتها ثم جامت فاجدرها الرئيس فائلاً « لم يبق بينا حجاب وقد اطلع كل منا على اسرار آخر فلتمسح الكلام صرحاً . وعدتك يا فلورندا ان استطاع حال او باس عنك وكانت عازماً ان اترك ذلك بمنفي ثم خطر لي ان ذهابي الى طليطلة اليوم بعد ان خلقت عن حفلة العيد يدعو الى الشك وربما آآل الى عرقنة معاينا فرأيت ان اوّل ذهابي الى رأس السنة وهو قربك فما قوله .. ? »

خفق قلب فلورندا وعدت ذلك الناجيل فالحمة العراقيل وبدا اثر ذلك في وجهها ولم يخف اشعارها على الرئيس فاستأنف الكلام قائلاً « ولكنني مرسل احد الرهبان اليوم لينفذ المأمور من حاشية رودريك فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابي الى طليطلة .. »

فاطلآن بال فلورندا واكتفت باهتمام الراهب وارادت ان تبرهن له ما تود الاطلاع عليه من امر المؤمن فضلاً عن او باس ثم في تrepid ان تعرف رأي رودريك

في فرارها وهل هو مشدد في البعض عنها ولكن الحياة منعها من الكلام في هذا شأن صريحًا فقالت « اذا كان الراهب الذي سنتدبه بهمَا وإنما بالتحليل اللازم كان ذلك خيراً من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء ... »

فقال الرئيس « فليبحث في ما يطلب الاطلاع عليه ... »

فقالت الجوز « لا اخفي عن مولاي الرئيس المترم ان ام النطف التي يطلب البحث عنها انا هي او ببس وحالاً ثم يهمنا الاطلاع على رأي رودريك في فرارنا لانا فررتنا من قصره رغم اثنو . ثم نحب الاطلاع على المكان الذي يبعث اليه الامير التونسي ... »

قال « فهمت المطلوب وساوصي الرسول به ونظلنا يعود علينا بالخير اليدين ... »

فهمشت فلورتنا قنبلات يد الرئيس وكذلك فعلت الجوز واستاذها بالذهاب رغبة في تارع سرجوس لنهاء تلك المهمة . فاذن لها فانصرفنا

اما هو فنان هنـق فجـاء الراهب الذي يتولى خدمـته فاعـمر ان يـحضر له راهـيـا سـاءـ

فجـاء ذلك الراهب وكان لـاهـيـة كـبـرىـ وـكـبـرـاـ ماـ كانـ يـكـاشـفـهـاـ فـيـ نـسـوـهـ دـرـ روـدـرـيكـ

فاـواـصـهـاـ يـطـلـبـ الـاـطـلاـعـ عـلـيـ وـاسـفـهـاـ اـسـرعـ فـيـ الرـجـوعـ

الفصل السادس والستون

حقيقة الحال

فما زال الراهب على ذاته من دباب الدبر وعليها الخرج كأنه منصرف الى المدينة على نية الاستبعاد ما يهـاجـهـ الـوـاـهـيـ اـهـلـ الدـبـرـ منـ الـاـدـوـاتـ وـالـاـنـتـهـىـ وكانت عادة ذلك الدبران برسل رسولاً مثل هذا الشأن مرتين او ثلاث مرات كل سنة . وقالـتـ انـ يكونـ ذلكـ فيـ الصـيفـ لـاهـمـ يـنـضـلـونـ الـكـنـ فيـ النـيـاهـ كـاـ يـنـعـلـ سـائـرـ اـهـلـ الجـيـالـ

على ان ذلك لا يـعـدـ خـصـومـ الـمـدـنـ فـيـ هـذـاـ النـصـلـ

فـيـ رسـولـ الدـبـرـ فـيـ مـيـهـوـ خـمـسـةـ اـيـامـ عـادـ فـيـ خـامـسـهاـ وـكـانـ فـلـورـتـاـ قدـ مـلـتـ الـانتـظـارـ وـحـبـتـ تـلـكـ الاـيـامـ اـجـالـاـ . وـكـانـتـ فـيـ النـيـاهـ الـانتـظـارـ صـعـدـ بـعـدـ خـالـيـاـ وـشـانـيلـاـ

الـمـطـلـعـ الدـبـرـ تـشـرـفـ مـنـ عـلـيـ الـاوـدـيـةـ وـالـفـلـلـالـ لـاهـمـ تـجـدـ الرـسـولـ عـادـاـ . وـفـاقـ صـنـاءـ

الجبر ومساك المطر كل تلك المرة فكانوا اذا جاصوا على المطح اطلقوا على جمال اكثروا عار من البنات الاخضر وبعض روؤها وكيفما يكتنوا بالالام وكانوا يشاهدون القباب في كل مساجد يختي الاودية بحسب الناظر بغير اشلام او اوجه ومحبب ما يبرز في وعلو من قمم الجبال جرارا ينصل الماء اليها . فاذما حي الجبو قبل الظهر عاد القباب بخارا وعادت تلك الجمر جبالا . فكانت فلورندا تعامل نعمتها في اثناء تسلط القباب ان يكون الرسول على مفتربة والقباب يمحجه عن بصرها

وكانت تمنانس بذلك الشيخ اهرم سواب الدبر لان غرفته او برجه يستطرق الى المطح فيخرج في بعض الاحيان فيهمها ويتص عليها ما مر و من الغرائب في اثناء عمر الطويل وفي ترناح الى ساعه حدثه لانه على شيجوندو لم يكن يكثر الكلام الذي لا يلذ الساعدين ولو كانوا شيئا

في اصول اليوم الخامس رأت وهي على المطح راكبا اهل من بين اكتون لم يقع بصرها عليه حتى علمت انه الراهب فخاف قلها ونادت خالها قائلة « ها قد اني فليس الى الرئيس لسمع حدبيه »

قالت « هل بما اليه » وتحولوا نحو غرفة الرئيس وكانت جالسا ببابها يطالع في درج باللغة الاليزية فلما رأى فلورندا والجبور فادمتين بهض لها ورحب بها فقرأ على محيا فلورندا ايات الدعشه والتفاني فادرك انها تكتم شيئا فقال لها « خيرا يا بنتي - ما الذي حدث »

قالت « ارى رسولك فادمتا فاستدعو لسمع حدبيه »

قال « وهل اتي .. ؟ اني اشد فلانا سك في انتظار ولا اقرب منه الكتب الا تعللا وتشاغلا » ونهض ل ساعده وارصي خادمه ان يسرع في استئنام الرسول فهرب الرجل وعاد بعد قليل والرسول في اثره وهو لا يزال في قيافة السفر . فلما وصل سلم وبارك وجلس فقال له الرئيس « قص علينا ما رأيتها على عمل واينا باوباس »

قال الراهب « اما حضره المازرو بوايت فإنه مسجون في سجن على حلة .. »

قال « وما سبب سجنه .. »

قال « اتهم من بالمواطنة على خلع الملك وحاكم في جميع الاساقفه

قطع الرئيس كلامه قائلا « وكيف ذلك ولم نسمع بالثبات ذلك الجمجم

قال « فعلوا ذلك العباس للسرعة فأنف الملك مجمعا من الاساقفة الذين كانوا

طلبللة يوم العيد . . .

قال «وماذا كانت نتيجة الحماكية . . .»

قال «لا دري ولكنني سمعت ان المتروبوليت ابدى من الدهالة والجهل في أثناء الحماكية ما أقمع به اخلاقه . . .»

وكانت فلورندا تطأول بعنادها لسانع قول الراهن وتود الوصول الى خبر التونس فقال الرئيس «وهل تفان تلك النية في محابا . . .»

قال «هل أقول كل ما يجيئه . . .»

قال «نعم قل . . .»

قال «بلغني من أهل التصر الملوكي ان لها كمة المتروبوليت او باس سبباً سرياً لم يطلع عليه الا نفر قليلون . . .»

قال «وما ذلك . . .؟»

قال «بلغني ان الامير التونس كان حاططاً لشأن من أهل التصر الملوكي وان رودريل سابقة عليها وارادها لنفسه فوجدها او باس على ذلك فغضب عليه واراد الانتقام منه»

قال الرئيس «وماذا عم بالتونس وخطبه»

قال «اما التونس فقد أرسله الملك في مهمة حرية الى بلد بعيد ليخلولة الجبور فكان ذلك سبباً لتدخله او باس .اما الخطيبة فقد بلغني انها فررت من طبللة والناس يمتهنون فرارها من التصر الذي كانت فيه والحراس حوله .اما الملك فقد اشتد خطيبه على تلك الفتنة وعوّل على الانتقام منها حالما يظفر بها»

قالت الجووز «وكيف يظفر بها قاتلها قاتل في . . .»

ولا نفان الراهن لم يلاحظ من قرائن الاحوال ان تلك الفتنة هي الخطيبة النار؛ ولكنه تجاهل معبارة لا اراده الرئيس فقال «أ كذلك في العارفون ان الملك ربط عليها الطرق وقام الارصاد وبث العيون في كل ارجاء المملكة ولا يكاد يمر يوم لا يحملون الى قصر قادة او فنيات من يمتهنون عليهم في أثناء التنبيش فإذا وقع بصمه عليهم اطلق سراحهم اذا لا يرى تلك الفتنة بهم . . .»

فلا يسمع فلورندا ذلك اضطراب قلها لا اول وملأ ثم شكرت الله الدخولها هنا الدبر وتوفتها الى ذلك الرئيس الحب وعلقت على البناء هناك حتى يعود أجيلاً من عبد والدها . ولكنها أحبت المقال عن مقر التونس فاوياً الى خالها ان تعال

عنة فقالت « وهل عرفت المكان الذي ذهب اليه الامير التونسي » . . .
قال « لم استطع الوقوف عليه صرها ولكنني سمعت ان الملك اتفق مع فرقه من الجند
الي اسفة . ولم يتحقق ذلك بما نأياني لم ادقق الجث عنه » . . .

فأوْيَا الرئيس الى فلورندا ان تكفي بما قدم ربنا بتحقق هولالذهاب الى طليطلة
والبحث عن كل ذلك . فمكنت ثم وقف الرئيس وصل ملة وجزة فلما فرغ انصرفت
فلورندا وهي خارقة في برج الدايل لاسمعنة عن او باس وجنه وعن تنديد روبيك
في البحث عنها فلم تزد مادحة عن البناء مستدرقة في ذلك الدبر لنرى ما يأتي به الندر .
على اها عالت نسها بالاعلاع على تناصيل اخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة

ولكن الطريعة ابت الاً مما كتبها فتغير القلب وتوالت الاهثار وتکاثرت الشلوج حتى
سدت طرق الجبال وانقطعت الدايلة فعمت الرئيس من المتر اياماً عديدة وهو
قادد على مثل الجسر فكيف بالفلورندا والجسر ينعد في قلبها وفي رأسها . وخصوصاً بعد
ان مفى شهر ويس الشهرين ولم يرجع ايجلا من مهمته الى والدها فزاد اضطرابها
وتقاوع قلبها وانتبهت نسمها حتى تصورت الدنيا سدت في وجهها — فقد ضاع
خطيبها وانتهدت عن والدها وبحن تصيرها واصبحت طربة شريرة ثم سينت الى ذلك
الدبر فاقامت فيه قيام الحبرون في الجحون . وما كادت قرار يتصدر ذلك الرئيس
حتى حالت الطريعة دون خروجه وافانت بينه وبين طليطلة مددداً من الالج . على اها
كانت اذا تراكمت عليها المدوم وغشت بصورتها الموبدا . بلأت الى الصلاة فاذا
صلت انفرجت كربها وعادت اليها آمامها . فاذا فرقت من الصلاة وكان القلب محظياً
صعدت الى السطح مع خالها تعلق الى الطرق البعيدة لعلها ترى شيئاً فادماً يوم
من قدومه فرجعاً . ولكنها لم تكن ترى سوى جبال من الثلج متصلة الى بباب الدبر ولولا
انشقاق الرهبان بحرفو في كل صباح لغاب كلها فيه

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعدها خيراً ويربها ابواب الترج ومرجع
كلامه الى ثقة الكجرى بعقل او باس وحسن درايه وعظم سلطته على المقول والملأوب .
ولم تكن هي اقل منه ايجاماً فيه لانها شبت وهي لا تسع اسم او باس الاً متنوعاً بعبارات
الاطراء والتجليل حتى خليل ملائكة قادر على كل شيء . ولم تكن تصدق ان احداً يستطيع
اذية او النصب على رأيه . وكان سرجوس يعدل فكرته في طربة للاخراج او باس من

العن فادا خرج جاء الدبر واتام فيه السلام وشكبة . فلم يهدى الى سيل امين لما بلغه
من تشديد الملك في الاحتياط به والمر على حرامه

الفصل السابع والستون

الثلوج والرسول

وادافت فلورندا في صباح يوم من اواخر فبراير على هوب العاصف وزخ المطر
فكان من الثلج او البرد . واشتدت الانواء والرعد والبرق خمس ساعات ثم انقطع حل
القوس وскنت الرياح بذلة — وتلك عادة هذا الشهر في البلاد المعتدلة فان الجو يتقلب
في اليوم الواحد من ايامه ثلبيات شقي بين صحو ومطر ونوه وضنا . — فما كانت الامطار
اعظم فلورندا من باب القرفة فادا بناء الدبر قد غربة الثلوج الى باب غرفها ومع
ذلك فالشمس تدأشرقت على ذلك الثلج فنكسرت اشعاعها عنده واخل التور في بعض
الاخاديد فيها الطيف الشمسي بالوان التزح . ووقفت فلورندا وهي تأمل ذلك المنظر
المهول ثم مالت ان رأت الرهبان بمناطقون من كل جانب وفي ايديهم المطراف
والعواول واخذت في جرف الثلج وحملوه الى الخارج فانجب فلورندا ذلك المطراف واحت
ببساط نفس لم تشعر بذلك اشهر . — والانسان اذا اهتزت السماء ثم صحت وضنا
جوها يشعر ببساط وخصوصا اذا سبق المطر ضباب مكالب او غروم متباينة . ولكن
البرد يشتد في ساعة الصناء عا كان علي في ساعة الكدر . واداك فان فلورندا لم تطال
الوقوف في ذلك الباب فدخلت وافتقت بقائما المبطن بالفرن واحكمت الالتفاف
بع وعادت فإذا بالراهب الشيخ صاحب الباب متبل وقد استبدل العكار بحرفة
يعرف بها الثلج بنشاط الشباب وكان فوق ذلك لا يزال عاري الساقين والزنددين
واكتفى من وسائل التدفئة بلغ حول صدغيوه واذنيه بلغا من صوف

فلا رأته فلورندا على تلك الحال اعججت بما تبر العادة على الانسان ولبس واقفة
تنظر الى شيئا الراءب وغيره من الرهبان ينتظرون وهم كبار وشانيلا ينتظرون
معهم . فلم يمض برفة حتى نفذت الراحة وكان بعضهم يعرف الثلج عن المطلع ايهـ . — فلما

فرغ الرهبان من العمل خرجت فلورندا وبربارا وقد أعيدها صناء الجبو وأشراق الفزانة وصعدتا إلى المطح وطلبا على الجبال على مهل الفرجة . ولم تفتأ على المطح برقة حتى اثر الرزيم ير في فلورندا ولم يفتها النباء . ولا المكاء . ثم تغير وجه السماء بغنة ونكاثت الدبوم واوشكت النها . ان تنظر فهمت فلورندا بالرجوع فرأت الشيخ الراهب مطللاً من باب حجري على المطح وهو يشير اليها ان تأتي اليه فتحولت وتبعثها خالتها حق افينا هل انحرج فإذا هناك نار موقدة في آناء شب مونقة في بعض جوابات انحرج . فلم يدخلت احدى بالدفء وشعرت بذلك غريبة . فقال لها الراهب اجاي يا بنته وتدني فان البر شديد جداً اليوم . فجلست وخالتها الى جانبها واتنق جلوسها بجانب النافذة ورفض الراهب امام النار ثم جلس واخذ يقص على ضيقها احاديث شبابه وكهوله على سهل السالية والخالة العجوز تداركه في تحقيق بعض النقط وان كانت هي اصغر منه سناً

وكانت فلورندا في آناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحي الدير ولا يقع بصورها على غير اللوج الاً قليلاً . والراهب والخالة مشغلان في الاحاديثوها يمسكان فلورندا مصفية لما يتولان حق افنيت الحالة استشهاد فلورندا فوجئت الكلام اليها وتوقعت الجواب فرأت فلورندا في شاغل عنها بالدرس في شيء وراء النافذة وقد ظهر الاهتمام في وجهها . فالتفتت الحالة فإذا هناك دابة ثني صاعدة نحو الدير وعليها راكب فامعتن النظر فو كأنها تعرفها فسمعت فلورندا تقول «اجيلا اجيلا ..» فلما سمع الراهب قبطا نظريه الشارد و لم يكن يعرفه فقال « ومن هو هذا يا بنته ..» قالت « هو رسول ارسلناه في مهمة وقد عاد اليها فهل تسرع في فتح الباب له حق لا يضره بو البرد »

قال « سمعاً وطاعة ..» وتناول عكارة وتحمّل نازلاً وطللت فلورندا وخالتها طلين من النافذة لتحققها القراءة فإذا هو اجيلا يمدو على جواري . ولما دنا من الدير وقف الجواب واجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكاً شديداً فلما رأته فلورندا يضحك اندبرت وانهضت نفسها ولم تمالك ان تادمه فائلة « اجيلا ..» فلم تسمع جواباً وكأنها لا تخاطبه احداً فطللت هوب الربيع اضاع صوتها قبل وصوله اليه . ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير حتى اذا اقبل عليه شهر عكارة واخذ في ضربه ضرباً عنيماً واجيلا لا يدرك والراهب يزداد عنقاً بالضرب ويصبح ويستفيث بالرهبان الآخرين فخرج الشان

منهم وفي يذكّر كل منها عصا غاية لفظة فامسك أحدهما بزمام النرس وعمل الآخر على ضرب الرأك حتي انتق وهو ساكت فاستقرت فلورندا ذلك وتولمها الدعنة لما رأته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه . فجعلت تدوس بالرهبات تمهلهم وتنتمن عن سبب أعدتهم ومم لا يبالون بكلامها فذهبوا وتحولت من تلك المخربة تزيد غرفة الرئيس لتشكره اليه قسوة رهانه وسارت الحاله في اثرها حتى اذا زرها الى باحة الديار قالـت فلورندا خالتها « اذهي انت الى الرئيس وانا اخرج مخاطبة اوليك الراهبان ... » ثم نادت شانييلا فلم تسمع جوابـا فاسرعت الى بابـ الديار حتى خرجت منه فرأـت شانييلا عاملـاً مع الراهـان على ضربـ اخيـه ايهـا وقد أتـلـهـ هـنـ النـرسـ وـامـسـكـ اـحـدـمـ رـجـلـيـ وـالـآخـرـ يـدـيـهـ وـاخـذـ الـاثـانـ الآخـرـانـ بالـضـربـ عـلـيـ التـدـبـيرـ وـالـكـيـنـ ضـرـبـاـ مـوجـمـعاـ فـارـدـاتـ فـلـورـنـداـ دـعـةـ وـاسـتـفـارـاـ وـصـاحـتـ « شـانـيـلاـ ... ماـ هـذـاـ العـملـ ؟ » وـهـوـلـاـ يـرـدـ عـلـيـهـ وـلـاـ يـبـالـيـ بـقـوـةـ

وبـعـدـ هـذـيـهـ رـأـيـمـ هـيـلـاـ يـاجـلـاـ فـمـاـ وـاسـرـعـيـاـ بـوـ الـدـيـرـ فـوـسـمـتـ فـلـورـنـداـ فـلـمـ فـاـذاـ هوـ بـنـ اـيـدـيـ لـاـيـدـيـ حـرـاكـاـ فـظـلـةـ مـاتـ مـنـ شـدـةـ الضـربـ فـكـادـتـ تـكـيـ لـفـظـلـهاـ وـاسـهـاـ وـلـكـنـ الـاسـقـرـابـ ظـلـلـ غـالـبـاـ عـلـيـهاـ فـلـمـ دـخـلـاـ بـوـ سـارـتـ فـيـ اـثـرـ فـصـدـعـلـاـ فـيـ غـرـفـةـ صـاحـبـ الـبـابـ فـعـتـبـنـهمـ وـهـيـ لـاـ تـجـمـرـ عـلـيـ الـكـلـامـ لـلـلـاـ يـصـبـبـاـ حـظـ منـ ذـلـكـ الضـربـ وـلـكـهاـ كـانـتـ ثـنـافـتـ يـهـاـ وـشـلـاـ اـعـلـمـ بـخـدـ الرئيسـ قـادـمـ لـلـسـتـبـعـ اوـ اـسـتـبـعـهـ وـاـذاـ بـوـ مـسـرـعـ عـلـيـ الـمـطـعـنـ مـنـ جـهـةـ اـخـرـ وـالـعـبـوزـ فـيـ اـثـرـ وـهـيـ تـشـدـرـ الـىـ فـلـورـنـداـ اـنـ نـطـمـنـ فـاسـرـعـتـ فـلـورـنـداـ الـرـئـيسـ وـاسـتـهـمـتـ عـنـ سـبـبـ ذـلـكـ فـنـالـ « لـاـ تـغـرـيـ بـاـيـتـيـ فـاهـمـ اـلـاـ يـنـعـلـونـ ذـلـكـ لـخـذـلـ حـيـانـوـ »

قالـتـ « وـكـيفـ يـعـنـظـلـونـ حـيـانـهـ وـقـدـ اـمـانـهـ مـنـ الضـربـ ... »

فـضـلـكـ الرـئـيسـ وـقـالـ « يـظـلـهـ انـكـ لـمـ تـعـيـ (ـبـالـدـنـقـ)ـ »

قالـتـ « وـمـاـ الدـنـقـ بـاـمـوـلـايـ »

قالـ « هوـ الـموـتـ مـنـ الـبرـ الشـدـيدـ . فـالـظـاهـرـ انـ رـسـولـكـ هـنـ اوـشكـ انـ يـدـنـقـ مـنـ الـبرـ فـمـدـدـيـ الـضـرـ بـوـ لـيـحـرـكـ دـمـهـ وـتـعـودـ الـبـرـ الـحـرـارـةـ فـلـاـ يـوـتـ ... »

قالـتـ « لـمـ يـكـنـ يـشـكـوـنـ مـنـ بـرـ مـطـلـقـاـ بـلـ رـأـيـهـ يـضـلـكـ سـرـ وـرـاـ ... »

فـضـلـكـ الرـئـيسـ حـتـيـ فـهـةـ وـقـالـ « وـفـضـلـكـ فـيـ الـبـرـ مـنـ عـلـامـاتـ الدـنـقـ ... »
قالـ ذـلـكـ وـدـخـلـ الـخـبـرـ وـهـوـ يـقـولـ « اـسـنـوـ قـلـبـلـاـ مـنـ الـخـبـرـ ... وـادـنـوـ مـنـ النـارـ »

فاسرع الراهن صاحب الباب الى ابريق في بعض اركان المخفر ضربه منه في كأس ودنا من الرجل وتقدمت فلورندا نحوه ایضاً وترست في وجهه فرأته قد فتح عينيه ولكن لا يزال مغلق التو فخفقت ما قاله الرئيس وشكّرت الله على مداركه بالوسائل الفعالة

الفصل الثامن والستون

الخبر اليقين

قضوا ساعة في معالجة ايجيلا بالدفء وشرب المبهات حتى صحوا وعاد الى رشد فاستاذنت فلورندا في غلو معها الى دار الاضيفاف فاذن لها فنزلت به وعمها شاهيلا والخالة فلما استقررا في الغرفة سأله عن سبب غيابه فاخبرها انه قاسي في أيام رجوعه عذاباً أليساً من مذاومة الطبيعة ولارصاد رو دريلك حتى اخطر ان بيست في الدهار ويسافر في الليل خوفاً من ان يقع كتاب بوليان في ايديهم وهذا هو السبب في وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت

ثم سأله عن والدهما فقص عليهما ما كان من وصوله اليه وما اصابة من الغيط وبالأس لاقرأ كتابها الى ان قال « وقد عوّل على الانتقام من رو دريلك انتقاماً لم يتحقق له مطلب في تاريخ الاسنان »

فأبرقت اسرة فلورندا اعتزازاً بوالدها واحسنت بغير قليها بعد ان تصورت نفسها مهملة لا يسأل عنها أحد لكنها احترت الاعلاط على كثيبة ذلك الانتقام فقالت « وكيف ذلك »

قال « لتدعوّل على اخراج هذه الملكة من يد رو دريلك ... »

قالت « يا حبنا المولى الى ذاك ولكن ... »

قال « وهل تحسين ميدي الكونت بوليان يقدّم على هذا الاً وهو طائف من نسو ... » ثم اخبرها ما كان من اتفاقه مع جند العرب على المدير معهم الى اسبانيا ليكون عوناً لهم على فتحها كلها

فلما سمعت فلورندا قوله اكترته وظلت ايجيلا يقول ذلك لبعضها فقالت « وهل تقول الصدق »

فقد ين الى جبوه واستخرج انبويا مختوما سلة اليها فنفسته فرأى في لفافة من النباتي
(نجع مصرى قديم) ففتحتها فإذا هي كتاب من والدها اليها خالما رأت خط ين خنق
فليها وتذكرت حنوه فدمعت عيناهما ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الا بعد ان
سكن جائها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتاب وقرأته فإذا في : -

« من الكونت بوليان الى ابتو الحبيبة فلورندا
باسم الآب والابن والروح القدس »

« فرأت كتابك ايها العزيزة فسبقني الدبر الى تهبه لما هاجة في من المصائب
الكارثية . وقد ساء في ما افترقا ذلك الوحش الكاسر من الاصباء الى الدين والى الفسيلة
والى بوليان . اما الاوليان فالله كليل بتصاوم عنها . وما ما اراده من عرضي فاما
انه انتقام له يتنسى — وابشرني اني حامل علي وعلی بلاده بجهد من العرب لا شک
ان الله ناصرم على ذلك الحاخن لما نعمله من غضب الاسنان والتلوط عليه . وان العمل
الذى اشرت اليه في كتابك يكفي وحدن لغضب المعاشر والارض على ذلك الدخول في
النوطية . ولا اطيل الشرح لان ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك وان اكتب
هذا الاسطر تهينا لافق الو ولكي ابشرك بالترج الترقب . وسوف ترين رودربك الحاخن
فيلا مضرجا او اسيرا مكبلا فاماكمي حيث تستأمين حق آتي اليك . وانا اهوزك
الوصول اليه فانا معكير جيد العرب حينها يكون والسلام » (كتب في صيحة)
فلما وصلت الى آخر لم تهالك ان بهضت تrepid الرئيس وكان قد ذهب الى غرفته
فسارت وجدتها وهي لا تنفقة ما ثغر بـ الزرط تأشرها من ذلك المدر البغي وقلبتها يرقص
طرباً لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام — والانتقام من اقوى ماذات الانسان
فلما اقبلت على الرئيس الكرم اجدوه في محاباه من آثار البغة مع شيء من الملة فوقف
لها فدخلت غرفة وقالت « جئتكم بأمر ذي بال وذو النقاء المبرم على رودربك »
فالدخل لذلك المياحة وقال « وما ذلك »

قالت « ان الكتاب الذي وصل في هذا الصباح وكاد يموت من البرد انا هو
رسول كنت بعثت بـ الى والدي في صيحة وبعثت معه كتابا مختبرا شكوت فيو
ما اصابي من رودربك فعاد الرئيس يوم بهذا الكتاب » ومدت بـ بها واستقررت
الكتاب ودفعته الى الرئيس
فتـ اسئلة مرجوس وقراءه وهو لا يصدق الله في البـ نـ ظـ ةـ واعـ اـ دـ قـ رـ اـ ةـ ثـ اـ ئـ ةـ وـ نـ اـ ئـ ةـ

وفلورندا صادمة لتوقع ما يبذلو منه فلما تنبأ جيداً رفع بصري إليها وقال « إن والدك سيعمل علاً يغير به وجودك الجزع » - سيعمل علاً يقضى به على هذه الدولة . وسبع أيام رودريك عافية ما كان من خرقه حرمة الدين نعمد بالله من غضب الله . » وصحت بربة ثم قال « وهل قتل الرسول اليك شيئاً من الفناضيل »

قالت « أخبرني بعض الشيء ولم استطع صبراً عن قتل هذا المخبر اليك فإذا اذنت بعذابك أجيلاً يقضى علينا ما شاءتم بعلوبه »

قال « أحب ساع ذلك » ثم صدق فجاء خادمة فقال « ألي بالرجل الذي جاءنا في هنا الصباح وهو في دار الأقدياف »

فمضى الرجل وعاد بأجيلاً فاغنى أجيلاً امام الرئيس وقبل بيته ثم جلس متأنياً في محل الرئيس يسأل الله عما شاءتم بعلوبه فقضى عليه ما عاينه من شجاعة العرب وإخداد كل منهم وصارهم في الحرب وما ظلمهم على الصلاة وطاعتهم لرسول الله . ثم إلى أن قال « ورزد على ذلك أن مولاي الكونت يوليان عون طم في ارشادهم إلى المسالك فضلاً عاسيلقونه من مساعدة اليهود المستعربين بانواع الضررانية وهو لا يدخل كأن لا يتم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يناسونه فيها من الاختقار والذلة »

فلما سمع الرئيس ذلك هر رأسه وقال في نفسه « قد اتفقت دولة هنا الباغي وربما اتفقت بالتفاهماً دوله النوط كلها » ثم التفت إلى فلورندا وقال « فصررت إذا ذهبت الآن إلى أوبياس أخيرته لهذا الخبر الجديد وأطلعته على هذا الكتاب ولا أظن أهل البلاط على بيته بعد . ثم خندل في اخراجه من ذلك الحصن وناتي به إلى هنا الدبر يتم قدو معنا . وبطالة كان أبوك مع العرب فخمن في ما من مهن اذا هم غاموا . وإذا غلبو فلا يكون علينا بأس من رودريك لأننا لم نعرض طربه »

فتضاعفت سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استئصال أوبياس إليه . وبعد بضعة أيام ذات اللارج وانكشفت الغارق فركب سرجيوس بقلة ومشي خادمة في ركابه إلى طبلطة



الفصل التاسع والستون

القائد كوميس

اما رودريك فقد جاءه كتاب صاحب بوتيكة يهذله بتزويق العرب بلاده فاطلع الاب مرتون عليه قبل عرضه على رجال دولته فأووه الاكب المذكور ان العرب انا بريدون الفزو لا الشع فاذا أصحاب غنيمة عادوا على اعقاهم . وانهم لا يسمرون على مناواة ملك التوط - وبالحقيقة ان العرب كثيراً ما كانوا يسطرون على ما هي مملكتهم من التغور فيخرون البلاد ويعودون بما يقع في ايديهم من ماديه او غنوها . فارتاح رودريك بذلك الرأي لترى من المعتول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب يخربون وايلهم وقد ملکوا الجبل (جل طارق) ومعهم بوليان صاحب مبنية ينظم على عورات البلاد ويسهل عليهم التصح واخبروا قائد الجند العام بذلك وكان قائد جند رودريك رجالاً باسلام دموي المزاج حادةً اسسه الكونت كوميس له وجاهة وسطوة عند رودريك . وكان قد لحظ فيو ميلا الى فلوريدا فصح له ان يتركها فلم يكتفى بقوله فتركها وشانه وفي نفس ذاته ، عليه . فلما سمع بقرار الملكة وحاشيتها او ياس فصح له سرًا ان يعدل عن محاكمة هذا الرجل لولا بضفة . وكان من جملة نصائحه له ان لا يصفي كبير اصحابه الى مرتون وغيره من جماعة الاكاربوس . فلما جاءه المخبر بتزويق العرب اسيانيا ومعهم بوليان اعتذر لزوجه في ما اشار اليه على رودريك من أمر فلوريدا فزاده ذلك حراً عليه واستفزاها به واستقرب كيانه تزويق العرب عنه . وكان يستبعد ان لا يكون عالماً بتزويق . فذهب اليه ذات صباح وهو في مجلس حضر كبار الموظفين وكلهم كونتية . وكانت اصحاب مناصب الدولة الكبرى عدد التوط لا يزيدون على عشرة . بهم (١) ناظر الارضين المملوكة واسمه كونت الوطن (٢) رئيس الاصطبات واسمه كونت الاصطبل (٣) كائنه سر الملكة واسمه كونت الجبالات (٤) رئيس الفداء وهو كونت النعم (٥) قائد الجند (٦) صاحب الخزنة (٧) قيم القصر الملوكي . (٨) ومن اصحاب رتبة الكونتية عدم ابداً رئيس السفارة ونحوه من

(١) رديج ٢

يتدرون الملك . كان مجلس الملك حافلاً بهؤلاء والاب مرتين بجانب فدخل الكوتوكوبس وسلم كالعادة وإمارات الفضب بادية في وجهه وبعد أن انتهى يجلس سال الملك اذا كان قد بلغه شيء من أخبار بونتكة فقال الملك « لا ادري .. هل سمعت شيئاً منها ؟ .. »

قال بصوت خشن « سألت حضرت الملك هل جاءكم خبرهم من تلك المقاطعة » فغضب زورديك لهن المراجعة بما فيها من الجسارة والنفعة فقال « ما معنى هذه المراجعة .. بعد ما سمعته من جوابي .. » وأخذ دل وتصدر وجعل يلاعب شعر راسه المرسل على كتبته وقد بدا الغضب في هبته وأصبح سائز الكويتية ينظرون بعضهم الى بعض والتي كوبس وزورديك وبينما لون عن سبب هذه الجسارة . اما كوبس فلما رأى الحضور ينظرون ما بهولة وقد تخصمت أبصارهم عن بعض بعد ما ايدار وزورديك من الجتنا عظم الامر عليهـ وقواد الجند من اعظم الناس اتفاقه اذا هي غضبهم لا يبالون بالتعجب او بالصراحت ولا يعنون الا بشدة بطفهم وخصوصاً في ذلك العصر والكلمة النازفة لصاحب الجند التوي . وكان كوبس فوق كل ذلك قد غلب على رأي الملك ما اعلمه من هبور في مسألة فلورندا او باس . فلما سمع كلامه بذلك الابجة الشديدة قال « اظن حضرت الملك لا يجهل معنى سؤالي ولو تجاهله . - معنى سؤالي ايه الملك انه حدث في المملكة ما يدعوني اطلاعنا عليه وقد كتبته . وهو من الابية بحيث يجعل المملكة في خطر »

ففتح الحضور وما لايكتفهم الى الاطلاع على جملة الخبر فلم يكن من الاب مرتين الا انه وقف بهاؤه المعمودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوبس قائلاً وهو يتكلف الثاني ويظهر الاستخفاف « اخذتك تعني ما جاء من امر القرمان الذين نزلوا سواحل بونتكة .. فهو لا اغا نزلوا للغزو والهرب ولا يلشون ان يرجعون الى بلادهم ولو كان هنا الخبر منها لعرضة جلالتك على مجلس الاساننة أولاً .. »

وكان كوبس يهدى الاب مرتين كثيراً ولا يعجاً بأقواله فوجه جوابه الى الملك وقال « اما الاستخفاف باوليك العرب فمن المخاطر الناجح وخصوصاً اذا عرف جلال الملك ايه قادمون وراندم الكوتوكوبس بوليان صاحب سمعة .. (قال ذلك يقنة خصوصية) واما اطلاع الجميع المقدس على امثال هذه الاخبار قبلها فالملك الرائي هو . ولكنني اظن قائد الجند أولى بالاطلاع على ذلك من عواه عليه حماية المملكة .

واما السادة الاساقفة فما عليهم الا الصوت والصلوة .. « وكان يحكم واليهم ظاهر في كل عبارة ولم يشا أحد من الحضور الدخول في هذا الجح لدقته وفهم من ادرك اشاره كوبوس الى بوليان صاحب م僻ة وما تحت ذلك من التعبير والتلبيه ولكنهم ظلوا ما اكتبين

اما الملك فاشتد غصبه واحس « بما رأى يوم كوبوس من السهام العاده وادرك خطاوه المركز الذي وصل اليه وانه في حاجة الى قائد الجند اكثر ما الى سائر رجال الدولة ولكن عظيم عليه الاغضا بعدم اداؤه بالجناه فقال له لم يكن من شانك باحضار الكونت ان تخططيه بثل هذا الكلام هل كان الاولى بك ان تأتني بطريق آخر »

قال « ان الملك لم يترك لنا سيلان ناتجه منه وقد جعل هنا التميس لسان حاله والمشكل عنده والكل يعلمون ان هنا في مثلا يصالحون انور العباده وقد جعلهم الملك شركاء في مهام الملكه .. ولو اخلصوا الله الصريحة لما بلغت بها الحال الى هذا الحد ... »

ولا ينافي ان مثل هذا النصريح في ذلك المعر وخصوصا في طبلة علة بعد ضرها من الكفر لما علينا من سلطنة لا كباروس هناك ولا نطلب الحجة على ذلك القائد لم يصرح بما صرحت به ففتح يده الجسارة بما لاستنوا رودريك عليه فاسمه يتجهون وحول وجهه الكلام الى الدفاع عن الاساقفة اراد بذلك ان يغطي خطأه فقال « ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تخاشرت على مقام الاساقفة .. ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الاب مرتون يردد من شدة الغضب فلما رأى الملك لا يزال على ثيابه تعرض وخطيب كوبوس فائلا « ولا أظنك تحمل باحضره الكونت ان كله من جلالة الملك او من احد الاساقفة تكفي لغير ذلك من هذا المنصب ... »

ولم يكن كوبوس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك فكم من ذلك التميس فوقف وبك على قبة بيته وقال « لقد حترم بهذا الكلام وعنه المعامله عون كوبوس فـ انت في اشد الحاجة اليه » وخرج وقد أخذته الغضب مأخذ اعظاما

اما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعا ولم يكن يريد ان ينفي في هذا مقام ولذلك فان عباره مرتون سامت الملك اكتر ما سامت كوبوس . ولم يجر احد من الحضور على التوسط في الامر لثلا يتعاظم الخصم وقد وقع ما تخوف . ثم وقف الملك فعلم ان يريد فرض الجلسة فخرجوا الا مرتون . فلما انفردا النسب الملك الي وقال « اهكذا اغضبت فائتنا وصاحب جئتنا ونحن في اشد الحاجة اليه .. »

قال «أنتوني أهيا الملك على اتهامه بعد ان اهانك وإهان المسادة الاساقفة جميعاً ..
ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق»

قال الملك «انت تعلم ان كوميس اعظم قوادنا ولم تكن في وقت من الاوقات
اشد حاجة اليه ما نحن الان والعدو يهاها ولاتها يدللون على عوراتها ... ساحنك
الله على هذا الخطأ ... لا يمكنني ارتکابها الخطأ الاول باخدا، تلك الاخبار عنه وعن
سائر رجال الدولة حتى ارتكب خطأ آخر شرعاً منه»

فاسمه الاب مرلين من هنا التعریض وقال «كانك تقول اني انا سب ذلك
الخطأ فإذا كنت اشرت عليك مشورة فاسنة كان الاول ان لا تنبأها ...» قال ذلك
وشي في وسط القاعة وبين الامری وراء ظهره والآخر يسح بها ما تناول من ربيو
على شفتيه وتحجو

فندق ذلك على الملك وعن اهانة اخرى وقال «اتكون خطئاً وتفريح مما احمد
قوادنا ثم تقم علينا وتتحقق باقى النا ويكون الذنب مع ذلك ذنبها؟ ...»
فاجابه مرلين وهو يهز رأسه ويشي ولا يلتفت اليه «صدقت اهبا الملك ان الذنب
ذي الخطأ كلها خطأ وكل هن الشرور من هنائج اعالي لاني لو لم اسيء الى بنت
صاحب سيدة لم يكن والدها عنوانا للعرب على فتح بلادي ...» ثم وقف بفتحة وحول
وجهه اليه وقد اشيد غريبة وارتعدت اطرافه وزاد اسامه لمنية وغيبة وقال «الخطئ
بارودريك ثم تلصق الخطئ بشيئي ثم اذا أهين الاساقفة لا يهمك الدفاع عنهم وم
الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعذدوك ... أم يمكن م الذين دافعوا عنك
بالامس وسط الجميع باسمها فارجلاً بريباً بهيمة لا أصل لها ... ثم تقول الي كشت سهاماً في
خسارة ذلك النائد وانت اهنا خسرتها بسوء تدبيرك وانها كلك في ما لا ينفعك
ويسوء تدبيرك ايهما حضرت الاب مرلين الذي لم يكن يعني ان تنسى نعمة في مصلحتك
ودفاعك عنك ...» قال ذلك والنف برداه وخرج من النصر

لما خرج مرلين ظل رودريك وحده وقد خلا بيده وتصور عظم الخطأ الخدق
يو نجلس على كرسيه والتي رأسه على كفيه وراجع ما مر به من المحادثات في الاشهر
الاخيرة وذكر قلورندا ولوالدها فتحقق لديه ان بوليان اهنا اغمار الى العرب غضباً لها
فانشد حننه وتراءكت عليه الموجس وعظم عليه الامر وخصوصاً بعد ان فدأ خائنه وإساءه
قبضة فشاده من ذهني الحاديين

الفصل السابع

سرجيوس وأوباس

فانطلق وصول الرئيس سرجيوس ثانية يوم الخميس فنزل في الكنيسة الكبرى على جاري عادة الأساقفة ورؤساء الديبور اذا جاءوا حلية الله . فلقي هناك الآباء مرزبون وعدهم بو في قصر الملك . فسلموا وتحاطوا ملائكة بثوابهن مخلصنة والرئيس يمطلع ما في نفس مرزبون . وكان الآباء مرزبون على كبر سنه حاد المرأج سريره مسرعاً في ما يخطر له كما ثيرون لك من وصف اخلاقه فلم يخف عن سرجيوس شيئاً ما وقع بالامس له ولذكورة كوبوس وحفلة حلة مرآجه ونشرعت على الابناء برودريلك والتنديد بشاد رأيوكا أنه من ألد أعدائه وهو اغلب غريب لا يجدث إلا في اصحاب المزاج العصبي او الدسوبي الحاد اما سرجيوس فقد جاء حلية الله وهو لا يتوقع شيئاً الى متى له او يهاب او انناهه فله الذي مرزبون هان عليه ذلك فذكر اوباس عن يديه ورغم انه سمع ببعضه . فلما جمع مرزبون اسم او يهاب تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه حين ظلم او على الاقل أسيبي اليه بتهجم لم ثبت عليه — ونظرًا لخشوبه على رودريلك رأى في انصاره لاواس ما يشقى بعض غليله انتقاماً من ذلك الملك فقال لسرجيوس « ان اخانا او يهاب سجن لتهمة اهتمها اياها رودريلك وقد حكم فلم ثبت عليه التهمة فاجات العاكلة وحين الى اجل غور مسي رينا نعاد عاكنة ولكن يظهر ان الملك لن يطلب العود اليها ... » .
 فقال سرجيوس « وهل تظن اذا اشتأنوا عاكنة يدورا ... » .

قال « لا ربيب عذبي في ذلك »

قال « وماذا لم يطلب الاستثناء ... »

فأقسم مرزبون وهو زمرة رأسه وهو يقول « وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه في غرفة لا يرى فيها احداً لان رودريلك منع الناس من الدخول اليه » .
 فقال « وهل من سهل الى رؤيه بغیر اذن الملك » .
 فقال مرزبون وهو يقسم « ان ذلك هون على ... » . فهل ترى ان غرض اخانا

المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة . . . » — قال ذلك لا رغبة في نصره ارباس ولكن توم ان روذرلوك يفطر لاسترها تو كجاري عادتو كلها اغضبه — ولذلك فانه لما خرج من حضرت بالاسمس كان يتوقع ان لا تغيب الشهيد قبل ان يبعث اليوليس ترددوا فلما أصبح الصباح ولم يأتوا من قبل أحد اشتد حذنه فلما خاطله سرجوس ببيان او باس اراد ان يستخفه لاستئناف المحاكمة لاعتقاده ان روذرلوك يخاف ذلك الطالب وخصوصاً بعد ما ظهر من غضب بولابان وكوبوس فلا يرى له مذودة عن استرضاء مرتين ملاحة الامر — وما في ذلك من مصلحة لاوباس لأنهم لورضي باعادة المحاكمة لافتتنى ان يجعلوا الاساقفة من أنظار الملكة كثها ولا يتأتى ايجاعهم الا بعد اسابيع اما سرجوس فاستبشر بما سمعه وقال « اذا ادخلوني الى بوتهت ذهنة الى ذلك . . . » فهض تومين للحال حتى بدأه وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحرامة او باس ان ياذن للرئيس سرجوس بمقابلته . فأخذ سرجوس الرقعة وهو لا يصدق انه قبس عليها وسار مسرعاً الى او باس

اما او باس فكان لا يزال في سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم وهو يتألق بذلك بصدر رحوم وبفال المصائب بالصدر . ولم يكن يشعر بوحشة الانزلاق لما في ذهنه من المخاض التي لا يستطيع الدائم فيها الا بالاعتزال عن الناس . ولم يكن يبعد نسمة معجونة لاعتقاده ببراءة ساحرها ولكنه كان يأسف لضعف الطبيعة البشرية لاتها علة مناعب بي الانسان وخصوصاً اذا كانت في الروساد او وفي الامر لان غالطة احدم تغير الوبيل الى المدات والالوف من الابرياء . وكان اذا تكرر في ما سجن من اجله اشنق على روذرلوك ما شالوا ملام فهو من الغرور وما يرتكونه من العذبات الملكة الشائكة لللة وفتنه أوسعها في دم زائل — فكانت هذه التآملات يامشاتها من غرائب ماجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات وال ايام وهو سائح في عالم الفلصلة يحسب نسمة في نعيم وسائل الناس في شقاء لولا ما كان يمترض تاملاته من امر فلورندا والتونس . على انه وكل امرها الى الله اذ لا جلة لها في مساعدتها او في معرفة الدليل اليها

فلما كان اليوم الذي جاءه فيه سرجوس دخل عليه حارسه وقال له ان رئيس دير الجبل يريد مقابلته . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرقه وخنق قلبه خنوق البغة لطول عهده بالاعتزال في اذن الله وهو يستقرب محبته ومحظاته على الاذن في الدخول عليه وكان سرجوس يتوقع ان يرى تغورا في صحة او باس بعد ماجمعه من طول الخبراء . فلما

دخل عليه رأه مثلاً لاستقباله شوو الكبوتي — لانه لم يدخله منذ انما هناك إلا فلسفته فلم يكن يلهمها، فتشى الى سرجوس وشعره مرسل على ظاهرو وكعبه وقد زاده مقاومة في تلك المخلوة هيبة وجلاً

فما تلاقت الايصال اسرع سرجوس واكبَ على يد اوپاس كأنه يريد تقبيلها فسعة من ذلك وعائنة وضمة اليوم تصاحما وسرجوس لا يستطيع امساك دموع اوپاس ينظر اليه ويده على كتفه لطول قاتمه بالنسبة اليه . ثم دعاه الجلوس فلما حل معد مخاذيبين وسرجوس بما هب للكلام فسفة اوپاس قالاً « اهل بصديقي واخي سرجوس من اين انت آتيت الان ولماذا »

قال « اتيت من دير الجبل ولا غرض لي الا رؤبة المتروبوليت اوپاس فاجدد الله على مسامعي .. ولا يأس ما فاساه من البلاء ، فان الشهير بخافبي »

قال « انت من اهل العالم والحكمة وتحسب الخبراء في هذه القرفة بلا ، اليك الناس جميعاً محبوسين على هذه الارض واجالم قصيرة وقراهم عصورة واقالمهم لا غال اندفهم وهل من فرج الا في العالم اليافي ان احسن علاً وكان رجالاً صالحـاً . واما اهل الفلم منهم فانهم يشقون في الدنيا والآخرة . فلا تشدق على سجين بري » الساحة تفي المرارة فان سجينه وان طال قصده ولكن ابكر اناساً منهم الله الساعلة على اخواتهم من في الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ويكونوا عوناً لهم على دنياهم فقلالهم وأساواها اليهم ياهر قوادها الالوف منهم في سبيل العذبة يشقونها او جيفة يبغضون فيها ولكنهم انا يظللون انتهم ولا يعلمنون »

قال ذلك بصوت هادئ « لا يدخلنكم اضطراب ولا حدة ولا شيء لا من عن اقارب الاله تعالى

العنافي

ولا نصل عن اصحاب سرجوس همها من الحكمة والموعظة على انه اراد ان يودي المهمة التي جاء من اجلها فقال « لند صدق مولاي .. ولكن الله كثيراً ما يعاقب القطالين وبذب المحسنين وهم في هذه الدنيا عبرة لسوام . وقد اتيتك الان بالخبر جديده لا ريب انك مشداق للاطلاع عليها .. ألا ترى الاطلاع على ما كان من امر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك »

فما سمع ايهما تحركت فيه عاطلة الحنو وبدا الاهتمام في وجهه وهي ما كان من فلسسته واستخفاؤه بمحادث الطبيعة — والانسان منها يكن من تعلقها وزهاده لا يلهم اذا تحركت فيه عاطلة الحب ان يهم بالحياة وإلهامها — ولولا الحب لاغلت عرى البعض

البشرى كما ينحل نظام الكون وتبعد الأجرام الحاوية إذا فارقته الجاذبية العامة — وأرباس أحبَّ فلورندا من أجل التوين وزاد حبه لها وحبوه إليها بعد ما أصابها من الفتن وكأنه أثناها على يده — والمارة يزداد تعليماً بالصغير كلام زاد ضعفه وكان له تعب علىه — فلما سمع أرباس اسم فلورندا هبَّت عواطفه من رفادها وإن لم يجد ذلك في معباه إلاً فليلاً وقال « وهل تعلم شيئاً عنهم ما هي ؟ »

قال « هي في دير الجبل ... »

فقال « وكيف وصلت إلى هناك ... »

فأتص « عليه ما عليه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى انت الدبر الذي آن قال « وهي متيبة عندنا في أمان وسكونة ولكنها في قلق شديد علىك وعلى التوين لاتها لا تعرف متى ولوعرتها لا تستطيع الذهاب إلى ما أقامه رودريك من العيون والارصاد في سهلها ... »

فأطألن بال أرباس على فلورندا ولكن ساءه تضيق رودريك عليها فقال « ألا يزال هذا الرجل يتعجب من النهاية وبفارق عنها ؟ ... »

فأبسم سرجوس وقال « ولكن لا يليست أن ينبع هو في الفرق وبخرج عن الناس كافة وخصوصاً حضر المغاربة بوليت » . ورأى أرباس في عيني سرجوس ما يدلُّ على أمور مجهولة يزيد التهurge بها فابدى الاهتمام وقال « وكيف ذلك ؟ »

الفصل الحادى والسبعون

فهد سرجوس به إلى جيوه واستخرج كتاب بوليان وهو لا يزال في أنسوبه وقال « لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لميادحكم لم تكلكم عن أن تكتبوا كاتباً نشكوا فيه، ما محلُّ بها من الشفاعة في قصر رودريك وما أراده منها . وبعثت بالكتاب مع أجلاساً فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه واليكم هو ... » ودفع الآنسوب إليه . فتناولها أرباس واستخرج منها الكتاب ملتفقاً وقضها وفرأه وإعاد قرائته وسرجوس ينظر إلى ما يبذو من آثار ذلك في سدينه فلم يذكر فلم يستغرب ذلك لأنَّه من جملة أدلة

رباطة الجأش وسعة الصدر . ولتكنه توقع ان يسمع ما يدله على ذلك الاشرقاً فما هو بقول
« هل زادكم اجيلا اياها .. »

قال « نعم لانه رأى جند العرب يتلون شواطئ اسبانيا وبولندا معمم يدخلهم على
عورات البلاد .. »

قال « وهل علم روذرث بذلك .. »

قال نعم جاءته الاخبار من طرابلس ايام قلم بعدها ولا أطلع اهل مجاسو عليها فاك ذلك
الى زيادة الخرق انساعاً وبات روذرث في اشد الضيق واصبح خروج الملك من به
امرًا محظوظاً .. »

فقال او باس « وما سبب هذا الالتباس .. »

قال « لأن الكونت كوميس قائد الجند العام علم بتزول العرب شواطئ اسبانيا
من اناس اتوا طلبيطة من هناك وتحقق ان روذرث اعلى ذلك الخبر عنه فعافية في
في مجلس حضرة كبار الموظفين فأكمل المعاينة الى المناورة فخرج كوميس من الجلسة
غافقاً من روذرث ومن قسيمه مرتون . وبعد انتخاب المجلس عانى روذرث تمهيداً
فاجابة وتخالفاً فخرج مرتون واقام في الكنيسة الكبرى وهناك لقيته وفهمت منه انه نائم
على روذرث وساعدني من اجل ذلك في الوصول اليك برقة كتبها الى العارس .
وبرى الآب مرتون انك لو طلبت استئناف النظر في قضيتك لا ريب في خروجك
بنها .. وفي كل حال فان الله قد أعاد كيد الطالبين في خورم . وهذا روذرث الذي
كان بالامس يستيد في رجل مثل او باس اصبح وقد هبّن قائد جند جنوب واخص اصحابه
وبات «زوها» بين الناس .. الا ترى ذلك من تدبر العزيز الحكيم ؟ .. »

وكان سرجوس يتكلم وينترس في وجه او باس لينرين ما يدلو فيه او باس مفارق
يشط لحيته بانامله وهو مستنفر في الافكار وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام في عينيه
فلما فرغ سرجوس من الكلام رفع او باس بصري اليه وهو لا يزال مستنفرًا في الافكار
وجعل يحدق بصري في وجه سرجوس كأنه يستطلع ضربه . فلم يستطع سرجوس احتفال
أشعة براك العيون أو الصبر على التحديق بها كالماء منتهى للسماء الكبر باني المنولد في
الدماغ من اعمال التكرة فكلا زاد الدماغ عملاً زاد ذلك العمال غرارة — وظل
كلها صامتتين بضع دقائق ثم تكلم او باس قائلاً « النسخن الانتقام من روذرث في
هذه الورقة .. »

قال « وهل توقع فرصة أثمن منها فانه من شمعون الاحوال اعدائي بهدونه واصدقاني
بنو عدونه ... »

فهض او ياس وجعل يختار في ارض الفرقه ذهاباً وإياباً وإنامله في حبيبه يشعلاها
وشعر رأسه بحال كثني وقد زاد ذلك المكوت وقاراً وهمة وسرجوس ينظر اليه
ولا يتكلم ثم وقف او ياس بفتحة امام سرجوس فهض هذا واصفق لما سيفولة او ياس فلذا
هو يقول « أمن المرؤة يا سرجوس ان نعمت ضعف عدونا وخدمنا عليه وهو في أشد
الشك ؟ وهل من الملكة والتعقل ان نساعد الغريب على التربب . إن رودريلك
مها قول فهو فهو مداوينه - الشرب من ماء واحد ونقرأ في كتاب واحد ونكل لسا
واحداً ونصل صلاة واحدة وتناول القربان المقدس من كأس واحدة ونجتمع في كنيسة
واحدة - فكيف نعمت ساعة ضعفه ونغير على انساناً لآخر منهم ولا مهداً لهم من
ديننا ولا عطائهم وطسا ... ورزق على ذلك ان الانتفاع من رودريلك في هذه الفرصة
بغير البلا على كل بلاد الاسنان اذ خرجها من حصن دولة ربها وعاشرتها الى دولة
جديدة لا نعرف شيئاً عنها . ولا ندري ما يصير اليه أمر هذه البلاد اذا فتحها اولئك
العرب - أم يفك اجدادنا دعائم في فتح هذه الجزيرة واستمارها فكيف نعلم
بتدهاها هدرأ - أما ما في اقمنا من انكار حق رودريلك في الملك فاما هو من
قبيل ما يحدث من التباين بين الاخ واخرين أو الآباء والبنون فلا يجوز ان يستمعون أحدهما
على الآخر باسمة غريبة جسماً وذهباً ووطناً ... ولما ما ارتكته رودريلك من الشعاعط
في اسانتي فيكتفيه من ضموري ما يذهبها والله يقول أمن ... فتحن يا سرجوس في موقف
يقتضي أن تتدبر فيه الضغائن وتقدي على العدو المهاجم رغبة في سلامه الملكة . ويحيى
أن تلقيها أسماء برو أحدهما الى الآخر . وهذا التي أبداً بشي فاذهبه الى رودريلك
واستعين على الاختداد في سهل الوطن ... » قال ذلك وهي الى رف كانت قلسونية
عليها قواعدها على رأسه وتم بالخروج وقد ظهر التأثر في وجهه ونبي انه في صعب ولا
سبيل الى خروجه الاً ياذن الملك

وكان سرجوس في انتقام ذلك الخطاب يتصادر في عيني نسمة فاتي او ياس على
آخر افالو حتى اعتذر سرجوس نسمة من احقر الناس وان او ياس من طيبة ارقى من
طيبة البشر ولم يحالك ان اكتب عليه فضليه الى صدره وقبل لحيته وعارضيه وقال له
« بورك فيك من بشر ... وما انت بشر انت ملاك كريم . لند حضرتني في عيني

وجعلني مرتداً عندي نفسي ... فانا تابع لك في ما تصنعه عاملها تامر و «
وكان اوباس في انا، ذلك يليس قلبي و يصلح شعره تحبها ثم مشي نحو الباب
وما ادركه حتى اتبه انه لا يستطيع الخروج بغير اذن الملك فتراجع وقد خجل
لذهاب ذلك من ذهو وتناول لوحاماً من الواح الكتابة (يكروا بالشمع) فكتب
عليه ما يأني :

« من اوباس الميتوريات الى رودريلك ملك طليطلة

« اكتب اليك من صبني لا ارجحة ارجوها ولا لكتبة اخاهما ولكنني علت بصريه
هدد الملكة فاردت ان اكون شريك في دفعها وان أضع رأسى بين رؤوس جندها
ولفي كلام احب ان تقيه على سامعيك فأنبر خبره في ان يحملني اليك والسلام »
وخرج فدفع الكتاب الى الحارس وامر ان يوصله الى الملك وعاد الى مجلسه .
فعمل الفياضات الكتاب وسار

وكان رودريلك قد اصبح في ذلك اليوم مختاراً في أمره بعد ان ثبت نائجه
فلا هو ينماز لاستضافه ولا ذلك يعود اليه من ثناه ندو . ولو كان اباً مرتزق عنده
لاستخدامه في فض هذا المشكك . فلضي معلم اليوم في غرفته واذا يجد ابو المخصوصي
يحمل اليه كتاب او باب فنلا وهو لا يصدق انا يقرأ فاعاد قرأته غور منغ ولما فرغ
من ذلك امر ان يكتب باستدام او باب مختوراً وخرج لانتظاره في قاعة المجلس
وبعد هنرة دخل او باب باسم ياذم ثابتة وجاش رايط فليت رودريلك صاحبها سأكم
ليرى ما يبذونه . فبدأ او باب بالكلام فاثلاً « لا تخف اهلاً الملك اني لم آنك لعناب
او توبيخ انا جئت لامر يحقق بصلة الملكة على الرما بلغني من نزول العرب في
شيء اتها وعزهم على فتحها وان قائد جندك أغضب نفسه باغتفالك واغتنم ساعة حاجتك اليه
وتركك — وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبعة فانها غثباً من اهد رجال
النوط فبعداً الى الانتقام من الملكة كلها ومن نسبها لاتهام افرادها — على ان خططاها
لا يهزءه الملك من الخطأ الذي افترقة ما لا تخوض فيه الا ان » قال ذلك بسکينة
ورزانة فلجد بادر في وجهه فاستغرب رودريلك ما سمعه وارتبا من اخلاصه فرب لانه
لا يستطيع تصويم مثل هذه المذاقب لبعدها عن مناقبه — كما يستبعد الشه الوقى وجود
انسان يكافئون على الحسنة بالاذية — فاراد الاختصار بالاجوبة لينهرين حقيقة مراد
او باب فقال « وما الذي زراء ؟ »

قال «لقد احسنت في اختصارك على الموضوع الذي نحن فيه — فالذى أراه أن
يبعث الى الكوتوت كوميس والى الاب مرزىت فإذا حضرا او عجناها واحرضها على
الرجوع الىك والعمل معك في اقاذة هذه الملكة من غارة المهاجمين » .
فأمر رودريك بعض الحرس بياده ان يذهب في استئنافها جالاً . فسار الرجل
واشار رودريك الى او باس بالجلوس وهو لا يصدق اثنا يقول ما يقوله عن اخلاص
وحبة وظل صامتاً يخاف أن تدرك منه بادرة يلام عليها لان او باس بهم برونو وجسارت
واما او باس فجلس ولم يعيّن في حضرته وبعد قليل «اد الرسول وانما الملك
قرب محيتها . ثم اقبل كوميس وجيء باحترام وجاء بالشارع الملكي وقد استغرب وجود
او باس هناك . ثم جاء مرزىن ولم يبالى عن الانتمال حالما وقع نظره على او باس . أما
او باس فالتفت الى رودريك واستأذنه بالكلام فاذن له فوجه كلامه الى كوميس قائلاً
« قد بالغني يا حضرتك الكوتوت انك خرجت بالآمس من مجلس الملك ثقيناً فكيف
انت الآن » .

فقال « لم اغضب من جلاله الملك الاً » غيره على الملكة ولكنني لم ابلغ متنزلي وادخل
بسفي حتى رأيتني نجحت في علي لانا في حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الاعداء
ولم يتم كلامه حتى اندحر او باس قائلاً « عوقبت من شرم صادق — ذلك رجائي
فيك لعلي مجده مراجلك وحاد المراجع سرير الرجوع الى الصواب . . . » ثم اذنت الى
مرزىن وكان جالساً مطرقاً وقال « ولا أظن الاب مرزىن الاً فاعلاً مثل ذلك
ابهاً . . . » فظل مرزىن مطريقاً ولم يجب فالتفت او باس الى رودريك وقال
« لا ريب عندي من رغبة قدس الاب في الوفاق والوثام ونبذ النهاه علاً
بوصية السيد المسيح . ولذلك فانا لا نعطيك الكلام في هذا الشأن هل تزادر
الي العيل . . . فباامر جلاله الملك بعدد الجلس من كبار الدولة للنظر في
الوسائل اللازمة »

فرفع مرزىن رأسه عمدذلك ووجه خطابه الى الملك قائلاً « كيف تردون امراً مثل
هذا قبل عرضه على جميع الاساقفة وجلالة الملك يعلم ان فتاونن الملكة تقضي
 بذلك ^(١) »

الفصل الثاني والستون

الافرار على الحرب

ولم تكن تلك التوانين خافية على اوبياس ولكنه اراد السرعة لان جمع الاساقفة يستغرق بضعة أيام على انه خاف اذا انكر جهمان بذلك مرتين ما اصلحة فمذكرة الرجل على تعذيب فنال «لم اطلب ابرام شيء دون رأي الجميع ولكنني اردت الثناء مجلس الملك البحث في ما يعرضونه على الجميع» وقد فاته ان مرتين انا اراد عرض ذلك على الجميع ليشكوا الى خروج اوبياس من السجن لانه اخفاذه من جاؤوه في حضرة الملك وزاد غرفةه بالرأي جالسا مجلس المديرا وخطيبه
 فاصحبمن رودريك عند مجلسه فبعث اليهم وهم الكوبيه الذين نقدم ذكرهم فحضروا وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوبوس الجري في عندها على التوانين الرسمية وهي تفضي باخراج مرتين منها لانه ليس من رجال الدولة لخرج وهو يكاد يتبرع غرضاً
 فلما فاتت الجلسة وقف اوبياس ورفع يده وبارك وصل صلاة حارة شفتها بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب النوط ليتحدون على حبارة بلا دم ثم خطب المحضور قائلاً «انتم تعلمون الاصابة التي لحقت في من جلالة الملك ومن مجلس الاساقفة حتى شجوني سبعين المجريين شهرین كاملين لم أر في اثنائهما غير الموكيل بمحامي - حكموا علي بذلك لغير ذنب افترقة او على الايل التي اعتد براءة ساحي من كل ذنب ومع ذلك فحالما علمت بما يهدد الملكة من الاختطار استأذنت في مذكرة الملك وعرفت نفسى للعمل في جلة العاملين على اثناها - فكما بالمرى يحب ان تكون رغبتكم في ذلك فاتمت رجال الدولة ومديرو شؤونها ... لا انتهكم الى امر لا تعلمهون ولكنني ابى لكم عواطلي في هذا الدائن وفي اصغر العاملين في هذا المهل ...»

فنال الكونت كوبوس «ان شهادة اوبياس ومرؤته وتعلمه اشهر من ان تذكر ولكننا لم نكن نحسب في البشر مثل هذه العواطف .. فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا نهملك نحن في خدمة الملك .. ولكنني لا ارى تأجيل العمل الى اجتماع الاساقفة كلاماً بسيط الوقت بلا طائل ...»

فنال اوبياس «ولكن لا بد من استئذنهم في مثل هذا الامر وهم كما لا يخفى

اصحاب النهل الاكابر في تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها واحكامها وتدبر شؤونها »^(١)
 فقال رودريك « لا يكتس القلع في العبودي والعاربة الاً بعد مشورتهم »
 فقال كوميس « لا بأس من استشارتهم ولكن الوقت قصير في الفرصة ثمينة »^٢
 خاف او باس ان يمهد كوميس فرضذهب سعيداً مدرراً وتدبر كان مرتبون خرج من
 الجلسة حافداً وخاف اذا لم يسترضوه ان ينقلب عليهم وبيج الاسافنة على الملك فتقم
 الملكة على نفسها ف تكون المصيبة الثانية شرّاً من الاولى فبعد الى ملادة ذلك فقال
 لكوميس « اراك ضيفت الفرصة ودققت في الطلب فالاسافنة كما قلت لا بأس من
 استشارتهم بل أرى احترامهم واجهـا لهم واشـهـو اساس هـكـنـظـامـاتـ كما نـعـلمـ فـضـلاـ عـاـ
 قد يترتب على نصائحـمـ منـ النـيـادـ .ـ وـ زـدـ عـلـىـ ذـلـكـ انـ الـاعـادـ يـغـضـيـ عـلـيـهـاـ باـسـتـشـارـهـمـ
 لـانـ غـضـبـهـمـ يـنـفـيـ الـذـنـاقـ لـاـعـالـةـ .ـ وـ لـاـ يـخـفـيـ عـلـيـكـ اـيـضاـ ماـ يـتـرـبـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ ضـيـاعـ
 الشـيـءـ الـيـ اـنـ تـسـلـ سـيـنـكـ وـ تـسـجـنـ فـرـجـهـنـكـ فـيـ سـيـلـ الـوصـولـ إـلـيـهـاـ .ـ فـرـجـانـيـ فـيـكـ انـ
 تـلـافـيـ هـذـاـ الخـطـرـ وـ لـاـ شـكـ عـنـديـ اـلـكـ مـنـلـافـوـ فـأـلـقـنـ اـنـ تـبـدـأـ بـذـلـكـ مـنـ هـنـاـ (ـ وـ اـشـارـ
 اـلـىـ بـابـ الـنـاعـةـ حـيـثـ خـرـجـ مـرـبـونـ)ـ لـانـ حـضـرـ الـابـ اـذـارـضـيـ هـاـنـ الـأـمـرـ .ـ وـ مـ

وجهـ كـلـامـ اـلـىـ روـدـرـيـكـ وـ قـوـلـ «ـ هـلـ يـأـذـنـ مـوـلـايـ باـسـتـقـامـ الـابـ مـرـبـونـ لـيـضـرـهـنـ
 الجـلـسـةـ وـيـعـلـمـ لـهـ حـظـاـ مـنـ هـذـاـ الجـبـتـ .ـ .ـ .ـ »ـ

فـكـانـ كـلـامـ اوـ باـسـ نـافـذاـ بـلـ مـرـاجـعـةـ لـانـ بـهـمـ هـاـ اـنـاءـ مـنـ الـحـبـ وـالـرـوـءـ فـضـلاـ
 عـاـ فـطـرـ عـلـيـهـ مـنـ قـنـةـ الـعـارـضـةـ .ـ فـأـمـرـ روـدـرـيـكـ للـحـالـ باـسـتـقـامـ مـرـبـونـ وـكـانـ مـنـزـرـاـ فيـ
 بـعـضـ غـرـفـ الـقـصـرـ فـلـمـ دـخـلـ وـقـتـ اوـ باـسـ وـبـشـ »ـ لـهـ وـقـالـ «ـ لـمـ فـيـهـاـ يـاـ حـضـرـةـ
 الـابـ ،ـ مـيـهـوـلـ حقـ سـيـادـةـ الـاسـافـنـةـ فـيـ شـوـؤـنـ مـلـكـةـ الـقـوطـ وـلـكـنـ وـلـدـنـاـ الـكـوـنـتـ كـوـمـيـسـ
 رـجـلـ حـربـ يـحـبـ الـمـبـادـرـةـ وـغـيـرـهـ عـلـىـ صـيـانـةـ هـذـهـ الدـوـلـةـ حـمـلـةـ عـلـىـ التـسـرـعـ .ـ وـ هـوـ مـصـبـ
 بـالـنـاظـرـ إـلـىـ قـوـانـينـ الـحـربـ وـلـكـنـ اـصـوبـ رـأـيـ حـضـرـةـ الـابـ بـالـنـاظـرـ إـلـىـ وجـوبـ اـسـتـدـارـةـ
 الـاسـافـنـةـ .ـ عـلـىـ اـنـ اـخـافـ اـنـ يـدـعـوـ ذـلـكـ اـلـذـاـ خـيرـ فـتـنـوـتـ الـفـرـصـةـ وـيـذـهـبـ سـعـيـدـاـ ضـيـاعـاـ
 وـلـاـ اـظـنـ سـيـادـةـ الـاسـافـنـةـ اـذـ اـجـبـعـواـ وـاـسـتـدـارـواـ يـذـيرـوـنـ بـغـيرـ الـمـبـادـرـةـ اـلـحـربـ بـلـ
 اـحـمـيـهـمـ بـلـوـمـهـمـ عـلـىـ تـأـخـيرـ التـجـيدـ اـلـىـ اـجـتـاهـمـ .ـ فـالـذـيـ اـرـاهـ .ـ وـ الـأـمـرـ جـلـلـةـ الـمـلـكـ .ـ
 اـنـ تـبـدـأـ بـالـخـاـهـ بـالـحـربـ وـعـذـارـةـ الـأـطـرـافـ فـيـ حـدـدـ الـنـوـاتـ وـالـأـموـالـ وـنـعـثـ اـلـ
 الـاسـافـنـةـ فـيـهـمـ وـتـلـوـ عـلـيـهـمـ قـرـارـ هـذـاـ الـجـلـسـ اوـ نـعـثـ اـلـهـمـ بـخـلاـصـةـ اـعـالـاـ وـمـ فـيـ

ابرشيم لانتها احوج الهم الآن وهم هناك — فإذا اذن لي الملك قلت كلة في هذا
الثان والرأي راجع اليه في كل حال — وذلك اني ارد ان يتدبر قدس الاب
مرizen ليتوب عن جلالته في تبليغ الاساقفة قرار هذه الجملة فإذا رأيت اليه
المخدمة فقدمت نصيحتاً لها ... او كما تشارون »

فلم افرغ اوبياس من الكلام لم ير مرين ميلاً للرد عليه لعله ان امر الدهس نادى
لا محالة وقد اجهبه راي اوبياس بانداب طهارة الاساقفة ليتمكن من بث مافي نسمة الهم
لكنه ساء الطعن في ذلك الانداب وظن اوبياس اهنا يريد ابعاده عن مجلس الملك
او ان يزور هونم حبيه لفرض له وكلا الامرين لم يرضه . فلم ير خيراً من الرضوخ
لقرار المجلس فعمد الى المصالحة فقال وهو يحاول كظم غرقو من تغلب اوبياس على رايو
« لا اظن هرة الملك يبي . الطعن يهدى اذا التبصت جمع الاساقفة فانه طلب
قاضي وايا الحرب فانها تقاتل اخي المتروبوليت تدعوا الى الجهة والملك ان يبلغ
الاساقفة بالطريقة التي يختارها . واما انا فاني اعد ذلك الهيئة شرقاً لي ولكها تبعث الى
الطبوليل لسا يقتضي ذلك من الانداب من ارشيه الى اخرى وكذلك انداب حضرت
المتروبوليت فالاندب ان يتذبذب جلاله الملك من شاه من جائده ويدركم دفعه
واحدة فجعل المخبر الى السادة الاساقفة في وقت معماً »

و لم يجهل اوبياس ما يطوي تحت تلك الملائكة من الكظم والمحنة ولكنها تجاهله
رغبة في الشفاعة وافضي عن كل سببية في سبيل الوصول اليها فابدى احساناً لمساقفة
مرزن واثنت الى رودربك وهو يبتسم وقال « لندن الاتفاق بمحول الله فاعل جلاله
الملك الا ان يبعد مع عبليو في القاذهب للغرب وعنه في كل حال خدمة الملكة في
الامر الذي تريدونه »

فلم يسع الملك بعد ما عاينه من مسامي اوبياس في تصره من ان يغيرها
وبصادر في عبيه نفسه فقال له بورك ذبك يا اوبياس ... » فقطع اوبياس كلامه
خوفاً من اثاره حمد مرزن وحبيه في قطعه انه لا يريد ان يسع الانداب في تضليل
وقف وطلب الى الملك ان ياذن له بالانصراف الى سجو فقال رودربك « امك
معنا يا اوبياس فانك لم المدير ودع السجون لامهلاً ... »

قال اوبياس « اشترك على ذلك ولكنني استاذن في الانصراف من هذه الجلسة
على ان اعود بعد قليل »

فأذن له لفوج أو باس وقد حمد الله على بخاخ مسعاه فلقيه سرجوس فقص عليه ما كان فازداد سرجوس انجذاباً بذلك المذاقب الشربة وتدولاً بشئون كثيرة وعاد سرجوس بعد بضعة أيام إلى الدبر وكانت فلورندا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر فلما عاد وقص عليها ما أشاهه أو باس إلى آخر الحديث أحسست بانتباض في نفسها لاعتبارها ذلك خالفاً لما كانت شوقة من سوط هذه الدولة على يد والدها وما تخلله على نفسها وعلىه إذا لم ينزل العرب في هذه الحرب . فوسمت في حيرة ولكنها لم تستطع تحمله أو باس لأن نهاديس الشرف طالرقة نوبك وتتصرون ولو لا ضعف المرأة وإيشارها الارتفاع لما تغيرت فلورندا غير ما أراده أو باس ولكنها لم تكن ترى متىلاً إلى السعادة إلا بفضل رودريك وخاصةً بعد أن جاءها بخبره . فانتصار رودريك يمود بالليل والنهار عليها . وسألت الرئيس عن التوين فأخبرها الله في أصيق مع فرقة من الجند يتعذر إلقاء رودريك فناقت نفسها للذعاب التي أعلمتها الله لو كان عالماً بهنما لسمى إليها أو بعث في استخدامها . ولكنها خافت العيون والإرصاد واستدارت الرئيس في ذلك من فضال ما «النبي» عندنا ربها نرى ما يكون من أمر هذه الحرب » .

الفصل الثالث والسبعون

السفر

قضت فلورندا في ذلك الدبر بقية فصل الشتاء . وكل فصل الربيع وهي تنس الأخبار بواسطة أجيلا وشانيليا والرئيس فلم تسع إلا بانصرارات العرب وبالدها معهم وقد دخلوا أسيانيا طارقلا في مقاطعة بوتكة . وكان رودريك قد أعد جنده وتأهب للخروج عليهم فسمعت أنه يرجع طالطة يتنسو ويعنة العنزة والرجال وإضربيت أسيانيا بجهلها وفيها الخائف والنائم والأمن والنائم لاختلاف الأحزاب وتضارب الأغراض كما علمت

أما أهل دير الجبل فقد كانوا يسمون الأخبار وهم يرون الخطأ بعيداً عنهم

لبعدم عن ساحة الحرب . وفأورندا قد تراكمت عاليها المهاجمين والخائفون من قبيل أجهزها وخطيبها لا تدرى هل تمبرالي احدها او كلها او تفي في ذلك الدبر وكانت ترجع بقائهم هناك على رجاء ان يبعث والدها فيه . قدمها كافال . فلما اقبل الصيف اصبح دير الجبل عالي النعيم عذب الماء نقيط الماء وقد اكتست اوديقة حلة خضراء ففي يوم من أيام بولو افاقت فلورندا باكراً وهلت بالخروج من الدبر للخشى في بساتينه على جاري العادة وقبل ان تخرج جاءها ايجلا يدعوها الى الرئيس وقد بدت منه لم يدعها اليه فاخذلها واسرعت حتى اقبلت على غرفته فرأيت عنده كهلاً لا تدل سمعته على انه من القوط او من الرومان ورأيت عليه لباساً تذكرت اهباً كانت ترى مثلاً وهي بعد عدد والدها في سبتة ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما شئ لحيته وشاربيه من القبار حتى حاجبيه واهدابه فان القمار غلب على لوبها جميعاً - فلورندا من ذلك اللادم خيراً جديداً فدخلت وحيث فرحب بها الرئيس وقال « هذا رسول من ابوك »

فلما سمعت ذلك خنق قلها وتوردت وجنتها بفترة والتندت الى الرجل وقالت « ما وراءك ... »

قال « اني من اصدقاء ابوك ومحبو والمعلمون على اسراره وقد علمت بكل ادراكك اليه وما تربى على ذلك كله من الانقلاب الذي يعود على رأس - ألا تعرفينني يا فلورندا »

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت اهباً شاهدته غير مرة في صباحها وانه كان كثير التردد على بيت والدها في سبتة .. فاستبطأها الرجل فقال « ألا تعرفين سليمان الناجر »

ذاتهم الحال وفالت « أنت سليمان ؟ نعم اعرفك جيداً وكنت تتردد علينا وتحمل الينا اهدايا واحمال وتباع لنا الآنية والثياب هل انت انت من عند والدي ؟ ولابن هو الآن ؟ »

قال « هو مع جند العرب على مقرنة من وادي لينة » قال ذلك واستأندها بعناده هل بتول كل شيء في حضرة الرئيس فاجابت بالاشارة ان يتعل قفال « وقد اوغلوا في بوتيكة ولم يلتفوا معارضة الا قليلاً وقد عذم اهل البلاد رحمة ولا ياشون ان يتكلموا البلاد كلها »

فبقيت الرئيس وقال «وماذا جرى يحيى اليسان . . .»

قال «لم يلتف العرب برودريلك بعد وأكثنا سمعنا بأغزروجه من طاباطلة يحيى كيف وصوّر خاسراً أبا إشرا . . .»

فظهرت البقية على وجه الرئيس وقال «هل تعتقد ذلك وكيف تكون حالاً إذا صحي قوله . . .»

قال «تكونون في أي حال أحسن مما أنت الآن لأن العرب اذا فتحوا بذلك ظلاً يتعرضون لاهليها في شيء غير ما يفرضونه عليهم من الجريمة او الخراج . وأما الرهبان وجماعة الأكاريروس فائهم معنون من كل ضرورة يذهبون في ديارهم مستكينين آمنين — ذلك ما شاهدناه باعيننا في البلاد التي فتحوها في مصر والشام»

فاطرق الرئيس وسكت فنالت فلورندا «وما الذي جئت به الآن . . .»

قال «كافي مولاي الكونت والدك ان آتي لانتقدك وإذا اردت الذهاب الى صرت في خدمتك»

فأنبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت «ألا تخاف علينا بأيّاً في ائنا الطريق . . .»

قال لا يأس علينا من اهل اسبانيا ونحن منهم . . . ولا من الملك وهو في شاغل من نعمه وجنته . . .»

فالذقت فلورندا الى الرئيس كالماء تستطلع رأيه فقال «اذا لم يكن بذلك من ذهابك فهذا فرصة لا تقريبيها ونحن ندعوك بالوصول الى والدك سالمة»

فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها فاشارت عليها بالذهاب وتأمّلوا في الفد وسافروا ودلّلهم سليمان وعمر اجلالا وشاتيلا وأما فلورندا فطلبت الى سليمان ان يجعل طريقهم باستقامة

فساروا اياماً لا ينبع ماء يوم نور ولا مطر والارض كلها مكسوة بالاشجار والاعشاب والطقوس جهل حتى اطلعوا على استقامة فتحقق قلب فلورندا عبد مداعنة تلك المدينة وكانوا قد اشرفوا عليها من مرتفع فرأوا كبسها فغيرت بها عن بعد وجعلت تناجي نفسها عن مقر التونس فلم تجد بدّاً من استئهام سليمان فنالت له «اذا ائند رودريلك جدّاً الى مدينة مثل استقامة فلين يقيم . . .»

قال لها «اخذلك تبحثين عن مقام الامير التونسي . . .»

فبقيت فلورندا وقالت «نعم . . . وكيف عرفت ذلك؟»

قال «عرفنا منذ بضعة أشهر أذ جئت هذه المدينة وبلقي قدومنا الامير وجده وكانوا يأتون في هذه القلعة قرب الجمر هل أبحث عنه هناك . . .»
 فأمسأنا نست به فلورندا وقالت «أفضل برحلك الله . . . وأنت بالخبر . . .»
 فتركهم وتحول باسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وحالها ولديها جميعاً ينظرون الخبر وفلورندا تهمي . . . ثمها ملاقاة التونسي وكلما نصوت لها اثنين يختلف فلامها في صدرها وهي لا تزال شذى كلامها شاهدته المرق الأخيرة في حدائق القصر في طبلطة وعليه ليس الشفاء والثرو والمطلع وقد خرج من المدينة مسرعاً مبقوتاً عند ساعه الصغير - تلك آخر صورة ارتسست لها في ذهابها : ولم يطل زمن اغطرابها وهواجسها لأن سليمان عاد سريعاً فلما رأته مقتلاً شخصت ابو بصرها وقد ماتت الحياة من مبادره بالسؤال قبل وصوله فلما وصل ابدرها فائلاً «لم اجد احداً في القلعة . . .»
 قالت «اظنهم لم ينزلوا فيها . . .»

قال «لا ريب عندي انهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فأخبرني أن رودريغو بعث إلى مولاي الامير التونسي أن ينادي ليه بن معنة من الجند ملاقاة العرب . . .»

فيجذت فلورندا وأطرقت وهي تتجلد وتستك عيالها بين يدي ذلك الرجل ولكنها أصبحت قلقة البال على التونسي لانه ذهب الى ساحة المركب وهو في جانب طاولها في جانبها وإذا فاز الواحد غالب الآخر وكلماها عزيزان عدهما . . . وربما لم يذت سليمان ما مر بخاطرها من هذا القبيل فقال لها «اظننا تلقي الامير التونسي في الطريق اذا اسرعنا والا فانها ملاقوه في وادي ليه فاذ اوصلنا الى هناك بعث عنه وإتيتك بما تريدين»
 فاعملت فلورندا بذلك الوعد وأشارت الى الركب بالسيز فركبوا وساروا حتى نوار طعن استجابة وقطعوا بيرها وما زالوا سائرین جنوباً وهم يرون بالکروم والبمايون وكلما افتقروا من وادي ليه قل الناس العاملون في المخول

وأقبلوا في صباح اليوم الثاني على طريق رأوا فيها جماعة من أهل القرى يهربون كلهم يهربون من عدو لاحق بهم فقللت فلورندا في نفها للظاهر انها على مقربة من معسكر العرب او ان العرب قادمون . . . فالتفت الى سليمان فإذا هو ينظر الى الأفق وينظر كلما يرى شيئاً غريباً فنظرت فرأيت غياراً يتصاعد فتراجع عندها قدومنا العرب مخفقاً فلامها وقالت لسليمان «يظهر ان العرب قرييون منا اليه مجهم . . .»

قال « لا اظن القادين عرّا لانهم ساترون من الشحال الى الجبوب » ثم التفت الى أحد المارة من الفلاحين وسألة عن سبب فرارهم فقال الرجل « الأترى جند الملك قادين فهم لا يقادون أذية لا يلحقونها بالقراء امثالنا ولا يذكرن ثرّا لا يغطونه ولا زرعا لا يدومونه ولو اكتفينا بذلك مان علينا الامر ولكنهم يلحقون الاذى بالناس » قال ذلك وسار مسرعاً في طار بقو شلا يكون تخطيه من حرب الملك فيقبض عليه

وكانت فلورندا نسخ كلام الرجل وتأسف على تلك الحال وارادت ان تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فنالت سليمان « وهل تظن روودريك نفسه مع هذا الجند »

قال « اظنه معهم »

فلما سمعت ذلك نصورت قرب الخطأ منها سليمان براعي عواطها وبلاعها فلما رأى اضطرابها قال لها « لا تخافي يا مولاتي فالملك في امان تعالى خديه في مكان ربيها يزور هذا الجند »

قال ذلك وهي فرحة الجموع حتى دنو من خربة ملحوزة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوا الخربة فنالت فلورندا « ارى ان اتذكر بيت الرجال » فاعطاها ثوباً من اثوابهم فاعطاها مثله للحالة الجبوز حتى لا يشك من براعم عن بعد انهم رجال ثم اخذتها وفى تلك الخربة وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة فاعتدت الى ذلك ارسلت بصرها فهو الى جهة الغبار فاذا هي بالبيود قد ظهرت والفرسان بهما عليهم الالبسة الملونة والدروع . ورأت في اوسط الحملة بيوداً كثيرة قد تجمعت تحملها فرسان بالبستة مرصعة وفي وسطهم موكب يطلّاً كالشمس فعلمت انه موكب روودريك . فلم تمالك عن الاضطراب ولم يتقارب الموكب من موقعها حتى اصطكست ركبتهاها وارتعدت فرائصها فرميت اشاره الصليب فتشجعت وثبتت قدميها ثم شغلتها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البيود وصهل الخيل وترفة الجنحات وعلوها الملونة والزخرف وضوضاء الناس وهم يرون بين يديها . ثم اقبل الموكب وروودريك فيه على مرير بين داشين بما يشبه المودج وفوق راسه مظلة من الدجاج المزركش مرصعة بالدر طابعه^(١) في مقدمها صليب مغروس في احد اعمدتها وروودريك جالس وعلى رأسه

الذاج يهلاً بالخماررة الكروءة وقد تردى بوشاح مزركش وردى اللون وجلس وتصدر
تصدر الملك على عروشهم وبه في لحيته وهو يجلب بمنظار ذات اليدين وذات الثالث
ينظر الى جنوده وكأنه ما معه من العنة والرجال وقد جلس معه في ذلك المربى الراب
مرتبين وهو يخاطبه ويشير به ورودريك ينظر الى الاعلام المفرطة بوكير ودلائل
الاجئات بادهة في وجها

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك وكان سليمان وإنما
يمانها فلما مر الموكب التفت اليها فرأى لها اصبح مثل لون التراب فاراد ان يشقها
عن الخوف فقال « ما ظنك بعد هذا الجيد يا مولاي ... »

قالت « لا ادري ولكنني أراه كثيرا ... هل كان جند العرب أكثر منه ... »
قال « ان العرب لا يزيد عددهم على خمس هؤلاء تاهيلك بما بينهم الى جند
رودريك من الرجال قبل التقاضي بالعرب وخصوصاً جند مولاي الامير التونسي فإنه
سيضم اليه ... »

فقالت « اذا فالعرب في خطأ وضعف ... »

قال « لو كانوا ضعفاً ما استطاعوا دخول هذا البلد فان النوة لم يتم في الگاند
ولانا هي في الشجاعة ... ان العرب يا مولاي لا يزيد عددهم في هذه الجزيرة على ١٢ ألفاً
ويع ذلك فلم يقف في سليمان احد ... »

فقطعت كلامة قاتلة « ولكنهم لم يلافقوا مثل هذا الجيد بعد ... »

قال « هذا صحيح ولكنني رأيت من شجاعتهم وتحادهم وصبرهم والا اخاف معه عليهم
 شيئاً ومع ذلك قاتلوا النصر من عبد الله بن زبيدة من هنا ... » وفي انتهاء هذا الحديث
مررت بقية الحمامة فشكوا لها ذلك الى آخر ذلك اليوم . وخرج سليمان وحث للبحث عن المكان
الذي نزل العرب فيه ثم عاد فأخبر فلورندا ان العرب ترموا في وادي لينة قرب
مدينة شربيش فقالت له « وهل علمت بعسكر التونسي »

قال « هو على متربة من ذلك المكان »

فقالت « وما العول الآن ... »

قال « اذا شئت النهاية تروا الى مولاي الكونت والذك او صنلوك اليه حالاً ... »
فاصبحت فلورندا في حيرة كيف تمير الى معسكر العرب قبل ان ترى التونسي
وتدير طربقة للإجئات بو او اماناده قلبشت صامتة فادرك سليمان سبب صتها فقال

ـ ما « يظهر انك تريدين البحث عن الامير التونسي قبل كل شيء »

ـ قالت « نعم »

ـ قال « اعرف كرما من كروم شربش لعائلا من اهل هذه البلاد وفي الكرم ينادي
ـ مرتفع يطال على سهول شربش كلها وحيثما عسكر القوم رأيناهم فتقبعين هناك مع خالتك
ـ والخادمين وأماضي أنا للبحث عن التونسي وأنا ذلك بالخبر اليقين او استدبر في الذكر »

الفصل الرابع والسبعون

ـ كتاب اوباس

ـ فاستحسنـت فلورندا رأيه وشكـرته وسـارـوا حتى اطـلـوا عـلـى مـدـيـنة شـرـبـش وـحـوـلـها
ـ الـكـرـمـ وـفـيـ جـلـمـ اـكـرمـ صـاحـبـهاـ الشـيخـ وـالـدـعـارـسـ وـهـوـذـيـ عـنـاهـ سـلـيـانـ فـصـعـدـواـ إـلـىـ
ـ وـاخـرـقـوـ يـلـيـسـونـ العـرـبـشـ فـلـمـ يـجـدـواـ فـيـ الـكـرـمـ أـحـدـاـ .ـ وـكـانـ سـلـيـانـ لـاـ يـرـثـ مـنـ هـنـاكـ إـلـاـ
ـ دـيـرىـ أـوـلـادـ الشـيخـ وـاحـنـادـ أـوـلـادـ بـسـرـحـونـ فـيـ الـكـرـمـ أـمـاـ الـعـمـلـ أـوـ الـعـمـبـ .ـ فـقـالـ
ـ سـلـيـانـ فـيـ نـفـسـهـ «ـ أـنـ هـذـاـ سـيـأـذـاـ بـالـ»ـ وـمـشـواـ حـتـىـ اـنـاـ العـرـبـشـ فـيـ بـعـضـ اـطـرـافـ الـكـرـمـ
ـ وـقـبـلـ الـوصـولـ إـلـىـ سـعـمـاـ صـوـكـاـ بـنـادـهـمـ تـعـودـواـ سـاعـةـ مـثـلـوـ مـنـ نـوـاءـ الـكـرـمـ فـتـقـدـمـ سـلـيـانـ
ـ وـلـمـ يـهـالـ حـتـىـ دـخـلـ الـعـرـبـشـ فـرـأـيـ هـنـاكـ الشـيخـ وـكـلـ ذـرـبـهـ مـعـاـ وـالـفـانـ يـادـرـ فـيـ وـجـومـ
ـ اـجـمـعـنـ فـلـمـ أـرـأـيـ مـقـبـلـاـ ذـعـرـاـ وـهـيـسـ لـلـأـطـرسـ فـقـالـ «ـ مـاـذـاـ تـرـيدـ»ـ وـلـمـ يـنـمـ سـوـالـاـ
ـ حـتـىـ عـرـفـةـ فـقـالـ «ـ سـلـيـانـ .ـ مـرـحـباـ بـسـلـيـانـ النـاجـرـ»ـ فـلـمـ سـعـيـ الدـيـنـ اـسـمـ الرـجـلـ وـقـفـ لـهـ
ـ وـرـحـبـ بـهـ وـكـانـ لـذـكـراـهـ بـنـأـيـرـ فـيـ سـافـرـ اـعـضاـ .ـ ثـالـكـ العـائـلـةـ لـاـنـهـ كـانـ يـسـمـعـونـ بـهـ
ـ وـبـهـمـ كـانـ بـرـاهـ عـنـدـ قـدـمـوـهـ الـشـربـشـ لـاـبـيـاعـ الـخـيـرـ فـيـ بـعـضـ الـمـوـاسـ .ـ وـذـهـبـ عـنـهـ
ـ بـعـضـ الـأـخـطـارـ عـنـدـ رـوـبـتوـ .ـ وـأـهـلـ الـقـرـىـ مـهـاـ يـلـغـ مـنـ ذـكـرـهـمـ وـإـقـدـارـمـ فـانـهـمـ يـعـتـقـدـونـ
ـ فـقـلـ أـهـلـ الـمـدـنـ عـلـيـهـ .ـ فـلـمـ رـأـيـ سـلـيـانـ اـحـتـنـاـ بـهـ عـنـدـ الـأـحـيـاءـ يـالـغـ فـيـ مـلـاطـنـهـمـ وـقـدـمـ إـلـيـ
ـ الـدـيـنـ فـلـمـ عـلـيـهـ وـسـأـلـهـ عـنـ سـبـبـ اـنـزـلـهـمـ فـيـ ذـلـكـ الـعـرـبـشـ فـيـ اـنـاءـ الـهـارـ وـالـكـرـمـ لـاـ
ـ يـسـتـغـيـ عـنـ يـعـوـنـ فـقـالـ الشـيخـ «ـ يـظـهـرـ انـكـ لـمـ تـعـلمـ بـاـ طـرـأـ عـلـيـهـ»ـ

ـ قال «ـ اـخـلـكـ تـعـيـ قـدـمـ الـعـربـ .ـ .ـ .ـ .ـ

ـ قال «ـ نـعـمـ وـلـاـ نـدـرـيـ مـاـ يـأـولـ إـلـيـهـ حـالـاـ بـعـدـ هـنـهـ الـحـربـ وـرـأـيـاـ بـالـمـسـ جـدـ

الملك قد عسكر مثابل جند العرب ولا ثابت الحرب ان تتشتب وعدهنا اطفال لا
نستطيع الترار بهم ولا نحن قادر ون على ترك مغاربنا قال ذلك ويقاد صوره
يهدق حتى على اهلو ووله

فابسم سليمان وقال « لا بأس عليكم يا عاهاني كافل لكم كل ما يجدهمكم وبمحبي
اولادكم من كل شر وهي اناس من اهلي ساعدهم لهم اليم يقيرون عنكم الله
فهل من مكان لهم »

قال « على الرحب والسعه . . . وأشار بيته الى جهة متبدوع الخبر في قبة الجبل
وقال « هناك » وهو ول مسرعاً ومهما بعض اولاده حتى أقبلوا على فلورندا ورفاقها قتالوا لها
ازمة الخيل وقادوها الى ذلك المتبدوع وكان بعضهم قد سبق اليه فكتمة وضلا
ونقضية فصعدت فلورندا على السلم الى المتبدوع وهي لا تزال يلأس الرجال
وتصعدت خالها وخادمها ثم سليمان وظل اولاد الدين اسئل المكان ينتظرون امراً
لارمعه فنزل سليمان قدفع اليهم قطعاً من الذهب وطلب لهم ان يأتونهم بالطعام فاظهر
السخاء فازداد اولاد الدين رغبة في خدمته

اما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المتبدوع اطلت من بعض نوافذ فرأت تحت
ذلك الکرم والى شرقية سهلاً واسعاً على مدى الصر يختارقة تهر على ضفاف الاشجار
والاعشاب وفي احد طرفي السهل الى يمينها خيام على خط لم يعمد مثله وفي وسطها خيمة
كبيرة حمرا اللون امامها علم كبير . . . وامام الخيام الاخر اعلام اصغر منها . . . ورأت وراء
تلك المضاريب خيام منفصلة عنها وفيها الدواب وفيها الجبل وهي لم تز من زين
طويل . . . فلعلت اهلا ترى عسكر العرب فتشتت ريح والدها من هناك وكان سليمان قد
فرغ من صرف اولاد الدين وصعد فلما رأته قالت « أليس هنا عسكر العرب »

قال « بلى يا مولاتي . . . والخيمة التي تريها في وسط المعسكر هي خيمة الامير طارق
ابن زياد . . . ومولاي الكونت بوليان والدكتور يقين فيها معه
فقالت « وما تلك المضاريب البعنة

قال « هي اخيبة النساء ومرانع الماشية . . . لأن العرب اذا ساروا الى الحرب اخذوا
معهم نساءهم ولولادهم وبناتهم ويجعلونهم وراءهم فإذا ضعنوا في الحرب وحدتهم
انفسهم في الرجوع او الترار لفهم اهلام فيعودون وقد تشددوا وتحبسوا
لحوالي نظرها الى السهل من جهة اليسار فرأت هناك خياماً اخرى عرفت اهلا

بعض الأشياء وفيها خيبة رودريك وخيبة التونس . أما فضلاً رودريك فعمره من كبر وجا فوقة من الأعلام والبندول وما أمامه من الخادم والاعوان فات كانوا لا يظرون بعد المسافة . وإن خيبة التونس فلم تستطع معرفتها أشباح خيام القناد ومكثرون فاشارات إلى رودريك وقالت « ألمست هذه خيبة الملك ... »

قال « بلى ... وأظنك تریدين معرفة خيبة الأمير التونس وهذا لا يحيل إلى إلا بالبحث وقد عقدت الية على أن البحث عن ذلك يعني لها لوالدك من الفضل على »

فذكرت فضلاً ثم قالت « ومنى تذهب للبحث ... »

قال « في هذه المائة بستان أهلي ، لك ما تحتاجون إليه من الطعام ولا بأمس علوكها وعلوك خالتك والشابة وهذا نديطان ... »

قالت « ومنى تعود علينا »

قال « أما الرجوع فلا يمكن تجديه وسائل الجهد في الارساع ... » وبعد أن دبر كل شيء ودعم ونزل الشمس قد دنت من المغيب

وكان سليمان كثير الاختلاط بالأشياء يتكلم لسائم فضلاً عن لسان القوط وكان يعرف العربية والبربرية وكان يحمل الكلمة خصوصاً بالاسبابية والتقطيف فإذا كل أحداً باحداها غلوى من اهلها . ونظان القاري ، ادرك ما نقدم أنه هو الرجل الذي جاء الجماعة اليهودية السرية في استقبة منذ بضعة أشهر في التونس فيها وأنايامها عزم عليه بوليان

فلا فارق فلورندا عاد إلى الطريق التي جاء منها ونزل إلى معسكر الأشياء من ورائه كذلك أحدٌ بني قدومه من بعض القرى أو المدن . وما زال يخس وهو لا يتوقع أن يرى التونس باقياً هناك فطالب ثمسم وله بمصر وفصال بعض العارفين فذاؤه على فإذا هو في الطرف وراء معسكر رودريك فجعل له البحث عن يعقوب وعنه كل الارسارات ... وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله إلى المعسكر فجعل الله مار من هناك عرضاً وإنجذب في شافل عنده بالشّعب للغرب . ولما دنا من خيبة التونس وجد ببابها بعض المختر ولم ير يعقوب بهم ثغر من وراء الخيبة وتناظر الله شرق بربو وتحجج بمحنة خاصة لما لبث أن سمع جوايا عادها من الداخل . فعلم أن يعقوب هناك وأنه علم بـ « قطل » مائياً في طربو ولم يعش قليلاً حتى سمع محنة دلة على مكان يعقوب وبالتالي فلما بعث بعارات خاصة بمعارفون بها ثم قال سليمان « أراك لا تزالون هنا ألم تتبع في افتاءه »

قال يعقوب « كدت الخج لولا اوباس وكتابه .. . »

قال « واي اوباس نعي »

قال « المتروبوليت او باس عم التونس »

قال « الحس هو الذي كان رجاؤنا في النجاة من هذه الدولة موقوفاً عليه .. . »

قال « على .. . هو بعدي وقد اطلعتم على ما دررناه منذ بضعة اشهر ورأيتم التونس

نفسه في تلك الجلسة يوم ارباب الدنابير في ذلك النايبوت .. . »

قال سليمان « وقد رأيت من التونس المخادعاً معنا على هذا الامر . وما الذي حدث

له بعد ذلك ؟ .. . »

قال يعقوب « خرجنا من تلك الجلسة وكلنا افتخار بنجاح مشروعنا وقد انتهت ان العرب اذا اخذوا البلاد ابتو الله كل امواله واعادوا الحكم اليه . وان ينبع عليهم على رودريك سعادته واما اذا فاز رودريك فالعافية تكون على رأسه ورأس عرو وسائر اهله .. . واخبرته ان سقوط رودريك يتوقف على امر واحد لا يقدر عليه احد سواه وذلك ان يتضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى . فانشبع وتناثرا على ذلك .. . »

قال سليمان « ثم ماذا .. . »

فند يعقوب به الى جيبي واستقرح لوحياً مضمماً من الواح الكتابة عدم في ذلك العصر ودفعه الى سليمان وقال « وفيما يحن مطمئنون بذلك جاءه هذا الكتاب من عنده او باس .. . »

فتداول سليمان اللوح ونظر اليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابدره يعقوب قائلاً « لاتتعجب ندك في قراءته فالي قد تغيبة حرفاً اكثراً ماقرأته واعدت قراءتها من شدة غريزي من او باس مع فرط اعجاشي بوها اني اثول عليك نص الكتاب كما هو فاصح . قال :

« من المتروبوليت او باس الى الاين الحموب بالرب ولدنا التونس

بسم الاب والابن والروح القدس . سلام

اما بعد فقد بلغني ما ارتکبه ولدنا الكومنت بوليان من الخطا في حملته على رودريك يحيى العرب ولا أذلة فعل ذلك الا انتقاماً لابتي وكأنني بك لما بالفك الخبر مررت بو لانه يبني ما في نفسك من هذا النيل . فأخاف ان يسوقك الفسف البشري الى ماساق

الله ولدنا المذكور فتولى الله على ما يضعه من الملائكة وبيده دعوه الدولة فنهدمون «وم واحد
ما يشاء اجدادكم في اجيال وتدور الدوائر عليكم وعلينا جميعاً» - فإذا كان قد خطر
ببالك شيء من ذلك فائزعة عنك - ألم من حبائل الشيطان . واتحد مع ملك التورط
للدفاع عن مملكة التورط - وألم ما ينتها وبين رودريك من الباغض فانها تتسارع عليه
بعد التزاح من مغاربة الفرياء - فرجائي ان تهفي الى نصحي ولا تقبل قول مواي
والسلام ***

فَلَمَّا سِعَ سَلِيْمَانُ نَصَ الْكِتَابَ لِمَا يَالَّكَ أَنْ قَالَ « وَإِنَّهُ قَوْلُ رَجُلٍ عَاقِلٍ ...
وَلَكَةٌ إِذَا عَمِلَ بِهِ فَالظَّرِبَةُ تَعُودُ عَلَيْنَا خَنْ الْبَهُودَ وَخَصْوَصًا إِذَا فَازَ رُوْدُرِيكَ وَاسْتَعْلَقَ
بَعْضُ الْأَسْرَى وَعَلِمَ بِهِمْ مَا يَأْتُونَا وَدَسَائِسُنَا وَسَاعِينَا ضَطَّ - وَالَّذِي أَرَاهُ مِنْ فَلَةً جَيْدَ
الْأَرْبَبِ مَعَ بَعْضِهِمْ وَصِرْبَمْ - إِنَّ النَّوْسَ إِذَا لَمْ يَبْغِمُ الْهَمَ فَالْكَنْتَةُ رَاجِحةٌ فِي جَانِبِ
رُوْدُرِيكَ ... وَالْعِيَادَ بِإِنَّهُ ... »

فقال يعنوب « ذلك هو اعتقادي ولكني قد استندت الحيل في سبيل اقناعك
وانت تعلم يا سليمان كم يدللت من الوقت والمعي من ايام غريبة لانقاذ شعب الله من
هذا الجور فاركت منهني وتجاوزت عن أمالي ونظامرت بالنصرانية وجعلت نفسي خادماً
اهليّ الاطمئنة واخدم على المائدة — صبرت على ذلك اعواماً حتى اذا خلتٌ صبح
النرج قد اقبل علينا او باس باقفاله بعد ان كان اكرن نصير المايل هو الحرك الاعظم
للمروعا ..

فقال سليمان «اما او ياس فانه يعتمد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق فهو لا يريد ان تخرج هذه المملكة من يد ابي وطنه وديبه ولبنها ويسلها الى اناس غرباء عنه دينًا وطناً ولغة — اما نحن ففيها اخراجها من هؤلاء التوطّ على الاجمال لأن المسلمين خير لها منهم نظرًا لما اهابته من معاملتهم لليهود والنصارى في الشام ومصر فانهم يطلقون لهم الحريمة فيتعامل كل منهم طقوس ديناته كا يهودا على ان يدفع مالاً قليلاً يسمونه الجزية . ورد على ذلك ان اليهود اقرب الناس نسباً الى العرب لاننا وإياهم من جد واحد هو ابراهيم كاتنل . فهم يرتفعون بما ينبع خاص فيجدر بنا والحقيقة هي ان تكون عونانا لهم في تلكم هذه البلاد فنعمل بذلك حبّاً بصلحتنا — ولا يهمنا كلام او ياس ولا غيره ... »

فتال يعتوب «هذا هو الامر الذي نشتاهه ولا سبيل اليه الا بالنجاز التونس الى

العرب لأن ذلك يقلل جنده رودريك ويضعف عزيمته ولا يهمني عليك أن «...»
رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياه وهم لا يجهونه. فإذا رأى ابن ملككم يهاجر
إلى العدو، هؤون عليهم أن «يبعون» أو أن «يقاعدوا عن الدفاع على الأقل». قال ذلك وبئه
في لحيته بلاعب طرفها بانامله وشعرها لا يزال متبايناً بالواسط. وسكت سليمان على المخروج
ساكت ثم قال يعقوب «فالخلاصة إننا أن لم تستطع إثارة الولوس على المخروج
إلى معسكر العرب ذهبتم مساعيناً وإرداهنا وأمواناً أدرجوا بالراح والسلام».

قال سليمان «هذا هو الصحيح ... ولو كان هنا الوتر ينفي بالمثل هآن عليهما
أمره ولكن الرشوة لا مدخل لها في هذا المشروع أذ لا تستطيع ان ترى التوبيخ ولا
او باس ولا اذا رشونا احداً من رجاله يستطيع التغلب على رايو وأنك أقرب الناس الى
ولم تستطع شيئاً مع كثرة دعائكم ومكركم ...» قال ذلك وإنهم
فاجأاه يعقوب «دعنا من الجحون فأننا في معرض جد وخطر الوقت قد دامنا ...»

قال سليمان «ومع يبنيوي رودريك النتال ...»

قال «سمعت انه يبنيوي مهاجمة العرب غداً ...»

فيgmt سليمان وقال «غداً ... ؟ لند داهنا الوقت وفاننا الفرصة ...» الان تستطيع
تاجيل المجمع يوماً او يومين؟»

قال «لا أظني استطيع ذلك ... وما المائة من التاجيل»

قال «سأسي في طريق اظني أبلغ منه المراد»

«ل وما هو ...»

قال «لا أقول لك الا بعد قليل فاعذرني أنت شاخير المعركة يوماً او يومين ...»

قال «لا أظني قادرًا على ذلك يا سليمان لأن رودريك يرى العجلة في مهاجمة

العرب قبل أن تأبهم ثانية فتقوى ساعدكم - أشار عليه بذلك او باس ...»

فقطع سليمان كلامه « سبحان الله ما هذا او باس ... كيف أقلب هنا الرجل من

الشيء الى ضده ...»

قال يعقوب « اذا كانت عدك حيلة فهابها قبل فوات الوقت ...»

قال «افي ذات الساعة وساً عود اليك غداً أصباحاً بالامر الذي دبرته فإذا استطعت ميلاً

شاخير المعركة افعل ... استودعك الله ...» قال ذلك وتحول راجعاً من حيث أتي ويعتوب

وانف حق توارى سليمان عن نظر فخول الى خيبة الولوس وقد مهى هرير من الليل

الفصل الخامس والسبعون

— الحياة —

اما سليمان فانه سار تجاه المعسكر العربي والليل حالك حق انى خبرته بوليان فلم يترتب عليه أحد لانه كان عارضاً بشعاع الليل عدم وكان بوليان قد أدى الى خبرته للرقاد وقلما كان يستطيعه لما تراكم في مخياله من الشواغل القديمة والحديثة فلما وصل سليمان كان بوليان جالساً في الزرائب وقد زاده الارق اثباتاً ولو رأى سليمان على نور المصباح لرأى السويداء مردومة في وجهه بخفاوط واضحة وخصوصاً بعد ان رأى جنود رودريك في الامس فنددهلة ما رأى من كثريها واستعدادها وجد العرب لا يزيد على خمسها لخاف ان يغاتهم الفوض ونعود العافية عليه وعلى ايمانه وسائر اهله — وكل ما تصور ذلك اشتعل بدنه — وهو في ذلك اذ قيل له « سليمان بالباب » فاذن بدخوله فلما دخل جاءه فابداً بوليان بالسؤال « ابن فلورندا .. »

قال « هي في خبر وستأتي اليك في صباح الغد او بعد النraig من المعركة » واخده بقائمها وطمأنه

فقال « وما الذي حملك على المجيء الان .. »

قال « حليبي علي امر ذو بال لأنظرة غاب عن بصرة مولاي »

قال « ما في بصيرتي شيء، الان غير جنود رودريك فاني استذكرتها وخفت على جنود العرب منها . فإذا غلب العرب عادنا ولا بهم شيء، وتنعم المصيبة على روسنا وروؤسنا أهلنا وكل من قال بقولنا .. »

قال « ذلك ما جئتكم من أجله .. ولكن أعلم يا مولاي ان الامر على وعورته يتوقف حالة علي امر هن يশمو » وفهي علي حال التونس وما دار بينه وبين عيونه بدأه الى ان قال « وقد جئت الان ليس بذلك كثيراً الى التونس تدعوه فيو الى التسلیم واتضمن لها أمن الله وضياع أهله أجمعين وتشويه عبارات الغربيين على اغاثة رودريك ما لا يخفى عليك . فاعطني الكتاب وبعدها ابرو بطارقة اخبارها »

فاضطرق بوليان هبته ثم قال « عد الي في الصباح فاعطيلك ذلك الكتاب »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج بلباس مستودع الخير وكانت فلورندا في انتظاره

على مثل الجمر تناذفها المهاجمون وتتراءى بها الاوهام لم يخف جنها الاً قليلاً . وكيف يزورها النوم وحياتها على قيد غلوة منها ولا تستطيع الوصول اليه
وامر ما لاقته من الم الجوى قرب الحبيب وما الى وصول
مفي معظم الليل وفي في هذه المهاجمون وكلها هبة النسم وسمعت حنيف الورق
تنهي سليمان فادماً وكان شوقها يهدىها اشياً تاني والتونس معها . وهي في خلو ذلك
اذ سمعت وقع المطرى وخدعه الاعداب الياسة بقرب المتوجع فاصاحت بسمها وقد
اسرعت دقات قلتها وتعاظمت حتى كادت تسمها باذها فاذها في بالخطوات تلترب
ثم سمعت همساً فلم تبالك عن الوقوف حالاً ودنت من النافقة وأطلقت فرأى سليمان
يخاطب ايجلا ثم صعد سليمان على السلم ففتحت له فلورندا واستقبلتها وهي تتول « ما
وراءك يا سليمان »

قال « ما ورائي الاً الخير ... » وغنة صوتو تدل على ثيده في نصو فاضطربت
فلورندا وإندرتها قائلة « يظهر انك تفسر شيئاً ... قل لي ... ما الخير ... »
فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فتعجبت وهي تمح عينيها باطراف انانها وقالت « ما
الخير يا سليمان هل رأيت الامير التونسي ؟ ... »
قال « كلاماً يا مولاتي ... »

فلا سمعت فلورندا ذلك انشغل خاطرها وقالت « طين هو اذا ... »

قال « هو في هنا المعسكر ... »

قالت « كيف عدت من هناك لم تره ... قل ... ا Finch »

قال « لان رؤبي اياه لا تهيدني ولا تهيدك شيئاً ... »

قالت « وكيف ؟ ... »

قال « لانه في حال لا تسامعه على ساع كلام احد غير عم او باس وهو بأمن
ان يهملك في سهل روذربرك ... »

فلا سمعت ذلك هب جلدتها وتصاعد الدم الى وجهها واقشعر بدبها وصاحت برقة ثم
قالت وهي تبسم استفناهاها قاله سليمان ووثوقاً بالنصائح التونسي للتوطا دون سائز
العالمين « اذله يسمع قوله ... وما الذي يهينا من هذا العاج الآن وما ملاقته ذلك
بنو قنل عن متابلو ... »

قال « ان لذلك علاقة كبرى بيمانك وحياته وجاهة مولي الكونست بوليان

وجهة كل نوطي ينتهي الى غرطة وكل من لا يرضي ان يعيش ذليلاً بون بدبي
رودريك ...

فقالت « وما معنى ذلك ؟ »

فيرين لما الواقعة باختصار الى ان قال « اعلى يا مولاي ان بناءك وبناء والدك
وبناء الامير التونسي نعمه توقف على اختصار العرب وخذلان رودريك . وذلك منوط
ببارادة التونسي . فاذا خادر مسکر رودريك وانضم الى العرب هو ومن معه اخذه
رودريك لا محالة وخلصت البلاد من شره . ولكن يظهر انه مطيع لمعبده وهذا يطلب
اليه ان ينافض مع رودريك فاذا اطاعه كانت العافية وبالاً عليها جميعاً
والعياذ بالله ... »

فاغضبت فلورندا امر التونسي ولكنها ما زالت ترجو ان يصفع لنوفل فهزت
ان تكتب اليه كتاباً شردي اللهجية تتوجه فيه كل عبارات التهريج والتوجيه
والاستعطاف فقالت سليمان « ما كتب اليه كتاباً هل تأخذ اليه ... »

قال « تم يا مولاي التي رعن عن الخدمة ... »

قالت « اذا اصبحت نعالـ فأدفع اليك الكتاب فتحمله اليه وارجو ان يكون
نافذـاً بعون الله ... »

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الخبر قد دا فنورد حصرياً في عريش صاحب
الكرم الخامس للراحة فنهضت عيناه ولم يستيقظ الا على اصوات الطبول والابواق
في نفس وقد اجلل وااطل على الم العسكرية فرأى مسکر التوط بناوج بالرجال وقد اخذوا
في الاختناق للتنفس ولما هم الرابات والاعلام وفي وسطهم موكب الملك رودريك
يقطنو وسرمه وفرسانه واعوانه . وانتهت سليمان الى مسکر العرب فاذا هم في حركة
كأنهم يهبون بالدفاع فاستطع في بيته ونظام من ذلك اليوم وقال في نعمه « فائت
الفرصة » وقد زاد فشلة ما شاهد من الترق المظيم بين مقدار جند التوط وعدد العرب
ومقدار ما عند التوط من العدة وتأجيل طلبهونة . فوشب من مكانه وثوب السرور وسرع
منحدراً نحو مسکر العرب ليأخذ كتاب يولياني الى التونسي فوصل الماسکر وهو يهتم
من العصب فرأى المسلمين واكرام من البربر قد اصطفوا للعرب وعلى رؤوسهم العائم
البيض ثقيهم حر الشمس وشقق عن رؤوسهم مواضي الدبوف وحدد المهام كأنها درع
للرأس . وفيهم حملة الرماح وحملة المحراب وحملة النبي العربية . واما الفرسان فقد كانت

عليهم الادراج من الرد وعلى روؤسهم الخوذ لا يظهر من وجوههم غير المدقق وفي مقدمة هم فرسان محملون الرأيـات وعليها الآيات . ولم يصل الى اليمام حتى سمع اصوات التكبير والتهليل وما فيهم الأمـن قرأ المائحة . والمنتـمات في وجـوه الناس فلم يـهدـيـهم من بيـاني بما سـيلـانيـ في تلك المـعرـكة من خـير أو شـرـ . واختـلـ سـليـانـ بذلك المـنظـمة عن بـولـانـ ثم تـذـكـرـ ما جـاءـ به فـاخـرـطـ في صـنـوفـ الـاجـنـادـ وهو يـتـطـلـعـ ويـشـفـوـفـ فـلـمـ يـهدـيـ بـولـانـ فـسـأـلـ عنـهـ بـعـضـ الـوقـوفـ فـذـالـواـ لهـ انهـ رـكـبـ فيـ اـنـ طـارـقـ بـمـتـحـانـ الجـيدـ عـلـىـ الـبـاتـ وـلـمـ يـكـدـ بـذـبـرـ ماـسـعـةـ حـقـ رـأـيـ فـرـمـانـاـ قـادـيـونـ منـبعـ اـطـرافـ المـعـكـرـ بـنـادـمـهمـ فـارـسـ عـلـيـوـ درـعـ سـليـانـيـةـ وـعـلـىـ رـأـسـ عـامـةـ كـوـرـةـ وـلـمـ عـلـىـ وـجـهـ درـعـ فـظـورـتـ سـجـنةـ وـبـانتـ مـلاـحةـ

فـظـارـالـيوـ فـاـذاـ هوـ طـارـقـ سـيـادـ فـاـنـدـ ذـالـكـ الجـيدـ كـانـ سـليـانـ رـآـهـ غـيرـهـ وـعـرـفـ هـيـبـةـ لـكـلـهـ بـرـهـ عـنـ بـلـ ماـ رـأـهـ فـيـ ثـالـكـ السـادـةـ غـلـبـ الـلـهـ وـعـوـ يـظـارـ الـيـوـ اـنـ جـيلـ عـلـىـ قـرـسـ وـقـدـ أـرـاحـ هـامـةـ اـلـىـ ماـ وـرـاـهـ يـجـيـبـ فـيـانـ مـنـ لـخـهـ جـيـوـنـ عـرـيفـ تـحـةـ حاجـانـ غـلـبـطـانـ تـحـهـاـ عـيـانـ قـدـ اـسـرـ يـاـضـهـاـ مـنـ الجـيدـ فـيـ النـهـاـيـهـ وـالـاـبـابـ . وـلـاـ شـهـنـانـ غـلـبـطـانـ وـلـيـتـهـ شـعـرـاـ شـدـيدـ السـيـادـ اـلـاشـعـرـاتـ قـدـ وـخـطـهـاـ الشـيـبـ . وـكـانـ العـرـقـ يـصـبـ مـنـ جـيـوـهـ اـلـىـ طـيـبـ وـهـوـلـاـ يـمـحـوـهـ لـاـ يـلـمـسـهـ اـلـىـ شـيـهـ اوـ يـنـسـ فـيـ رـجـلـ وـلـكـهـ كـانـ يـظـارـ اـلـىـ الجـيدـ اـجـالـاـ كـاهـمـ رـجـلـ وـاحـدـ . وـقـدـ اـسـكـ عـنـ جـوـادـ يـسـارـهـ وـلـكـهـ كـانـ يـظـارـ اـلـىـ الجـيدـ اـجـالـاـ كـاهـمـ رـجـلـ وـاحـدـ . وـقـدـ اـسـكـ عـنـ جـوـادـ يـسـارـهـ وـلـكـهـ كـانـ يـظـارـ اـلـىـ الجـيدـ اـجـالـاـ كـاهـمـ رـجـلـ وـاحـدـ . وـلـمـ يـكـنـ جـوـادـهـ وـلـكـهـ كـانـ يـظـارـ اـلـىـ طـارـقـ فـلـاـ يـنـفـ الـأـ . وـهـوـ يـجـزـ طـرـيـ وـقـدـ بـالـعـرـقـ صـدـرـهـ وـرـأـسـ وـتـهـبـ عـنـ خـدـبـحـقـ اـخـطـاطـ بـرـدـ شـدـقـيـوـ . وـكـانـ لـوـنـهـ كـلـوـنـ الـلـيلـ الـحـالـكـ فـتـهـبـ سـليـانـ مـنـ مـنـظـارـ ذـالـكـ طـرـيـ الـهـاـئـلـ وـرـأـيـ سـيـانـ طـارـقـ فـارـسـ يـخـلـفـ عـنـ لـوـنـاـ وـعـصـةـ وـبـشـهـ جـاسـةـ وـإـقـدـامـاـ وـبـسـالـةـ وـلـكـهـ أـصـفـهـ مـنـاـ وـإـكـرـنـهـ فـتـهـ سـليـانـ جـاـيـاـ رـبـهـاـ بـرـ طـارـقـ وـرـفـاقـهـ لـهـلـهـ بـرـيـ بـولـانـ يـهـمـ فـيـنـرـهـ وـبـطـلـهـ مـنـ الـكـدـابـ فـاـذاـ بـعـلـارـقـ قـدـ وـقـفـ وـخـوـلـ بـوـجـوـ وـغـوـ الصـنـوفـ الـوـافـقـةـ بـيـنـ بـدـيـوـ وـرـفـعـ هـاءـ وـالـهـيـفـ مـشـرـعـ فـيـ قـبـضـوـ . فـاـدـرـكـ النـاسـ اـنـهـ بـهـ : الـكـلامـ فـاـصـفـوـ فـاـذاـ هوـ يـقـولـ بـعـدـ حـمـدـ اللـهـ وـالـنـاءـ عـلـيـوـ وـحـتـ المسـلـينـ عـلـىـ الـجـهـادـ وـتـرـغـيـمـ فـيـوـ : « أـيـهـاـ النـاسـ أـبـنـ الـمـنـزـ الـجـرـيـعـ أـضـيـعـ وـرـأـنـكـ وـالـعـدـوـ أـمـانـكـ وـلـيـسـ لـكـ وـلـهـ الـأـصـدـقـ وـالـصـيـرـ . وـأـهـلـوـ اـنـكـ فـيـ هـنـكـ الـجـرـيـعـ أـضـيـعـ مـنـ الـإـيـامـ فـيـ مـاـدـيـةـ الـثـامـ . وـقـدـ اـسـتـبـلـكـ عـدـوـكـ يـجـيـبـ وـلـهـجـوـ وـأـقـوـاـتـهـ مـوـفـورـةـ وـأـنـ

لا وزركم الا سيفكم ولا اقوات لكم الا ما نحصلونا من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتخاركم ولم تجزوا لكم امراً ذهب ريحكم وتوسّطت النطوب من رعيها منكم الجراوة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه المافية من امركم بمناجة هذا الطاغية فقد أنت باليكم مدينة الحصبة وان انتهز الفرصة فيو لمكث ان سمعتم لانفسكم بالموت واني لم اجذركم امراً انا عنه بخون ولا حملكم على خطة ارخص منع فيها النسوس . أبداً ينفي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشقي قليلاً استعمتم بالارفة الا لذ طوب ولا . فلا ترغبو بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فهو بأوفق من حظي . وقد بلغكم ما أنسأت هذه الجزيرة من المور الحسان من بنات الونان الزافتات في الدرر والمرجان والحلل المسوجة بالعقبان المنصورات في قصور الملك ذوي النیجان . وقد انتخبكم الواليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً ورضيكم الملك هذه الجزر اصحاباً واخاناً ثقة منه باربياحكم للطهان واسفاهم بحالته الابطال والفرسان . ليكون حظكم منكم ثواب الله على اعلاه كلهم واظهار دريو بهذه الجزيرة . ولتكون مقدمة خالصاً لكم من دون ومن دون المؤمنين سواكم . واثقتم على ما يكون لكم ذكرآ في الدارين . واعلموا لي اول محبس الى ما دعوك اليه ولي عدد مليق الجمدين حامل بخني على طافية القوم للرريق ففاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكت بعد فقد كثيركم امر ولي يعوزكم بطل ماقيل سندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخذوني في عريبي هن واحملوا بأنفسكم علوه واكتنوا لهم من فتح هذه الجزيرة بختل فائهم بهم يهدلون »^(١)

وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالهليل وقد تعددت عرائض وشعر سليمان بعد سماعه ذلك الكلام بما فيه من بوعث الشفيع . ولكن قلق القباع الوقت واوغل في الناس يسأل عن بوليان فرأاه في جملة الركوب مع طارق فاسرع اليه فحالموا رأاه بوليان استدناه منه شيئاً فقال بوليان « استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر .. » فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة وغمول راجعاً الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا وعليه المعول في البغل على عتل التونس لما شهده من مثيرات العواطف . فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب في يدها فتناوله ولم ينه بكلمة محافظه على الوقت وهرول لا يلوي على شيء وهو في قيادة وهبة لا يشك الذي

براء الله من رجال رودريك وكانت الشس قد تكبدت الحباء، وأطللت على ممكراً التوطن فانعكست أشعها عن البيض وبنودم وخوذم وخصوصاً عن موكب رودريك . فجعل سليمان طرفة من وراء الجيد والناس عنه في شابل لام فيو من الناهب فرأى جند التوطن قد ارتقى على هياه كراديس مثل نظام جند الروم . وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظرون جوشهم صنوّعاً متراصه^(١) . فكان جند رودريك مؤلماً من ميبلة ومبصر بفود كلها منها قائد كبير احدها التونس قائد الميسرة . وأما القلب فكان قائد رودريك نفسه ومعه الكونت كوبوس وقد جلس رودريك على سرمه وفوق رأسه رواق من دراج يطلله وهو في غابة من البنود والاعلام وبين يديه المقائلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثواب المزركشة . ولما ثاب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والباقيات والزيرجد حتى خلوا فانه كان من النعم المرصع^(٢) . فاعجب سليمان بالفرق بين إساطة العرب وبذخ هؤلاء التوطن وبين قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجياد . على الله رأى في موكب رودريك رجالاً طويلاً وأفنا على دكة مرتفعة على يواس الكبوت وقد رفع يديه نحو السماء، وفي احدهما صليب مرصع ورفع صوته في الصلاة يضرع الى الله لينصر جند التوطن . فعرفة سليمان من طول قامه وقوته عارضاً الله او باس . ثوقي بالرغم عنه فرأى لما فرغ من الصلاة والضرع اخذ في استخراج الناس على الصبر والاخداد وذكرهم بجد آياتهم وشدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم ..

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعاً حتى ان ميبلة الجيد وكانت عيناه شائعتين للبحث عن بعنوب ليدفع الكتاب الرو . فلم يجده في مصاف الجيد فتحول للتنبيش عنه في الخربة . فلما وصل الخربة رأى بيابها رجالاً في مثل زي الجيد لكنه لم يكن بهن رس فيه حق عرف انه من رجال بوليان . فعلم انه هو الذي نقل رسالة بوليان الى التونس فلما وصل اليه كلهم بجهت لا يسمعها احد سأله هل هوأت رسالة بوليان قال «نعم وهو في هذه الخربة يتناولها وعنه خادمة»

الفصل السادس والسبعون

ـ غالبة العواطف ـ

وكان التونسي من آباء كتاب أو بآس وهو يغالب عواطفه وينظر عما قبل ذلك الحرب فلا يرى له في ذلك الثبات خيراً ناهيك بما فيه من الخطأ على فلورندا وإليها وما يتصور فلورندا مصابة بمسمى يشعر بدنه . وكان منذ قرأت كتابها إلى والدهما في تلك الفترة المظلمة وهو يبحث عنها فلم يقف على خبرها ولم يكن يستطيع التدقق في البحث خوفاً من رودريك ثم سمع بقدوم العرب وأيقالم في بيتكه وبولمان راندم وكان في عزمه أن ينضم اليوم إذا لم يكن انتقاماً من رودريك فاكراً ما لفلورندا . ثم جاءه كتاب أو بآس فأثر على عقوله تثيراً عظياً كأنه أتته بالشوم المفطري - على أن في بعض الناس قوة يسلطون بها على آراء مخاطبهم لا يعبر عنها يغير الأشياء . . . وكانت أو بآس من أكثر الناس سلطاناً على الآراء، وخصوصاً على ابن أخيه التونسي مع ما امتحن به من ضعفه

فاصبح التونسي بعد نلاوة ذلك الكتاب كائناً في بحر لا قرار له يشعر من جهة أنه يجب أن يفعل شيئاً عملاً ويرى ذلك من الجهة الأخرى خذلانياً لعناده ومنافقاً لصلحته - حتى إذا آتاه الأمر من رودريك أن يوافيه إلى شرقي زاده كف عنه أي عم وانشغل بالغرب وإن استعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لم تخرج من عقله ولكن عنده كانت مقدرة بسلطان عم علىه وأصبح يهرب بذلك من نفس خبيث الصدر وقد نسي الاتهام وإغفال الإجهاد وسلم أمره إلى الأقدر

ولما جاء رودريك بالآمن وعسكر هناك سلم إلى التونسي قيادة بسرع الجند^(١) فامر أن يكون على استعداد للهجوم في صباح ذلك اليوم . فذكر التونسي في البحر وأمر قيادة فرتب كل منهم فرقاً في موضعها ودخل التونسي خيبرة ليليس درعه وكان يعتني برائحة وعيشه شأنه شأن عدو يترقب مجيئ مسلييان أو خبره من عنده حتى خاف ضياع الفرصة وإذا هو برجل من بين الناس لخط يعقوب من عينيه أنه يحمل خيراً سرياً وكان ذلك الرجل

(١) وفي التاريخ أنه تولى ذلك مع الخوار

يعرف يعقوب خطاب اليه مقابلة التونس فقال « وهل معك كتاب اليه ومن؟ » قال « معي رسالة من الكونت بوليان » ويد بـ دفع اليه اللائحة من جلد فتاواه
يعقوب ودخل وقت ولم يكن في الحجرة غير التونس فلم يتبه له فأقبل يعقوب حتى دنا
منه وتحمّح خجلاً تعود التونس أن يكون وراءها خيراً - وكان قد خال قيامه وزرع
قبعاته وأخذ في ليس الدرع قياداً بالجزء الذي يكسو الصدر والظهر وهم يلبسو وقد
علقت حواشيه باطراف ضفائر شعر على كتفيه فأخذ في تخلصها - فلما سمع خجلاً يعقوب
الفنت اليه فإذا هو يحمل يمينه اللائحة مختومة وقد جعل يسراء على صدره فتناول التونس
اللائحة وفضها فاستخرج منها رقاماً مكتوباً بأول ما قرأ فيه اسم بوليان خلق قلبه واستيقظت
عواطفه وتصاعد الدم إلى وجهه وبانت البغية فيه وخصوصاً بعد أن أتم تلاوة وكان
يعقوب وإنما امامه وقد استد يديه منصالبيين على صدره - فدفع التونس ذلك الكتاب
إليه كأنه يستدرج في أمره - فتناول يعقوب الكتاب وقرأه فإذا فيه :

« من بوليان كونت سبعة إلى الامير التونسي

بسم الآب والابن والروح القدس

لاحاجة في أيها العزيز إلى اطالة الشرح في المصائب التي تواترت على هذه الجزر الأربع
منذ تولاها هذا الباغي فضلاً عن تعلمه من تعذيبه على الملك وإخراجه من أبيه أهل بندل
والذكر المرحوم - فكرسي الملك لم يتم غبطته وأنت أرشدهم جميعاً - ولم يكتف به تعذيبه على
المحتوى حتى تجاوزها إلى الأعراض فمن كان هنا شأنه فكيف بطلع أمر - والعرب
بالتونس دولة جديدة ملوك المخالفين بالعدل والرفق وهي غالبة على رودريك لا
محالة - لأن أهل مملكته كفهم عليه حق اقرب اقربائه ولهم الذي يتصرّأ أنا ينصر القلم
والقدر - وأنت تعلم أي ضرر يك شنوق عليك لما يبتنا من رابطة السب الصحيح
فإذا أطعنني وانقضيت إلى جند العرب فاني ضامن لك كل ضياع المرحوم والذكر
في الاندلس وهي ثلاثة آلاف ضيعة^(١) قد سليم رودريك ايها وترجع أنت وسائر
آل غبطنة إلى ما كنتم عليه قبل استبداد هذا العلاغة - وإنما كتبت هذا إليك
رفقاً بك وشقيقة عليك والسلام »

وكان يعقوب يخلو الكتاب إلى التونس مطرق وشعر لا يزال مستمراً على كتفيه وقد

على صفة بهداب الدرع فلما فرغ يعقوب من قراءة نظر إلى التوين وقال «ما الرأي يا مولاي ؟»

قال «الرأي ؟ .. انت ادرى مي ما كتب به البناعي الميدرو بوليت فهل اغضى عني واصطحب بوليان ..»

فقال يعقوب وهو يملأ فنا عنتو «لا اشير عليك بشيء فانك ادرى بالصواب وانا معك الى المات ، ولكنني استغرب ذلك الرأي من اوهاس وهو اعلم الناس بما اصابك وأصاب سائر النوط من هنا الطاغية واولا اعتقادك بقوة عقل اوهاس وصحه يدرو لعلك انه يتكلم عن خرف .. على اني لا احبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه .. وفي كل حال فالخاطر لك ..»

فقال التوين «كيف تقول انه ندم وانا لا اجتمع بو الا حرضي على الثبات ولا يزال صوت خطابي يرن في آذانا وهو يفرضنا على الانجاد والصبر في ساحة المعركة ولوهاس يا يعقوب لا ينال قوله جراها ولولا اعتقاده بمحنة عافية هذا الانجاد لم يدفعه اليه ..»

قال يعقوب «علمك الميدرو بوليت يا مولاي حكم وفيما وف وراعظ ولاهوتي ولكن لا يعرف شيئاً من امور السياسة .. ولعلمك اذا سمعت مي ذلك تهمت علي» وامتنع شفائي فلابالي .. ولكن دع ذلك علمك وانظر الى الكوتست بوليان فانه والد فلورندا وهو اثارك هذا المركب المخن في سبيل الدفاع عن ..»

فمد التوين يده وسد بها فم يعقوب بخلاف وهو يقول «يا كي يا يعقوب فاني عامل برأي عي لانه لا يجهل شيئاً يخمن نعمله وهو ادرى مي وبذلك بالاسباب التي حملت بوليان على ذلك .. وقد آن لي ان اخرج لزيادة الجهد ..» قال ذلك وعاد الى ليس الدرع فيتش يعقوب منه ولبس واقفنا وهو يملأ عيونه بطرف سبابتو فسمع خديجه سليمان خارج المخبأ فاستبشر وخرج قدفع اليه سليمان كثياماً قال له انه من فلورندا .. فدخل يو حل التوين فتناوله وفشه وحالما وقع نظار على الخط علم انهم فلورندا فاختلط قلبه وتزايدت ضرباته وظهرت البقعة في وجده وارتعشت انامله حتى ظهر ذلك في اهتزاز الكتاب ثم اندل الارتعاش الى كل اطرافه وهو يتجلد .. وينظاهر بعدم النثر وبعقوب يرى كل ذلك وبتجاهله .. اما التوين فقرأ الكتاب فاذا فيه :

«اكتسب اليك على قطعة من رداءي بداد من دي . وهو الرداء الذي فايلتك بو في حدقة النصر وقد ترق تلك الآلة بين يدي رودريلك دفاعاً عن جوهرة في لالتونس أكثر ما هي لي . وقد أرمليت اليك مع حامل هذا بعض ماتناشر من شعرى في أناها ذلك الدفاع . — تاهيلك يا عالي منه بولايَ تلك الشجرة الباشة نهاء نافقة قصري وإنما هاربة من ذلك الوحش الكاسر — هذا هو رودريلك الذي أراك اليوم محارب بسيفو وتدافع عن عرشه لمحظ له ملائكة اخنالسة من إيلك ولهميل له بدأ سيدها ثانية إلى خطيبتك — إلى غداة ترعم انك تحبها وقد فاتك انك ذاهب بها وبأيها وسائل اهلك وأهلاها إلى الدمار . وكأنك لم تعلم بما ارتكته رودريلك أو عزم على ارتكابه — فاعلم انه أراد ابتدال عني وعفوك سترى فهدني وخوفي واملئي وبدلي طارئي السعادة في طاعونه والفتنة . في عصياني ولم يصح الى يكاني ولم يرق لضرعي . فعصيتي وأثرت الشفاعة حجا باللتونس وحافظة على وداده . ولمل طول البعد انساك عهودك على ضفة نهر الناج يوم مسمت شعر رأسك باناملك وقلت ان غاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تف بقولك — اهذا هو الوفاء .. كأنك تعهدت بقتل وقتل والدي وسائل اهلك وأهلي ... وكأنك اقسمت ان تؤيد سلطان هنا الباغي — فاذًا علت ماذ كرنة لك وذكريت ماضي عهودك ورأيت البقاء عليها فائزك رودريلك وجنه وتمال اليه فوق هذه الراية في مستودع الخمر بين المعسرين او الى والدي في معسكر العرب . واما اذا كت لارتفاع على نصرة ذلك الظالم وكان حمب فلورندا بقية في قلبك فلا تتركي أموت قبل ان اراك واشكوك اليك جدلك واخطبك واعنكك والعين على المون بازروه منك نظره انسى بها ذلك الشفاء . وادا شئت حتى بهذا فاستودعك الله الى ان تلقى بين يدي الديان العظيم وبعد رودريلك بشهد على نسمو وعلبك والسلام .. « فلورندا »

ما قولك في اللتونس بعد ثلاثة ذلك الكتاب ومشاهدة شعر فلورندا وقد علقت حبه ما واستسلامه لهاها فانه ما فرغ من تلاوته حتى احس كأنه استيقظ من رقاد . او في عواطفه تبيهت من غفلتها او اخللت من قبود الاصبع . فاستولى عليه سلطان الفرام فناساه او ياس وكتابه وحكمة وآدابة . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضي النفاء غالباً على كل سلطان يستدلُّ الملوك ويجعل سيف التواد ويغير عنوان اللراسة والحكمة . — ظلل اللتونس بضع دقائق مطرقاً كأنه غائب الرشد ولم يبق في عينيه الا صورة فلورندا بسوها الارجوانى الذي رأها فيه المرة الاخرية وشعرها النهي ضمن تلك الشبكة وفي به

بضعة من كلامها . ونذكر ما دار بينها من التناكي والعناب وما تمهد لها يوم من أسباب المساعدة باخراج المالك من رودريك . وتعاظم تجليه واضطرابه حتى توم انديم صوت توبيخها واعتنيتها وبرىءونها — وكان يعقوب وأفناً بين يديه فلما رأى اغطرابه وتأثره خرج من المحبة تأديباً لجنو التونسي بنفسه . فلما خرج لبني سليمان وكان وأفناً هناك على آخر من الجبر . فلما رأى يعقوب استنفه بالاشارة فاجابه بالاطلاق عينيه انت الطبيحة فارت الشفج . وفيها ها وافنان رأيا فارساً مسرعاً نحوها وفي به شيء فتقدم يعقوب نهرن للسؤال عن غرضه فإذا هو من أتباع اوبياس فلما تلاهها تعارفاً فسألها يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من اوبياس الى التونسي . فاستعاد يعقوب بالله من ذلك الكتاب خاتمة ان يكون فيه ما يند ذلك الطبيحة فهدى الى الاحوال فقال « ان مولاي الامير يغير ثيابة ولا يستطع احد الدخول عليه . . . »

قال « اني مأمور بايصال هذا الكتاب الى حالاً . . . »

قال « هاتو وانا ادخله عليه بعد قليل . . . »

ندفعه اليه وانصرف وهو لا يشك انه اتم محبته — اما يعقوب فانه ظاهر بدخوله المحبة ودار من دراها وقض الكتاب فإذا هو يخط اوبياس واصفاً :

« لا يخدعك اليهود بدسائهم فالماء اما يربدون مصالحهم وليس في في بناء الملائكة للقوتوط . انته في الدفاع عن الوطن كما هو ظاهري قوله واضع الى قوله قافي زيارة اريك » فلما فرأى يعقوب الكتاب اصبح الضياء في عينيه ظلاماً وتعجب له يقظ اوبياس وانجاها . وادرك انه اذا لم تتفقد حملة في تلك الماعة ذهب مساعيه ومصاعي سائر اليهود بهاء مثوراً . فاستقدم سليمان واطلبه على ذلك الكتاب وتناولها فأقرّا على كفاحه عن التونسي وإن بجهلا العمل قبل ان ينكشف النتال . فدخل يعقوب فرأى التونسي جالساً على وسادة هناك وهو لا يزال مطرقاً ولم يتم لبس الدرع وشعره لا يزال مسترسلأ على كتفيه . فلما دخل يعقوب اتجه التونسي لنفسه فوقه وفي خاطره ان يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن المياء منهجه فابدره يعقوب قائلاً « ان الرسول لا يزال وأفناً في انتظار الجواب . . . وقد امن صاحب الكتاب انت يعود سرعاً . . . » فخاطر لا التونسي ان يرى الرسول ويسأله شيئاً لعله يخلص من ذلك التردد فقال « ادخله على »

خرج واستدمه فدخل سليمان وسلم منادياً فسألة التونسي قائلاً « هل رأيت

كاتب هذا الكتاب ؟

قال « نعم يا مولاي »

قال « ومن هو وماذا تعرف عنه

فأشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كأنه ينفي امرأ لا يريد التصرّح به بحضوره
فasher التونسي الى يعقوب فخرج . فتندم سليمان الى التونسي وقال « انسبع لي يا مولاي
ان أصرّح بما اعلمه قال « قل »

قال « اني من اصدقاء الكوانت بوليان صاحب سيدنا وقد كلني ان استقدم ابيه
فلورندا من دير كانت فيه قرب طرابلس فوصلنا بالامان
قال « وابن في الان ؟ »

قال « هي على متربة من هذا المسر »

قال « ولماذا لم تذهب الى والدتها ؟ »

فأطرق سليمان وتظاهر بشيء يبعث الحياة من ذكر فارداد التونسي رغبة في
الاطلاع عليه فقال « قل كل ما تعرفه ولا تخسر شيئاً »

فرفع سليمان نظره الى التونسي وقد تباكي حتى ظهر الدمع في عينيه وقال « ماذا
اقول يا مولاي ان فلورندا اصبحت في حال يرى لها من الفعف ولم ارها يوماً واحداً
في اثناء رجوعها غير مبللة العيون . وكانت اظليها تفعل ذلك شوقاً الى والدتها ثم جعلت
اميها بقرب لفافها فلا تزداد الا بكاء . ولما صرنا على متربة من معسكر العرب حيث يقيم
والدها ابت الذهاب اليه واخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من حالها
العبوز ومن قرائن اخرى انها مخطوبة الى وسمها ثالول امها تزيد الحمى . البك ولو
كنت في ساحة الحرب لم ازر في حياتي مثل هذا المحب فلما لم تبال بأيتها في سبيل
لذلك - ولا اخفي على مولاي اني عرفت ذلك رغم كفايتها ايماء عن كل البشر . وفي التي
سلبت هذا الكتاب اليه وأوصي امها ان اعود اليها بالجواب حالاً وفي تبكي قال
ذلك وتسقطت عبراته كأنه يبكي بكاء صادقاً

فلم يقال ذلك التونسي عن ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول وفتح الابواب في
المعسكر فعلم ائمها شرعاً في القتال فدق قلبه ورأى انه لا بد له من القاطع في احد
الامررين . فتشاغل بليس درعاً واصلاح ثيابه وقد ترجع له ان ياتي « وي فليه وباطبع
فلورندا ولكن الحياة كان يمسكته

الفصل السابع والسبعون

الحب غالب

وهو في تلك الحيرة اذ دخل الخبيرة رجلٌ يلبس الكتفوت وهو هرول وبضم فـيـنـظـرـالـتـونـسـالـوـفـاـذـاـهـوـاـلـاـبـمـرـيـنـيـلـاـسـالـرـشـيـالـكـلـوـنـوـتـوـلـمـلـوـشـيـوـلـعـلـصـدـرـهـصـلـبـمـرـضـوـغـضـبـبـادـيـفـيـجـهـوـوـلـمـيـكـنـالـتـونـسـيـجـيـهـوـلـاـيـعـدـيـرـهـفـلـمـرـآـءـدـاخـلـاـعـلـتـلـكـصـورـةـتـلـاهـبـالـسـوـالـفـائـلـ«ـكـيـفـتـدـخـلـخـيـرـيـقـبـلـأـنـتـهـيـإـلـىـذـلـكـمـعـخـادـمـ»

فقال مريين وهو يضم كالمعادة « اي خادم تعني ... ؟ اي متى كان الاب مريين بينما ذُن قبل الدخول ... اين الكتاب الذي جاءك من علک الان ... ولماذا لخلت عن النبال وانت قائد ميسرة الجيد ... »

فاكبر التونس احتلة على تلك الصورة وذكر عليه ان يعتذر عن سبب تخله او ان يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال « وما شأتك وحضورك النبال او ما يرد على من الكتب من عي او من غير ... ؟ »

فعني غضب مريين ولم يُعد يعني ما يقوله وقال « ان لي فيه شأنَا نعمله واذا كُنْت لا ترى ذلك من شأنِي فلا اظنك تكره على جلالة الملك ... صاحب هذا الجيد وفائدته لا كبر ... »

وكان سليمان يلفـنـاـفـيـبعـضـاطـرـافـالـخـيـرـةـبـحـيـثـتـتـقـعـعـيـنـةـعـلـىـعـيـنـالـتـونـسـوـكـلـماـقـالـمـرـيـنـقـلـاـأـشـارـسـلـيـمـانـيـلـشـفـيـوـوـاجـيـوـاـشـارـالـاسـتـنـافـوـالـاسـتـيـاـ.ـوـإـرـدـعـلـيـوـالـتـونـسـأـبـدـيـسـلـيـمـانـاسـتـمـانـةـقـوـلـهـإـعـيـاـتـبـحـيـوـوـعـرـةـنـفـوـ.ـفـارـدـادـالـتـونـسـاسـمـاسـكـاـبـذـلـكـ.ـفـلـمـعـرـضـمـرـيـنـيـذـكـرـرـوـدـرـيـكـوـسـلـطـانـوـزـالـحـيـادـالـتـونـسـمـاـكـانـتـنـاعـةـتـحـدـثـاـيـوـوـلـمـيـكـنـجـنـاـةـالـأـخـرـوـجـمـنـالـخـيـرـةـمـسـرـعـاـإـلـىـجـوـادـفـامـطـاهـوـجـوـلـشـكـيـرـةـخـوـمـسـرـةـالـجـيدـوـهـوـيـنـوـلـ«ـسـوـفـنـرـوـنـمـنـهـوـصـاحـبـهـنـاـجـيدـوـمـاـهـوـمـصـدـرـأـهـلـالـغـيـ»ـ.ـوـقـدـكـتـاـرـدـدـفـيـالـذـهـابـوـجـرـيـفـاـيـذـاهـبـعـجـنـديـ»ـ

وكان النبال قد بدأ وتطايرت السهام وتلالات السيف وعلا ضجيج الرجال

وصهيل الخوب وصلصلة الجم ودببة العجلات ومتارعة السيف . والملك في قلب الجيش وحولة فرسانه وأعلامه وبنوده وأباس يطوف الجيش على جياده وقد تزع فلسنته فما ترس شعر على كثيبه وظاهره وأمسك زمام الجمود بسراه ورفع إيهام بحمل بها صليبًا مرصصاً وهو يستحق الجهد على الديات والصبر

وكان التونسي ملاركب جياده وقعت عينه على أباس عن بعد خراف ان يدركه قبل الفرار فنهى عن عزم فساق جياده ولم يلتفت بيته ولا يصر حتى اتي فرقته فلاقاء وما وزمه قاتلا المرة بعدها خذلها وعددها خيراً . وقد علت ايمها كانها يجران ويكرمان رودربك فاطاعاه وأمر الجندي بالخروج من المعركة فخوات ميسرة التوط كلام خلو معسكر العرب فضففع جند التوط وأضطررت جوانبه

اما مرتين فانه ما انتك منذ خروج الجندي من طليطلة وهو يرافق حرّكات او باس ويلقي الشوكوك لدى رودربك في اخلاصه وصدق نبوء . فلما تزلوا سهل شريش واصطف الجندي للنقال رأى التونسي تأخر عن الخروج للحرب ثم رأى او باس دفع الى بعض حاشييه كتاباً سار به الى خيبة التونسي فظن سوءاً واسرع الى الملك فاراه الرمول رأى كما الى تلك الخيبة وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج التونسي وسلامان وبني هو في الخيبة وشك عظام عاليه ما كان من استدلال التونسي بوفاته الى ماحولة فوق نظر على رق ملتوه فتناوله وهو يحمله كتاب او باس فإذا هو كتاب فلورندا وقد نسبه التونسي هناك لغشيو وتسره فخرج مرتين بذلك الكتاب فرحاً شديداً وفهم منه مقام فلورندا ولكنه ما زال يعتقد (او يرى ان يعتقد) ان او باس كتب اليه بالانقسام الى العرب

وخرج مرتين من الخيبة ونظر الى الجندي فرأى التونسي وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب فركض الى رودربك وكان لا يزال على سرير في وسط موكيو فنظر الى مرتين فإذا هو يشير باصبعه الى التونسي ورجاله فلما رآهم رودربك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استنشاط غضباً وقال « ما الذي غيرتم ؟ »

قال « غيرم كتاب حضرت المتروبوليت وقد قلت لك اني لم اكن اطيش بقلواهه .. فامر بالنيف عليه الاآن واجبه قبيل انت يهزه هو او يعرض بادي الجندي على الفرار .. »

فأمر رودربك رئيس حرسو ان يدقض على او باس حالاً فامر رئي الحرس ومعه كوكبة لانفاذ امر الملك

اما مرتين فلم يذهب غرفة بالثقب على او باس فاراد ان ينتقم من التوين فاغتنم شخص رودريك ودفع اليه كتاب فلورندا فدلاه وهو ينتقم من شقة الغرفة لما حواه من الطعن فيه والفرج على اذيه . فلما فرغ من تلاوه اصبحت لحنة ترقص على صدره واناملة ترتجف وصاح في مرتين « ابن هو المستودع الذي تقيم فيه هذه الناجرة ؟ »

فأشار مرتين الى المستودع وهو يقول « اظنه هذا
فاصر رودريك كوكبة من فرسانه ان يذهبوا للثقب على من فيه ويسوقون اليه احياء او امواتا

الفصل الثامن والسبعون

ـ ـ ـ فلورندا وبلد ـ ـ ـ

اما فلورندا فطلت بعد ذهاب سليمان من عندها في ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكانها وكان اكبر اهتمامها في المبكرة لعلها ان التوين هناك ولا تسل عن اضطراها وقتلها . فلما رأت الموسنة هجر الى معسكر العرب اطاعت ولبيقت بالفرح ورقص قلها طربا . وكانت الحالة واقفة الى جانبها ونظرها قصيرة فاخبرتها بها رأته فشاركتها بالفرح وكان اجلها وشانتيلا واقفين على مرتفع يحيى المسودع يراقبان حركات النساء فلما رأيا بيسرة التوط اضحت الى العرب اسرعا الى فلورندا فأخبراهما فدروا جميعا ووقفوا يخاطبون بما شاءت كل منهم في اثناء المعركة ما لم يتبه له الآخر

وم في ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد اسرع وبعده بعض غلاماته واعطاهم يركضون حتى صعد المسودع وهو يصبح « ابن سليمان الناجر .. فانا وعدنا بالمحابة » فاطللت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان التوط يسوقون خيولهم بين الدالية لا يبالون يركضونها حتى وصلوا الى المسودع وفي ايديهم المدوف مسلولة فعما رأيهم فلورندا علمت انهم من رجال رودريك فاصطدكت ركبناها وارتعشت فرائصها وصاحت « اجيلا .. شانيللا »

وكان قد جاءه للدفاع قبل ساع صوتها ولم يبالها بكتة الترسان الثادرين عليها وساعدها على ذلك أولاد الشيخ ونساواه وعلت ضوضاء النساء والاطفال وفلورندا واقنة في النافذة مع خالتها وهي تصرع صدرها وتصلى الى الله ان ينجيها وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم ان يدفعها عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى اتنل المستودع فرأت اجيلاً وشائيلاً قد وقعا قتيلين بعد ان فدلا بضعة من رجال رودريك لفربت عليهما حزناً شديداً . ولكنها اصبهت في شاغل من نفسها ولم تجد من تستغيث به غير الله فثبتت في وسط المستودع وكشفت صدرها وحالت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول وفي تلطم وجهها وتصرع صدرها وصوتها يختنق من شدة البكاء « اهي انت نصير الفعناء ... اهي انت منتد المظلومين ... اللهم اشفع على صبائي احسي من هؤلاء الطالبين ... اكراماً لكم ابائك المسنيوك على الصليب ... » ثم اختنق صوتها فبلغت ريهما عادت الى الصلاة وهي لا تزال يدببة الاقدام على السلم الخشبي المؤدي اليها ولم تلتفت الى شيء ما حولها وإنما صوبت حواسها وعواطفها لفكارها كلها الى السماء وهي على ثقة تامة ان الله لا يتخلى عنها وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد خلباتها وتؤمن بها

اما الترسان فانهم قطعوا ذيابك الداين وبضعة من أولاد الشيخ وصدروا الى المستودع صعود الذئاب الكاذلة ورئيسهم يتقاسم وهو من اهل بلاط رودريك وكان قد شاهد فلورندا في طليطلة غير مررت لها رأها في المستودع لم يعرها لما طرأ عليها من التغير بالاسرار ثم ما كان من تفجير حالمها في تلك الساعة وهي محلاة الشعر بمكوفة الصدر حاسرة الزنددين وقد توردت وجدتها من اللطم والصفع والاحمرت عيناهما وتذكرت اهداها من البكاء . وكان الدمع قد هال وجهها وامتزج بالمرق المنساقط على صدرها فتبال شعرها وقبصها — فلما رأها الناس على تلك الحال وقد دخل ولم تتبه له ناداها فلم تجده فتقدم اليها وامسكها برزندتها وجدتها غوفة فافتقت اليه فرأت بمه الأخرى مهياً لا يزال يقطر دمًا وقد تلطخت انانة الأخرى بالدم فلما شاهدت ذلك ازدادت رعباً ولكنها تجلدت وقالت « ماذا تريدون ؟ ... »

قالوا « تزيد ان نهفي بك وهن معك الى الملك رودريك ... »

فلما سمعت اسمه صاحت « لا ... لا ... لا اذهب اليه ... »

فقال لها القارس « سوري، برضاك ولاأخذنك قهراً ولا افتك ستعطين الحياة من ايديها وتحن جماعة » قال ذلك وصاحت في رجاله وقبضوا عليها يدها وجروها

فالجوز تصبح فيهم واستعطلهم وما من مجيب — حتى نزلوا من المتنوع فاركبوها فرساً وأركبوا خاللها فرساً آخر وساقوها فلورندا لا تزال حلولة الشعر مكتوفة الصدر بمهرة الوجه دامعة الطرف وهي تستفيت باهلاً ومتصر على النوم الفطاليين والفرسان لا يبالون بصياغها وغيبها حتى اخدروا من تلك الاكمة وانهوا الى ساحة الحرب . ففوق نظر فلورندا على رودريك في موكتو وقد حي وطيس الحرب فالحتم الجيدان بين فارس و راجل واختلط المسلمين بالتوط ، والملعون يعرفون ايمائهم اليهم . وقد تضيع التوط حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنسو

وكانت فلورندا قد استمدت من الحياة فودت لو ان ثيالاً من النبال المتساقطة بصيغ صدرها فيجيها من روبيه رودريك . ثم التقى فرأت فارساً من جند المسلمين يهول في المعركة على مقربة منها وهو صبور الوجه مناسب الملائج ولو لا عاتمة ولباقة العربي لظلت قوطياً . وقد شد عاتمة على رأسه شداً وثقاً واستل سيفه واخذ بهاجم صنوف التوط فيبددها ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عليه على عيدها صاحت فيه واستجداته بالغة لم يفهمها ولكنكه فهم مرادها من اشارتها وملائمها ووقفت من نسوة موقعها عظياً من اول نظرة . طارس للدفاع عنها تحول شكلية جواده نحوها وشهر سيفه وصاحت « ابشرني يا مليحة انك بدر . لا تخافي .. »

وجاء في اثنين بفترة من فرسان البرارة يذلون آية التوحيد وفي ايديهم السيف فلم يستطع فرسان رودريك الدبات امامهم طويلاً فلما خافوا اختناق ممعاه اسرع احدهم الى الملك يستجهن فلم يهالك رودريك ان جاء بندوة وقد تحول عن سريره الى جواده مهلك بالزخارف وفيها الم gioهرات على تاجه ونطاقه وسندوه وقبائه حتى نعلوه^(١) وكذلك عنة الفرس فقد كانت مرصعة بالجوارد من أجل الخيل شكلها وقواماً ولكن جواد بدر ينصلحة خفة وسهولة مثل سائر خيول العرب

وكان بدر قد شئت شمل الفرسان عن فلورندا حتى اوشكت ان تتجهوا اذا برودر يك اقبل بالقتال فلما وقعت عليهما على عيدهما صاحت هي وحالها بصوت واحد — تاهيلك بصوت يرجو وصاحبة الحياة من الموت والعار معـاً — « هذا هو طافية التوط .. »

تحول بدر اليه فعرفته من قيادته انه الملك وبارزاً وكان بدر انشط بدئنا واحفـ

مركيماً فخواولاً وتصاولاً وكان رودريك من القواد المعروفين . وكانت فلورندا على جيادها وعیناها شاحضنان الى الرجالن تراي كل حركة من حركاتها وقد حبس انسانها ثلاثة ينفلها النفس عن مرافقه تلك المبارزة لعلاقة ذلك بعيانها او ماهما . فإذا هم رودريك شاركت بدرأً يطلق ضربة وربما رفعت يدها لتناثرها فإذا هم بدر أحست كأنها تفهم معه وهي بالحقيقة وافية مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نظيرها بكل حركة — ثم ما لبثت ان رأت رودريك يستهل بدرأً بالاشارة وكان بدر يود ان يقضم عليه واسوقه الى طارق اسريراً لبال باسرع فحرراً . فلما رأاه يستهلل اجاية بالاشارة ايضاً ان يمضي معه الى معسكر المسلمين . فاجابه انه ميونعل ذلك بعد ذلك . فلهم بدر انه يبني قصاء حاجة قبل التسلل فاطلاعه على غير حذر وقد يكون استهلاكه خدعة برج الفرار «ها ولكن بدرأً كان مستحلاً بالرجل وعندما ينفع . فهو رودريك شكيمة جواهه نحو خيامه فالافتت بدر الى رفاقه وكلهم بالبربرية ان « خذلي عن الفتنة الى خبيثي » . فانفتح اثر رودريك

وكان النوط قد ضفت عزائمهم فلما رأى ملكهم فارساً اركبوا الى الفرار . اما بدر فما زال يتعجب رودريك ورودريك يجول في معسكره كأنه ينش عن ضائع وبدر يبعده وينجس من مسيره على تلك الصورة حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن امتنع فرساً وهم « بالفار فصال رودريك فيه « مرتين !! » فالافتت مرتين واقترب من رودريك فابدره رودريك بسيف كان مسلولاً يده وهو يقول « كل هذا البلاء من قياده سيريك وضعف رايتك . » فاصابت القرية عنته فوقع مضرجاً بدمو فدركه صر بما وساق جواهه نحو الوادي ويدر يبتعد حتى وصل ضفة النهر واظهر ان لم يعد بتوى على رد جحاح جواهه فارسله في الماء ففرقها معماً — وبنقال انه فعل ذلك عدداً وفضل الموت غرقاً على ان يقتل احد من اهداه^(١)

فرجع بدر وهو يصبح « قتل الطاغية ... قتل الطاغية »

فازداد المسلمين جرأة واوغلاوا في معسكر اعدائهم . ولم يقل شمس ذلك اليوم الى الاصلح حتى خلا المعسكر من النوط الا من وقع قتيلاً او أخذ اميراً واستولى المسلمين على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والامتعة والخيول والماشية وغير ذلك

(١) لم يتحقق المؤرخون كيف قتل رودريك وبن ادائم انه غرق في ذلك الماء

وكان طارق بن زياد في أثناء المعركة يحول على جواهه بعرض المسلمين على البابات ويكافح وبجاذد ويتناول لا يناله بقلة رجاله بالنسبة إلى رجال التوطـ. وهو لم يكن يعلم بما كتبه بوليان إلى التونـ . ولكنـ صم على الاستهلاك في سبيل النفع كما رأيـتـ من خطابـ الذي ذكرـناـهـ . علىـ أنهـ كانـ قدـ صـمـ علىـ الاستهلاـكـ فيـ هـذـاـ السـبـيلـ مـنـذـ وـعـلـىـ الـانـدـلـسـ فـاحـرـقـ سـفـانـةـ أـبـاسـاـ لـهـ وـلـرـجـالـهـ مـنـ التـعـلـقـ جـاـهـ أوـ الـانـتـهاـ.ـ إـلـيـهـاـ اـذـاـ غـلـبـهـمـ التـوطــ .ـ وـلـذـلـكـ لـمـ يـكـنـ يـكـنـهـ عـدـيـهـ اوـ قـلـيـلـهـ وـإـنـاـ كـانـ هـمـ وـمـ مـنـ بـعـدـ الصـدـرـ وـالـبـاتــ .ـ فـلـاـ رـأـيـ الـتـونـ وـرـجـالـهـ يـضـمـنـونـ الـوـ شـكـرـاـهـ عـلـىـ ذـلـكـ وـإـرـدـادـ ثـنـةـ بـالـتـبـاحـ وـحـرـضـ الـمـلـمـلـينـ عـلـىـ الـبـاتـ حـتـىـ قـضـيـهـ عـلـىـ التـوطـ بالـزـارـ كـاـ رـأـيـتـ وـكـانـتـ تـلـكـ الـأـقـعـةـ الـفـرـبةـ الـخـاصـيـةـ عـلـىـ مـلـكـةـ التـوطـ قـتـلـ فـيـهـ مـلـكـمـ وـنـجـيـةـ قـوـادـمـ

الفصل التاسع والسبعون

التاريخ

فـلـاـ فـرـغـ الجـنـدـ مـنـ الـحـربـ وـرـاجـعـواـ إـلـىـ خـيـامـ اـمـرـ طـارـقـ بـعـدـ الغـنـائمـ وـالـسـيـاـياـ وـالـأـسـرـىـ إـلـىـ مـاـ يـدـهـ عـلـىـ جـارـيـ العـادـ بـعـدـ كـلـ قـتـالـ .ـ شـمـلـواـ كـلـ مـاـ غـنـمـوـهـ مـنـ الـعـلـمـ وـالـسـلاحـ وـالـآـنـيـةـ وـالـتـسـخـيرـ وـالـجـوـاهـرـ وـالـتـحـفـ وـإـكـثـرـهـاـ مـنـ الـصـلـبـانـ وـالـخـنـافـسـ وـفـيـهـاـ الـنـفـقـةـ وـالـذـهـبـ بـيـنـ مـرـضـ وـغـرـمـ رـصـعـ .ـ وـجـاهـهـاـ بـالـأـسـرـىـ وـفـهـمـ الـتـهـيدـ طـلـوـقـ وـالـصـلـبـ وـالـجـرـبـ .ـ فـقـبـعـ مـنـ ذـلـكـ شـيـءـ كـيـرـحـنـيـ اـصـبـحـتـ الـأـسـلـابـ رـكـاماـ اـمـامـ الـنـسـطـاطـ وـالـأـسـرـىـ جـمـاعـاتـ مـشـدـدـوـدـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ بـعـضـ يـاعـنـاقـهـمـ اوـ إـيـدـيـهـمـ اوـ أـرـجـامـ وـالـرـجـالـ لـاـ يـزاـوـلـ

يـأـتـونـ هـمـ زـرـافـاتـ وـوـجـداـنـاـ

وـاجـمعـ قـوـادـ الجـنـدـ اـمـامـ فـسـطـاطـ طـارـقـ عـلـىـ بـاسـاطـ كـيـرـ انـتـرـشـوـهـ هـنـاكـ وـهـوـ مـنـ جـمـلةـ

الـغـنـائمـ .ـ فـلـيـسـ طـارـقـ فـيـ صـدـ الـمـكـانـ وـإـلـىـ يـدـهـ الـكـوـنـتـ بـولـيـانـ وـإـلـىـ يـسـارـهـ الـأـمـيرـ الـتـونـ

وـبـنـ يـدـيـهـ كـيـارـ الـقـوـادـ وـفـيـ جـلـيـمـ بـدرـ .ـ وـكـانـ الـتـونـ قـدـ لـقـيـ بـولـيـانـ سـاعـةـ الـخـامـوـ

إـلـىـ جـنـدـ الـعـربـ وـتـخـادـثـاـ مـلـيـاـ فـيـ شـأـنـ الـمـلـكـةـ وـمـاـ كـانـ مـنـ اـمـرـ اوـ بـاـسـ وـذـكـراـ فـلـورـنـداـ

وـإـنـهاـ مـتـيـمةـ فـيـ الـمـسـتوـدـعـ حـتـىـ يـرـسلـوـ فـيـ طـلـهاـ وـصـاعـلـيـ اـنـ يـسـتـقـدـمـاـهـاـ فـيـ صـبـاحـ الـفـدـ بـعـدـ

الـلـرـاغـ مـنـ قـسـمةـ الـغـنـائمـ وـالـأـسـلـابـ .ـ وـكـانـ الـتـونـ مـنـ اـنـتـهـاءـ الـمـعـرـكـةـ يـغـرسـ فـيـ الـأـسـرـىـ

لعله يرى او ياس ينهم وهو لا يتوقع ان يراه اسيرًا لعله الله ينفل الموت على الامر
فلم تكامل ايجاع التقاد وكل طارق الى كثير منهم ان ينمس الغنائم حسب العادة
فيهنص بيت المال بضمها ويقتسم الباقى بين النبائل على متضي تعدادها . وكان يقول
ذلك وامارات الاعتزاز والافتخار بادية في وجهه ووالتونس وبوليان يصالةان في امر
او ياس هل قتل او فر او اسر وكلاها يستبعد وقوته في الاسر . واذا هم عباعة من
جند العرب يموتون رجلاً طوبلاً شعر مسترصل على ظهره وكنهه ولا دنيا من النصاطط
تقدم احدم وهو يقول لطارق « وجدنا هذا الامير مغلولاً في مشارب التوط خلدا
وثاقه وجئنا به »

فتقال « اليه به ..

فأقبل او ياس وهو لا يزال كما كان في اثناء النبال مخلول الشعر وفي صدره صليب
وبين صليب . فلما وقع نظر التونس عليه لم يبال ذلك ان يهض حق وصل اليه فجئنا امامه
في اكب على يديه وجعل يتباهى ودموعه تساقط بلا بكاء . وقبل خروذلك بوليان وقد
امتنع في وجهه امارات السرور بالنصر بamarat الخجل من الحياة وتقلب على
ذلك كل انبساط النساء من المويداء . فاخذني على يد او ياس قتيلها وامسك به وداعاه
للجلوس في صدر المكان . وكان طارق وبدر وسائر القادة قد تخولت الغافر المالي ذلك
القادم وقد زاد هيبة وجلاً باستعمال ذلك الشعر

اما او ياس فإنه كان ينظر الى الذين حوله بلا اكتئاث . ولما دعاه بوليان للجلوس
امسك عن مباراته وظل واقفاً في مكانه يترس في وجوه الناس . ولو استطاع التونس
الترس في عبي او ياس لرأاه تلالاً آن ولم يخطر بباله انها تلالاً آن بالذم لاعتقاده
ان الطبيع لا تستطيع فعله — وهي لا تستطيع قبر العاقل اذا استدل على اطنه واخضعا
لعلمه فإنه لا يرى في حرواث الطبيع ما يدعو الى الحزن او الى النرج والحزينة يجهلها
نسبة من نعمات الوجود فما قوله باعراضها . ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة
للحزن والنرج — فلا تلوم من او ياس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة التوط من اسبابها
بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمن به من ملائفة ذلك حق اذا كاد يدرك مراده
ذهبت مسامعه ادراج الرياح وجوزي جرا . سقار — على ان اسئلة ما ليث ان تحول
الى الاعتبار فلما دعاه بوليان للجلوس توقف هيبة ثم قال بصوت جهوري فيه خشونة
من عظم الناشر « تدعوني يا بوليان للجلوس في مكان تخدمه يبنك وانت قد خسرت

هذا اليوم — بعدها يابوليان بارخص الاغنان وانت تزعم انك فعلت ذلك
انتقاماً من رجل ساقه ضعفه الى من كرامتك فدمست نفسك واهلك وسائر رجال
النوط والاسنان الى ضياع انتهم فاموالهم واعراضهم — حتى اينك التي ارتكت
هذا الخيانة غيرة على عرضها فقد ذهبت سيبة في يد رجل لا هو من دينك ولا امتك ولا
لذنك «

وكان او باس يشكك في المضمر مطرقون حتى العرب مع افهم لم يكونوا بهم ما يقولون
ولكنهم هم صوتاً ومنظار، أما يابوليان فإنه كاد يذوب بخجله فلما سمع ما يتوله عن فلورندا
وسيدتها امهه واجمل وكذلك النونس ولم يبالكا ان قالا بصوت واحد « ابن هي ؟ »
ولم يستقر باطلاعة على ذلك ولا استحسنا بتوله لانه لا يتول علينا فلما سألاه عنها وجه
خطابة الى النونس وقال « ضاعت خطوبتك منك وما أنت أهل لها وقد ارتكبت ما لم
يرتكبه رودريك — لانك خدت بذلك واهلك واضعيتهم جميعاً — فاذا كنت فعلت
ذلك غفراً لرجل أراد ان يمس عرضك فما هو مقدار العقاب الذي تستحقه انت وقد
جعلت اعراض النوط واموالهم واراضيهم معرضة للناس والنبل ؟ احكم لنفسك
فلم يكن جواب النونس غير البكاء وإنما يابوليان فإنه احسن بنيكيم الضمير
وخصوصاً لما سمع بضياع ابنته واراد ان يستفهم عنها فلم يذهب وظل مطرقاً

وكان طارق ويدر بمعن كلام او باس واعجبان به وهو لا يفهم ما يتوله
فالثالث طارق الى ماحولة يبحث عن ياريج له اقوى الله فرأى سليمان الناجر فادرك
سليمان غرض طارق قبل ان يسألة فقدم وفسر له كلام او باس وهو يتوقع ان يستهان
به فاذا هو قد زاد انجذاباً وخطاب او باس ببساطة سليمان فاثلاً « بورك فولك من
رجل عاشر وشئ كامل الي لا يتعجب من فشل جند النوط وفيهم رجال حكم مثلك
مع كارتهم واستعدادهم »

فنال او باس « لا تعجب يا ولدي ان للدول آجالاً كما للناس فاذا جاء اجلها
خاتمت الحول في استهانها على التي كنت احسنت اهل هذه الدولة اطول من ذلك
فچلة ضعف راي الملك وقساد نيات اهل شوراء وهكذا اراد الله »

قال طارق « فاذا كانت هذه اراده المؤول فلا يسوؤك خروج هذه الدولة من ايدي
النوط فان دخولها في حوزة المسلمين من اشياء سعادتها لان اهلها يعيشون في ظلها
ادفع عنهم الاعداء ونضمن لهم الامن ولا ن Kahnهم على ذلك الا جملة قليلة هو الجزءية فاذا

أدوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروجه وماله » قال ذلك وأمسك به او بآس ومشي به وهو يقول « هل بما إلى النسخاط ربها يارغ التقاد من قسمة الفنادق » فمشي او بآس وبوليان والذونس وبدر وهم سليمان وبهقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة فلتحد طارق في صدرها فلتفع او بآس الى فيه وبوليان والذونس الى بماره وقد بدري في جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لا يأساً التوب الذي حارب به وعلوه الموقف والدرع . ولم يصدق بوليان انهم استقروا هناك وذهب بهم من او بآس فعاد الى الاستئمام عن قلورندا فقال « سمعتك يا مولاي انقول ان قلورندا ذهبت مية فهل تعي ذلك خفيت ؟ »

قال « وبي كأن او بآس يتكلّم جراها ؟ »

فزاد اهتمام بوليان واستغرابه وأراد الاستفهام فسأله الذونس وقال « وكيف ذلك ؟ ومن سباهما ؟ »

فقال او بآس « لا أعرف اسم الرجل ولكنني رأيتها وإنما مسجون في الخيمة — رأيتها من شق في تلك الخيمة وهي عمولة الشعر تستجده طيور السماء ودببات الأرض لتنفذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليه . فجاءها فارس عربي اكثرة غير بربرى علي يوم عامة يهضأه فانفذها وآتاه قرب رودريك لأدري الى اين ولكن أمر رجل الله ان يجعلوها فحملوها نحو هذا المسكن وبالطبع انها ميبة وهي ملكُ للذى سباهما »

فقال بوليان « هل تعرف ذلك الرجل اذا رأيته ؟ » يظهر انه اخذها اليه واخناها عن الامير طارق لاني لم ارها بين السبابا »

قال او بآس « اظبطني اعرفه على انه يمتاز عن كل هذا الجهد ببلاس لونه وشقرة اشعاع »

فلما سمع بوليان ذلك اتجه فكره الى بدر فالحدث اليه وكان جالساً على عنده خطوات من بوليان يسمع كلامه ولا يفهمه لانه لا يعرف التوفيق . على انه لوفهم ان سمعته ابنة بوليان لم يبال لانه ما زال حافظاً عليه منذ أحقره بنت الشقيق صاحب الكرم ليله نزولهم شخص شريش . وكان بوليان خذن المعاشرة بمهب ما تسلط عليه من المويداء منذ بضعة عشر عاماً لصهيون المت به فاذهبت صوره على مرارة الحياة واصبح ضيق الخناق قصير البال . فكان رفقاء لا يسرؤن بعشرة وخصوصاً بدر لما يهتما من البوتان في السن . فلما نظر بوليان اليه كان هو يبتلاهي بيد سيفه يلاعنة بين اماملو وفكير عدد

فلىوندا لانه كان قد فتن ايجياما . فلما رأه يوليان مانشغلاً عن النبت المطارق وأفهمه خلاصة حديثه مع او باس وإنة يظن بدرًا هو الذي سبها وطلب إليه أن يتحققها منه .
فالنبت مطارق ، المطر ، ناداء « بدر ١ . »

وكان يدر قديع كلام بوليان لطارق ونم قصه فلما سمع طارقاً ينادي به اجابه
« وهو لا يزال جالساً » نعم «

وكان حارق شديد الفعل بيد رعية ويد الله ويعامله معاملة لا يهو او الاخ
الا كبر لاخيو . فلما رأمه اجاهه بلا اكتئاب ابضم الله وقال « أراك لا تزال جالساً أظنك
لم تسمع ندائـي .. »

فمال «ساعت واجبتك» وهو لا يلاعيب بهد سيفون

فقال طارق «قم اليه لأسألك سؤالاً»

فوقف وقال «وما سُوَالُك ؟ أَسْأَلُ كُلَّ مَا تَرِيدُ وَاطْلُبُ مَا شَيْءْتَ إِلَّا سُبُّقَ فَانْهَا
لِي وَلَا حاجَةَ إِلَى كُنْتَهُ الْكَلَامِ » قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ بِصَاحِبِ عَامَّتِهِ كَانَهُ يَسْعَدُ لِلزَّارِ
لِفَخْكَ حَلَاقِ حَقِّيْ بَانِتْ نَوَاجِنَهُ وَقَالَ « لَا أُدْرِي مَا سُبُّكَ وَلَمْ يَخْفِ
لِيْ طَلْبَكَ فِي شَيْءٍ بَعْدَ . . . أَلَا سَعَتْ قَوْلَنَا ثُمَّ قَلْتَ مَا تَقْوِلَةً ؟ . . . »

فال بدر «فل فاني سامع»

فال «احك لنا كيف عاشرت على هن الـ...»

الفصل الثمانون

الخصام

فاص عالم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك وكيف انه قتل الاساب مرتون ثم غرق هو في النهر . وكان اللونس واو بارس لا يهمن ما يقول فتخار با واحدنا سيليان ليترجم لها . فلما وصل الى مقتل مرتون بيد رودريك قال او بارس في لغته « لم يكن يلقي قتلة بغير تلك اليد » فلما فرغ بدر من حكايتها قال له طارق « لاشك انك استأثرت بهك الدمية وانت لا تعلم اينها ابنة الكونست بوليان . »

قال «نعم اني لم اكن اعلم بذلك ولكن علي لا يغير شهاداً من عزبي ...» قال ذلك

وتحول يريد الرجوع الى متعه فناداه طارق بفتح الجد وقال له «كيف لا يغير عمرك
وأنكواست بوليان هو الذي أكتسبناهذا النصر ولو لاء لم تدخل هذه البلاد ..؟ أتيت بها ان
شأبي أبنته ووحيدتها ؟ فارجمها ابو والك ما ثبت من سبابا عن الجزيرة وغافلها ..»
فقال « لا أريد شيئاً غيره .. وهي غريبة في الحرب وهو الذي صفي بالآمن من
غريبة الاولى لاتهم لم تؤخذ في أثناء القتال .. وهن ؟ .. ألم اغتنمها في ساحة الولي ؟ ..
ألم احراب ملك الفوط من أجلها ؟ وقد قتلت .. وكان قتلاه سبباً في فشل جده ..
المتكثرون في فناده سببها وقد تركت لكم نصيبي من ماضي النوبة ؟ ..»
فقال طارق وهو لا يزال يرجو افتتاحه « اذا كنت تفعل ذلك نكبة في الكونت
بوليان للانتقام منه فانتم من غير هذا السبيل .. وانت تعلم يا أخي ان عمالك هذا يخالف
حق العباد وعمرفة الجحود — ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت في هذا النفع
ثم قبل لهم اتنا أخذنا ابنته سبية .. ؟ فارجع الى ما هو اجرد بك من كرم الخلق —
افعل ذلك أكراماً لي وعلاقاً مجنون الآخرين ..»

وكان بدر شهماً لا يرضي ارتکاب هذا العار ولكن احب الفتاة منذ رأها وزاد
تعلماً بها لانه نعم في اقذها — ولذلك اذا تعب في سلامته شىء أحجه — فشق عليه
الختلي عنها .. فاطلق هديمة ثم رفع راسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال « حصدت
ايتها الامير ان اخاذ هذه الفتاة سبية بعد غدرها وخيانة ولكن احبها ولا يمكن التنازل
عنها لما زوجي الكونت اياها بشرع الله .. فهل له بعد ذلك ضرر ؟ ..»
فالثالث طارق الى بوليان كأنه يستطلع راية ف قال بوليان « ان الزيارة خطيبة وهذا
خطيبها » وأشار الى التونس

فقال بدر « لا يهمني .. فان الخطابة بسهل حلها »

فغمي غضب بوليان لهذا الجدال وضاق صدره ف قال « لقد أطلت الكلام بلا طائل
.. ان ابني خطيبة وهذا خطيبها .. وهب ايتها غير خطيبة فلا نصيبي لك فيها
والسلام ..»

فونب بدر ويله على قبضة حسامه وقال « ايتها سبية في ساحة الولي اخذتها بعد
هذا السيف فلا اخلي عنها الاحد ولو كان أمير المؤمنين الا ان باخذها معي بالسيف
كما اخذتها ..»

وكان سليمان يترجم للتونس واباس كل ما يدور من الجدال فلما بلغ الى طلب

المبارزة وقف التوين وبئ على قبضة سيفه وقال «انا اولى الناس بمنازلة هذا الشاب وكلانا طالب فـا يـا غالب في الله ...»

وقف بوليان وأمسك التوين وهو يقول «بل انا اولى بذلك منك فـا اذا قـتلتـ هـذا الفـلام فـنـدـ أـللـهـ الـجـزـاءـ الـذـيـ يـسـتـحـقـهـ وـانـ قـدـ اـلـقـىـ فـوتـيـ خـيـرـ منـ وـقـوـيـ فيـ مـعـيـةـ ثـانـيـةـ شـرـ منـ مـصـبـيـ الـأـولـيـ وـلاـ طـلاقـةـ لـيـ عـلـىـ اـحـتـالـ الـأـثـيـرـ مـمـاـ ...» قال ذلك وتقـدم وبـلـهـ عـلـىـ قـبـضـةـ حـمـارـ وـقـبـضـةـ بـدـرـ وـأـسـتـلـ الحـصـامـ فـنـادـهـ طـارـقـ فـلـمـ يـصـغـ وـنـادـيـ اوـهـاسـ بـولـيـانـ فـلـمـ يـطـعـهـ لـيـهـاـ خـرـجاـ عـنـ طـورـ الـعـقـلـ لـشـدـةـ الـفـضـبـ وـاقـسـ كـلـ مـهـماـ اـنـهـ لاـ يـرـجـعـ حـتـىـ يـقـتـلـ رـفـيـقـهـ اوـ يـقـتـلـ هـوـ فـعـلـاـ الشـجـيجـ فـيـ الـخـرـبةـ وـيـعـنـوبـ وـسـلـيـانـ فـيـ نـاحـيـةـ مـهـماـ يـنـهـارـانـ

وـبـدـاـ بـدـرـ فـاطـلـقـ حـسـامـهـ عـلـىـ بـولـيـانـ بـعـزـمـ شـدـيدـ وـلـوـلـمـ عـمـودـ الـخـيـرـةـ لـقـتـلـهـ لـأـ محـالـهـ وـلـكـنـ السـيـفـ غـاصـ فـيـ الـعـوـدـ وـوـقـفـ فـيـهـ وـلـمـ يـصـدـعـتـ يـدـ بـدـرـ لـشـدـةـ الـصـدـمـةـ وـلـمـ يـعـدـ يـمـتـطـعـ اـخـرـاجـ السـيـفـ مـنـ الـعـوـدـ فـاغـلـمـ بـولـيـانـ اـنـشـالـهـ بـذـلـكـ وـلـقـضـىـ عـلـيـهـ اـنـقـاضـ الصـاعـقةـ فـخـافـ طـارـقـ عـلـىـ بـدـرـ فـصـاخـ فـيـ بـولـيـانـ فـلـمـ يـصـغـ لـهـ وـفـعـلـ ذـلـكـ اـيـضاـ اوـهـاسـ وـبـولـيـانـ لـاـ يـهـالـيـ .ـ فـوـشـ طـارـقـ لـلـنـصـلـ يـهـمـهاـ بـالـنـوـةـ فـرـأـيـ سـلـيـانـ النـاجـرـ قـدـ سـيـقـهـ وـتـوـسـطـ يـهـمـهاـ وـأـمـسـكـ زـنـدـ بـولـيـانـ وـهـوـ يـوـلـوـلـ «ـ نـهـلـ يـاـ كـوـنـتـ بـعـيـاةـ طـوـبـاـسـ ...ـ»

وـلـمـ يـكـدـ سـلـيـانـ يـلـانـظـ بـذـلـكـ الـاسـمـ حـقـرـيـ بـولـيـانـ الـدـيـفـ مـنـ يـهـ وـلـسـلـانـيـ عـلـىـ الـارـضـ وـإـخـدـ فـيـ الـبـكـاءـ فـبـعـثـ الـجـمـيعـ حـتـىـ بـدـرـ وـلـلـهـنـاـ إـلـىـ سـلـيـانـ كـاـنـهـ يـمـتـاهـنـونـ عـنـ السـيـفـ فـاـشـارـ الـيـمـ اـنـ يـصـبـرـ وـلـوـقـواـ جـمـيـعـاـ وـلـنـدـمـ سـلـيـانـ الـهـ بـولـيـانـ وـأـمـسـكـهـ يـهـ وـجـعـ مـخـفـ عـيـهـ وـهـوـ مـتـنـغـرـ فـيـ الـبـكـاءـ .ـ ثـمـ اـلـتـهـتـ إـلـىـ سـلـيـانـ وـقـالـ «ـ مـاـذـاـ اـذـكـرـتـ هـنـهـ الـمـصـيـبةـ يـاـ سـلـيـانـ ...ـ» فـنـالـ «ـ وـعـلـ كـمـتـ نـاسـيـاـ اـيـاهـ ...ـ»

قـالـ «ـ كـلـاـ وـلـكـنـيـ لـمـ اـسـعـ هـذـاـ اللـانـظـ مـذـ اـعـوـامـ وـلـوـ تـخـلـيـ يـوـ لـكـتـ قـضـيـاتـ عـلـىـ هـذـاـ الفـلامـ وـخـلـصـتـ مـنـ وـقـاـحـوـ ...ـ»

فـنـالـ «ـ لـوـعـرـفـةـ مـاـ تـهـيـتـ الخـاصـ مـنـهـ ...ـ»

قـالـ «ـ وـمـاـ يـهـيـ مـنـ مـعـرـفـتـوـ؟ـ يـكـنـيـ للـدـلـالـةـ عـلـىـ اـصـلـوـ مـاـ ظـهـرـ الـآنـ مـنـ وـقـاـحـوـ وـجـادـيـوـ ...ـ»

قـالـ «ـ لـاـ تـبـالـغـ فـيـ شـفـوـ وـانـظـرـ الـوـجـهـ وـتـرـسـ فـيـوـ فـانـكـ تـذـكـرـ يـوـ حـيـاـيـاـ تـجـهـيـةـ وـنـوـمـ اـنـكـ فـقـدـيـهـ وـهـوـسـيـ يـوـنـ يـدـيـكـ ...ـ»

الفصل الحادى والثمانون

كشف السر

فلم يفهم بوليان مفرى تلك الاشاره وكان قد جلس وتحوى غضبه الى حزن ولا يزال او يهاد وطارق والتونس والقنيون وقد علهم الفتنه ما شاهدوه وهم ينتظرون ما ينقوله سليمان — فلما سمع بوليان اشارته تبه وترس في سليمان لوري هل هو بنول الجهد او المهرل فرأى الجهد بادياً في كل جارحة من جوارحة وقبل ان ينال كلة بهض سليمان والفتت الى المخصوص وأشار اليهم ان يقدروا ايسمعوا حدبياً يريد ان ياتمه عامهم فتفعدوا الا بدراً فانه اغتنم الشفاظم وخرج لاسيدال سينو استعداداً لما زاره بوليان ثانية — أما سليمان فقد دعوه وقال « اسمعوا قصص عليكم سراً حملناه من اعوام ونبه موعظة وحكمة » واخذ يقص حكاياته بالتوطيد ويتوجه الى العربية . قال ووجه خطابه اولاً الى او يهاد :

« لا يهمني على مولاي المازرو بوليت ما فاساء اليهود في اسيادها من ظالم حكامهم التوط من صرف الاخطاء والجور حتى اجرؤهم اخيراً على التصرافه او برحلات من بلادم^(١) فكان منهم من رجل ومنهم من ظاهر بالنصرانية وهي في البلاد يعني في انساد امرها على الحكومة . ولا أخفى عليك ان احد هؤلاء المتصرين وقد قدمت مع الكوت بوليان اعواناً وهو يحيى نصرانياً والحقيقة ان لا ازال على دين آبائي واجدادي . واظن مولاي المازرو بوليت يعلم ان يمنوب (واشار اليه) حرر من احصار اليهود وغنم من كبار اغتيائهم قد ظاهر بالنصرانية ودخل نفسه في خدمة البلاط الملوكي من ايام غيطلة المرحوم وسي الدبو في رفع الضغط عن اليهود وكاد يبعض لوم بخل دون ذلك اجل غيطلة . فلما تولى رودريگ عاد الضغط الى ما كان عليه وغضن بعد الجميعيات المرية وبدل الاموال في مناقبة هذه الحكومة الفظالة وهم اركانها — ولم تكن تذخر وعما في معاكمتها وما كانت رجلاً مامن الكوتية او التواد او غيرهم . ولكنها لم تكن تستطيع ذلك جهاراً فكنا نعمل سراً — وصلنا الى جوهر النص — واتبع لي بعد ظاهرى بالنصرانية

(١) درويج

الرحلة الى الافاق فترلت مدينه منذ بضعة عشر عاماً وثمرت من حضره الكونت وبذلك ما في وسي لاكتساب ثقليه فنزلت بذلك وصرت اتردد الى مت Luo كواحد من اهلو . وكان له ولدان احدهما اشلي وهي فلورندا والثانية ذكر كان اسمه طوماس . واندق في اثناء ذلك ان الحكومة جددت الاضطهاد على اليهود وانتها التعليمات المرية ان تنتقم لهم باي وسيلة كانت . ففيهاً لي ان احرم الكونت اغزو لدبها وهو المدعي ولم يتحقق نصي بقتله فاحتلت في سرقته وحله هي في اثناء استماري الى بعض قبائل البربر وبعده لاحظ كثيرون الوثبيين (ماربوط) يوماً رخيصاً ولم اقل لهم ابن اتهم به فاشتراء ثم ملأه الى زياد والد الامير طارق فرباه مع اولاده . فذهب "الفلام لا يعرف والله ولا احد يعرفه" سوالي وسمى بدر ابا ضمه وهو هنا الشاب الذي كان دن يدكم - وبما ان الكونت بوليان قد انتصب على حكمه النوط الآن ونصر اعداءه حتى أصبح من الصارنا فذلك وجوب علينا اطلاعه على هذا السر

وكان سليمان يتكلم وهم يطأولون باعنفهم وخصوصاً بوليان فقد حسب نسمة في حلم وكان وهو يسمع الحديث يبحث يصر عن بدر في جواب الخيبة وقلبه يخنق . وكانت النسم قد غابت واظلمت الخيبة واحس طارق من تلك الساعة كأن شيئاً ازجمت عن عينيه اذ عرف اصل هذا الكلام والتفت ونادي « بدر » فلم يجده احد ثم انشق ياب الخيبة ودخل بدر وقد بدأ سيفه

فلم رأه بوليان وشب وهو لا يدرى ماذا يقول ونادي « طوماس طوماس » وهرع نحوه . فلما رأه بدر مسرعاً اليه تراجع وبيه على قرامب سندو كأنه هم ان يضر به او ينافي ضربة يو . فوقف سليمان وقال « تعال يا بدر وقتل بد الكونت وهو يتأمل فانه ابوك

فبعث بدر فيأخذ الكلام هروباً حتى نقدم اليه طارق وقال له « محمد الله انك وجدت اباك وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتسائل عنه

فنظر بدر الى طارق وهو يقول « الكونت بوليان ايي وفلورندا اخي ؟ من ابن انت هذه القرابة ؟ »

وكان بوليان في اثناء ذلك واقفاً امام بدر وهو يفترس فيه على نور الدفق ثم جاءه بصاحب تناولة بوليان يهـ وجعل يفترس بدر وينامل ملامحة ومعانـ وجهـ فلذـ كـ بعد قليل ان لتلك الصورة شبهـ في ذهـو فثار الحـوـ في قلـيـ فـاكـبـ على بـدرـ وـضـمةـ الـ

صدره وجعل يقيلة وينشق ريحه وي يكن بكاء الفرج والناس وقوف وما فيه لا من
تحركت على اطامة لذلك المأثر الغريب . ولم يتحقق بدر الله في بقية الأَّ بعد قليل فقبل
بِدَّ والله ووقف كأنه أصوب بالجسود

مشت دفائين قليلة وأهل الخبرة يتبادلون عبارات الاستغراب ومحدون الله على
نجاة بدر من سيف والله والنضل في ذلك لمليان ثم الفتت أو باس وهو لا يزال الى
ذلك الحين مكثوف الرأس مخلول الدرع كما جاء وقال طارق « بأمر الامير طارق
حنطة الله ان تأتي ابنتنا فلورندا الى هنا ليم التعارف »

فقال طارق « وإن هي فلورندا يا بدر؟ »

قال « هي في خيالي » فامر سليمان ان يأتي لها

وكان فلورندا بعد ان جاءت تلك الخبرة قد اصلحت من نعيمها وهي متوجهة
بأخذوها الى ايتها فلما ابطأوا طلاق من الخضر ذلك فلم ينبعوا مرادها على افهم افهموها
بالاشارات امها لن تخرج تلك الخبرة فنكشت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان
فلما رأته استأنست بيه ومشت له وقالت « ابن والدي؟ . . . ابن التونس؟ »

ففتحك وقال « ان والدك مثناني الى روبيك ومتربنة فربها وأما التونس فلا يقارب
لك فهو بعد آلان لآن القارس العربي الذي اتفذك من بدي رودريك لم يتقل الا
ان تكوني له عروسًا »

فيجئها وقالت « وهل قبل والدي بذلك؟ »

قال « وماذا يفعل »

قالت « والتونس كيف فعل . . . لا اقبل باحد غيره الا . . . بظاهر يا سليمان
انك تزوج »

قال « تعالى واظري مجلس ذلك الدايم من ايك »

فخرجت فلورندا وطالها يجانها ومعها سليمان حتى اقبلوا على خيمة طارق فدخل
سليمان واشار اليهم ان لا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغنة غالبة على فرجها بالقها والدها
فسمتها سليمان الى بدر واخذت يده وجاء بهما وقال لها « قبل فلورندا يا بدر »

فأجلنت في وترجمت فاصح بها ايها « قل يا فلورندا »

فلما سمعت ذلك ثفتت ان اباها اراده لها زوجاً فحولت وجهها عنه واخذت في
البكاء وهي تقول « لا . . . لا حاجة لي بذلك »

فوقف عند ذلك بوليان وضم اهله يحيطه فقبلت يده وقبلها ثم ضم بدرأً يساره
وقبلة وقال « قبلو يا فلورندا انه اخوك طوماس الذي فقدناه منذ بضعة عشر
عاماً ..»

وكانت فلورندا تسمع وهي طفلة انه كان لها خوخ ضاع وقطعوا الامل من حياؤه فلما
قال لها ابوها ذلك تفرست في بدر وهي لا تعرف صورته وما زال المحجل [بعها من قلبها]
حتى هض اوباس ونادى « فلورندا » فاجذبت لانها لم تكن متوجهة ان تسمع صوتة هناك
واللتفت فلما رأته هرولت اليه واكبت على يده فقبلها والمعبرات تصاحق الى عينيها
وهي لا تعلم ماذا تتول

اما هو قبار كها وقال « محمد الله على سلامتك وعلى وجود اخوك بعد ان قطع الامل
من لثاؤ وغصه على القائل بالتوس وغحانك من الشراك » ..
فتهدى التوس وقال « ان خجاهها يا عاًه برفع النصل فيها اليك وحدك ..
فائل بركتنا ونعمه من الله لنا ..» واختنق صوته

فتشد اوباس وقال « بالتي استطعت ما انتاه ..» ولكنني لو استطعه ما التي
يدر بيها واخدو ولا اللقيت انت بخدابنك ..» المره يسمى في مدخل والله يدار من
سيل أخرى .. هناك اراده المولى فما علينا الا ان نشكر الله على ما وقع »

وكانت الحالة العجوز باقية فلما قوي لها قوى لها انهم وجدوا طوماس ودولوها عليه خمهة الى
صدرها وقبلتها وتنهالت رائحة حتى تصابق هو وسلست على بوليان والتونس ثم تناولت بد
او باس فقبلتها وقالت له « بقي علينا امر لا يتم سرورنا الا بـ .. ولا يقدر عليه سواك ..»
قال « اذلك تهدين زفاف فلورندا الى التونس وهذا واجب علي لاني واضح عربون

الخطبة فماهلي الى معا الدد » فلم تستطع الاعتراض

ثم وقف طارق وقال « اصرفي ان يتم لكم هذا الاجتماع في يوم نصرنا الله فيه وانتم متذلاين
في ذمي فانيون حريثنا اشاؤون آمنين بطلبيون مكرهون انتم ومن يلوذ بكم ..»

وقضوا برهة يعادلون في شؤون مخدلة وعيها فلورندا لم تختلف عن عيني التونس تاهيك
بها دار بين العيون من الحديث المختىء حتى اذا انقض هزيع من الليل قال بوليان « هل
بدي انصرف الى مرافقنا فانها تخرج الى الراحة بعد ما غاصينا من العدام في أيام المبار ..»
قال ذلك وخرج فتبعد اوباس والتونس وفلورندا ويدر ودل بوليان كلّاً على مكان
بيان فهو .. وذكر التونس بعنوب فجئت عنة فلم يره بينهم نظرة ذهب العدام في بعض المخيم

الفصل الثاني والثمانون

ـ قام الفتح ـ

بانوا تلك الليلة ولا نظيرها استطاعوا رقاداً لدرط تأثرهم من ذلك المثلث الغريب ولما أصبحوا أحب أو بأس ان يشرف على تلك الموقعة ثم يرى بين المعاشرين لمعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب فشي ورافقه بوليان وبدر والنونس فرأوا الجحش مبعثرة هنا وهناك وعرفوا من القتلى جماعة من القواد في جلتهم كوميسي فاسقويا علىه استنداً شديداً . ثم مررت بجبيحة الملك فرأوا بالقرب منها الآباء مرتين مجدلاً فلم يشاً أو بأس ان يتعرض فهو . ولما عادوا من ذلك العلوف طلب أو بأس من طارق ان ياذن لهم بنقل بعض الجحش للصلة عليها ودفتها فاجابه الى طليو فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلطا عليهم ودفنوها . فلما رأيهم فلورندا يدققون الموتى ذهبوا الى او بأس واحترثه بقتل ايجلا وشانيليا وطلبوا الىيو ان يصلب عليها ويدققها فاجابها الى ما طلبت وقد اسف لمقتليها ودفنتها معها من قتل من اولاد الشيخ صاحب الكرم ولما اخبرته بما كان من دفاع الشيخ وأولاده عنها اوصى طارقاً بذوها بهلو خيراً

ولما غربت الشمس هبوا التونسيون لعد آكيلو على فلورندا في خيمة بوليان فاحتذوا بذلك على ايماء الطالوس وقلوب الجميع تطلق سروراً على ذلك اللقاء ووجههم تحيسم الاً او بأس فإنه ما زال ساكناً كما همادتو لم يغسل عليه فرج ولا حزن . وبعد تمام الآكيلو سالم او بأس عن المكان الذي يفضلون الاقامة فيه ف قالوا « حينما تزيد انت » فقال « أما أنا فائز كولي وشاني ... » فقالوا « كيف تدركك وأنت حكيمها ومرشدنا ... » قال « لو كنت كذلك لتفهمك ... ازركوني اقضى بيته هناك الحياة بالعبادة والصلة وبالانقطاع عن هذا العالم فقد رأيت من شرورة ما كننا نعي ... وهل نوع أن أرى بعد هذه الواقعية غير ما يزيد اسفي وبصاعف حزني وإن لا استطاع العمل بما يدهوني إلى ضميري ولست بطيء على الواجب ؟ فالاولى في ان اقضي بيته هناك الحياة في مكان لا أرى فيه بشراً ... ولا يراجعني احد منكم في ذلك ... »

فلم يستطع احد ان يراجعه الا رجلاً نصدى له من جملة المخصوص وقال « وانا ابن اذعب ؟ »

فتوم التونس انا سمع صوت يعقوب ولكن الثيافة غير قيادته . اما او باس فعرفه فقال « هذا يعقوب قد وفي نشره واصلح لحيته واغسله » فذكر التونس شيئاً من ذلك منذ اجتماع يعقوب في طالبطة فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن المدام وقد اصلح لحيته وترها بزي حاخامي اليهود تماماً فقال له « وما ذلك يا يعقوب ؟ »

قال « قد آن لي وفا الدرر والغدر من ربقة الذل اذا صبح الناس بعد هذا النجاح احراراً ينبع كل رجل دينه . وانا من ام الله « يهودي » جسماً وديننا ذاحب الرجوع الى مذهبنا فاصلي في كوسفي وافرا في كتافي .. »

وبانها تلك الليلة فلما اصبحوا لم يجدوا او باس في خيمته ولا في سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك المuron . فعلموا انه تقوض للشمس كما قال ولما التونس وبوليان فطلعوا عوياً لخطرق وجده حق ام فتح الاندلس . وقلما لاق مشقة بعد تلك الواقعه الا في اسفه فانهم ساروا اليها نجاً بعد واقعة شريش وحارسها حرآ شديدة فلما فتحوها وقع للاربع في قلوب الناس وهردوا الى طالبطة فشار بوليان على طارق انتصرت حوصلة في مدنهم الا انه ليس لان الناس اخواها وساروا الى العاصمه فبعث جيشاً الى قرطبة وجيشاً الى غرناطة وجيشاً الى مالقة وجيشاً الى نديور وسار هو ومعظم الجيش الى طالبطة فوجدها خالية لان اهلها لحقوا بدببة خلف الجبل - اما الجيش الذي سار الى قرطبة فانهم دلم راع على نقرة فدخلوا منها البلاد وملكته . والذين فضلوا نديور فتحوها بالسوف وفتحوا غيرها من المداير - اما طارق فلما رأى طالبطة فارغة خم اليها اليهود وترك معهم رجالاً من اصحابه وسار لـ نام الفتح كما هو مفصل في كتب التاريخ^(١)

انت الرواية